المجلس الأعلى للثقافة

فى الفكر الإسلامى

من الوجهة الأدبية

دكتور محمد أحمد العزب

القاهرة
١٩٨٣

مقدمة

لا أزعم أننى بهذه الصفحات أضيف جديدا الى هرم الدراسات الاسلامية ، ولكننى أستطيع فقط أن أزعم اننى أفتح بها بابا للحب الفكرى في تناول بعض قضايا الاسلام • هذا الدين الرائع الذى يقدم للفكر البشرى مساحات هائلة من امكان التطلع والاستقصاء ، ليجرب فيها هذا الفكر البشرى قدراته وقواته ، مؤطرا حركته فى هذا المجال باسوار من الحق والخير والجمال !!

ان محاولات الاقتلاع لا تحارب بسيوف قديمة •• ان دورنا نحن يتجسد فى استيعاب منطق العصر ، وانتضاء اسلحته الفكرية والفنية والأكاديمية ، حتى يصبح حوارنا العقائدى مفهوما من الاجيال الطالعة !!

هذه الدراسات • تبشر (ربما) بارهاصات هذا الفهم • وهى بالضرورة تحمل ماتحمله كل البشارات من عفوية الرؤية ، واندفاع الايمان ، وتوتر المقولات !!

وباسم الحق وحده ••• تخوض بحار القبول والرفض !!

دكتور محمد أحمد العزب
كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

قضايا من الفكر الإسلامي

دعوة الى أدب اسلامى

قبل الخوض فى هذا الغمار .. لابد من تفرس وجه الأدب فى شكله العام لنعرف ماهو ؟ ان وقوفنا على حقيقة ماهية الأدب هو وحده الذى يمكن أن يتيح لنا أن نعرف الى أى مدى يمكن ان يوجد أدب اسلامى .. أو لايوجد على الاطلاق !!

ولسنا بالطبع فى حاجة الى الضياع فى مجاهل التعريفات الغريبة المتشابكة التى يكب عليها جيل من أدبائنا ومفكرينا بلا يأس .. لسنا فى حاجة الى الضياع فى مجاهل هذه التعريفات .. لأنه لايحبط من قضيتنا ولا يؤلق من مصابيحها أن يكون الأدب مشتقا من «الداب» بمعنى العادة .. وأن يكون هذا الاشتقاق من الجمع وليس من المفرد .. وأن يكون هذا الجمع هو « آدآب » وأن يكون فى نهاية الأمر قد حدث فيه قلب فقيل « آداب » كما يقال فى «بئر .. أبآر ثم آبار» وفى «رئم .. أرآم .. ثم آرام» ... الى آخر مايقال فى هذا الصدد .. مرورا بكون هذا الأدب قد اشتق مرة من «الأدب» بمعنى الدعوة الى الولائم .. أو اشتق مرة أخرى من «أدب» بمعنى علم وهذب .. أو

استجلب فى نهاية الامر من لغة غير اللغة العربية على الاطلاق !!! (١)

قلت .. لايعنينا كثيرا أن يكون الأدب مشتقا من المفرد أو مشتقا من الجمع .. ولا أن يكون مشتقا من مادة دون مادة أخرى .. ولا أن يكون مصطلحا نابعا من الحس اللغوى للعربية أو وافدا اليها من الحس اللغوى للهجة من اللهجات أو لغة من اللغات .. لأن مجال مثل هذه الدراسة الأكاديمية البحتة انما هو البحث العلمى المتخصص فى تاريخ الأدب بما هو رصد لمساره فى الزمن .. من أين والى أين .. وليس هو الأدب نفسه بما هو معطى فكرى ووجدانى نابع من حاجة الانسان الوجودية الى التعبير الجمالى عن واقع يختلط فيه الجمال بالقبح .. والخير بالشر والوجود بهوات من العدم الطاغى بلا قرار !!

يكفى اذن .. أن نقول : ان الادب هو حركة النفس فى الوجود من خلال حلولها الجمالى فى كلمات !!

فاذا اتفقنا على أن نبدأ من هذا المنطلق ، فلست اعرف حاجزا يمكن ان يقف فى وجه ميلاد حقيقى لأدب اسلامى يضع شروطه على صعيد الأدب العالمى العائش فى الزمن وما وراء كل الأزمان .. اننا نقرأ الأدب « الاشتراكى » والأدب « الرأسمالى » والأدب « الوجودى » والأدب « اللامعقول » .. وكل واحد من هذه الأنماط انما يصدر عن رؤيا مذهبية .. ويهدف الى غائية عقائدية حتى فى أدب اللامعقول يوجد دائما معقول خلف هذا اللامعقول يحرك الكاتب فى اتجاهه .. ويعطيه مبرر الرفض .. أو مبرر العبث .. أو مبرر اللاجدوى التى يكثفها ايقاعا جماليا فى السطور !! فلماذا لانقرأ الأدب « الاسلامى » الذى يصدر عن عقائدية اسلامية بحتة

---

(١) راجع « فى الأدب الجاهلى » ـ للدكتور طه حسين .

بكل مافى هذه العقائدية الاسلامية من انفتاح قابل وموصل .. متأثر ومؤثر .. آخذ من غيره مايلائم مناخه الفكرى والروحى ... ومعط غيره من روافد مناخه الروحى والفكرى بلا حدود !! قد يقال هنا ... ان الادب «العربى» فى اطاره العام يعنى بالدرجة الاولى انه أدب « اسلامى » لانه صادر من منطقة تدين قطاعاتها العامة بالاسلام .. وناطق باللغة العربية التى هى لغة القرآن محور تحرك الاسلام ... ولكن هذا المنطق الساذج يجب أن لايخدعنا عن حقيقة مانريد أن نقول ... ان أدبا ينطق بالعربية .. ويصدر عن أديب مسلم .. لايعنى بالضرورة انه أدب «اسلامى» ... الا اذا كان هذا الادب صادرا كما قلت عن «عقائدية» اسلامية ناضجة .. ومعبرا عن رؤية فنان مسلم موهوب .. يستشعر فى كل حروفه انه فاتح مطالب بالفتح .. أو مجاهد محكوم بمنطق المقاومة ... أو ملتزم لايستطيع أن يتحرك الا فى مناطق التزامه الطوعى ... ان ما أعنيه بالادب الاسلامى أن يكون على الارض ادب بملامح تصرخ باسلاميته حتى ولو لم تتشدق السطور بلكنة دعائية من هنا أو هناك .. فماذا اذن نقصد بكلمة « الأدب الاسلامى » ؟ وما ملامح هذا الأدب .. ؟ ان كانت له ملامح فارقة تحدد أبعاده وأحجامه ؟؟

ان ما أعنيه بالأدب الاسلامى كما قلت ليس شيئا غير أن يكون أدبا عقائديا .. يصدر عن رؤية عقائدية .. ويرسم فى رحلاته مع الصوت واللون وحبر القلم فلسفة انسانه المسلم ... بوضعيته فى الكون .. وبوضعيته من الكون .. وبوضعيته مع الكون فى أكوان أخرى بلا حدود !! هذا ما أعنيه بمصطلح «الادب الاسلامى» .

أما ملامح هذا الادب الفارقة ... فلست أجدنى فى حاجة الى مزيد من المعاناة حتى أقف معها وجها لوجه ...

ان **العقائدية** أول هذه الملامح .. والعقائدية هنا ليست موقفا متصلبا من قضايا كونية ترفض ماعداها بلا حوار .. وانما هي بالدرجة الأولى عقائدية « فاعلة » تفتح كل جبهات الحوار بلا وجل .. وأيضا بلا سأم .. ان عقائديتها تنبعث من رغبة أكيدة في الفهم .. ورغبة لازبة في الجدل .. ورغبة ظمأى دائما الى الاشعاع من .. وفي .. وعلى كل المستويات !! ولست أقصد من الادب العقائدى أن يصوغ العقائد شعرا .. أو مسرحا .. او رواية .. ولكني أقصد أن تكون الرواية .. والمسرح .. والشعر .. انعكاسا لايمان الفنان بعقائدية اسلامية .. أما القضايا .. والظواهر .. والقوانين .. فقد يكون في البحث الاكاديمي متسع لها جميعا .. يجلي غوامضها .. ويكشف عن أسرارها للجموع !!

والتراثية ملمح من هذه الملامح .. ولقد أعني بالتراثية انحناء الادب الاسلامي المعاصر على تراثه المتفجر بالعطاء .. واستلهام هذا التراث بلا ملال .. وقد أعني بالتراثية الى جانب ذلك .. ان نخوض بها عباب الواقع المعاصر .. وأن نعرض اجسادها لشمس العصر .. وهوائه .. وتياراته .. وان نعيد تحليلها وتركيبها من جديد .. وان نضيف الى فهم السابقين لها فهمنا الآخر المعاصر .. وأن نرفض الخوف الكسيح على جلالها ان يخدش .. وعلى نومها أن يفزع بأحلام عصرنا القافز !! ان التراثية التى أعنى .. هي نوع من البحث البدئي عن الذات .. ثم المغامرة بهذه الذات في شتى مجالات الصراع والابداع .. ان ذلك وحده هو القادر بغير حد على اعطاء التراث وجهه الحضاري .. وعلى اعطاء وجهه الحضاري ملامح التفرد .. والتمايز .. والتشخص الواعي بدوره على مسرح الوجود !!

والقرآنية ملمح من هذه الملامح .. وأرجو أن أكون مفهوما حين أقول ان القرآنية ملمح من ملامح هـذا الادب الاسـلامى المنشود .. ان القرآن ليس مذهبا ادبيا ادعو الى احتوائه .. ولكن الادب الاسلامى اتجاه يجب أن يستفيد من قرآنية القرآن.. ان الشعر العربى المعاصر ـ والشعر الحر منه على وجه التحديد ـ قد استفاد من الانجيل والتوراة أكثر مما استفاد من القرآن .. ولقد حاول الاستفادة من التاريخ الاسلامى .. الا أن اقترابه من القرآن مايزال مشوبا بحذر لا مبرر له .. ولا منطق من ورائه .. وربما كان ذلك بعض جناية الفكر الجامد المتعنت .. الذى يرى فى استلهام الشاعر المعاصر لقرآنه لونا من ألوان التجديف والتحريف .. اننى ـ بداهة ـ لا أدعو الى صوغ القرآن شعرا .. ولكنى أدعو بلا تهيب الى أن يكون القرآن بأسلوبه الفذ .. وسياقه المعجز .. وقصصه الهادف .. وايقاعه العملاق .. مجالا لتحرك الشاعر بالشعر .. يعيش به فى أعمار قصائده التى تولد من غور الذات وأغوار الوجود !!

والانسانية ملمح من هذه الملامح .. وقد يشتجر الخلاف حول هذا الملمح بالذات .. بما هو قاسم مشترك بين كل الآداب المحلية والعالمية على السواء .. ولكن هذا الخلاف لايعفينا من تقرير هذه الحقيقة .. أولا : لان احتواء الادب الاسلامى على ملمح من ملامح غيره من الآداب لايطعن فى تفرد هذا الادب بحال من الاحوال .. وثانيا : لان انسانية أدب من الآداب لايمكن أن تكون انسانية أدب آخر .. بمعنى أن مفهوم «الانسانية» فى الادب الاشتراكى .. غير مفهومها فى الادب الراسمالى .. غير مفهومها فى الادب اللامعقول .. ان الانسان محور كل هذه الصراعات يعيش فى الادب الاشتراكى وضعية مخالفة تماما لوضعيته فى الادب الراسمالى .. ويجب أن يعيش وضعية أخرى فى الادب الاسلامى

.. اننا نطل على الانسان من خلال تقييم معين .. عقائدى قد يكون .,. وفكرى ربما .. الا أن اطلالنا عليه مغاير تماما ..ويجب أن يكون مغايرا تماما لاطلال غيرنا عليه .. ولسنا مطالبين باحتذاء نمط من هذه الانماط .. ولكن هذه الانماط جميعها يجب أن تكون دائرة فى حتمية احتذائها لنا .. متى استطعنا نحن أن نحتل المشارف التى تؤهلنا لاحتواء هذا الدور القيادى الخطير !!

والنضالية ملمح من هذه الملامح .. وأعنى بالنضالية أن يخرج الادب الاسلامى الى مجالات التحقق الوجودى مرتديا خوذاته .. قابضا على كل البنادق .,. مقاتلا حتى غسق الكون الاخير من أجل أن تولد على الارض العدالة .. ويتحرر فى الارض الانسان !! ان النضالية هنا لاتعنى قتالا من أجل لقمة الخبز .. أو من أجل تحرير أشبار من الارض .. ثم لاشىء .. ولكنها تعنى قتالا من أجل ثقافة واعية .,. وقتالا من أجل ابتسامة نظيفة .. وقتالا من أجل انتماء شريف .. وقتالا من أجل تواصل كونى بين شرق هذا العالم وغربه .. تواصلا يفضى فى النهاية الى مزيد من الحب .. ومزيد من الفعاليات !! ان نضالية الأدب الاسلامى المنشود تعنى الخروج من مقاعد المتفرجين الى ساحة الصراع .. تعنى ان نرفض كل ماهو مخنث فى الأدب .. كل ماهو خرافى فى الفكر .. كل ماهو عشوائى بلا بصيرة فى الشعر .. كل ماهو عدوانى يستهدف فى النهاية ضرب مكاسب الانسان !!!

كل هذه الملامح التى أسلفت .. من **عقائدية** .. الى **تراثية** الى **قرآنية** .,. الى **انسانية** .,. الى **نضالية** .. يمكن أن تشكل فى النهاية كل ملامح الأدب الاسلامى المأمول .. ويمكن ان تكون بعض ملامح هذا الأدب متى شارف مراحل التحقق والنضوج .. فان بداهة يقينية أومن بها على الاطلاق .. وهى أن كل أدب يشكل

فى النهاية ملامحه .. ولا يمــكن ان يجىء أدب ليطابق مواصــفات موضــوعة له من قبل لحظات ميلاده .. أن حركة الأدب فى مدها الزاحف .. وجزرها المقرور .. فى اندفاعها الرائع الى الفعل .. وانفتاحها الرائع لرد هذا الفعل .. فى تحورها .. وتطورها .. وارتدادها الدائم الى محورها ومن محورها جميعا .. كل اولئك يشكل فى النهاية كما قلت ملامح هذه الحركة .. او ملامح هذا الأدب كما يجب ان يقال !!

ولكن .. اذا كان الأدب هو حركة النفس فى الوجود من خلال حلولها الجمالى فى كلمات .. كما قلنا .. فماذا يكون موقف الأدب الاسلامى من هذه الجماليات وهو كغيره من الآداب محكوم بهذه الجماليات ومطالب بها على كل المستويات ؟ كيف يمكن لهذا الأدب « العقائدى » ان يتواءم مع الخيال .. والاسطورة والخرافة .. وكل مضامين الشعر التى بها غالب الشعر كل عناصر الفناء فى الزمن .. وانتصر بها على كل حرائق التاريخ ؟؟

هنا .. لابد من العودة الى تأكيد أولى .. أن « المباشرة » لايمكن أن تكون ملمحا من ملامح هذا الادب الاســلامى .. ولم نرها واحدة فى كل مارصدنا له من ملامح بالذات .. وتأسيسا على هذا التأكيد الاولى .. فقــد يصح لنا أن نقــول ان الادب الاسلامى الذى هو أدب عقائدى بالدرجة الاولى .. مطالب بارتياد كل آفاق الابداع الفنى .. وبالصيرورة الى كل اطار من هــذه الاطر الفنية .. ان شيئا واحدا هو مانطالبه به .. أن يعيش أبعاد قضيته .. أن تكون لحم اطاره ومحتواه .. وهو بعد .. حــر بلا مبالاة فى كيفية أدائه للدور .. فى كيفية استيلائه على مناطق الصحو فى الجماهير !! ان هذا المنزع الفنى معترف به من القرآن الكريم .. فى قصصه .. وأمثاله .. معترف به من مناط وحى هذا القرآن « محمد صلى الله عليه وسلم » فى بعض من أحاديثه ..

وأمثاله .. معترف به من أولئك الرائعين فى كل عصر .. الذين لم يحجروا الاسلام فى نمط دعائى .. وانما انساحوا به من خلال كل أشكال التعابير .

اذن .. فجمالية الادب الاسلامى بما هى حتمية قدرية .. تبيح له بلا تحرج أن يوغل فى الخيال .. وان يرتفق الأسطورة .. مادام ذلك قائما على اساسين .. أولهما : رفض المباشرة فى التعبير عن حقائق صلبة .. وترك هذا المجال للفكر الاسلامى .. والفلسفة الاسلامية لقدرتهما وحدهما على الخوض فى هـذا المجال .. وثانيهما : استذكار الهدف دائما على طرائق الوسيلة .. واستهداف الغاية دائما من وراء الواسطة !! وهذا وجه القضية بلا أقنعة !!

قد تشتبه المعالم هنا .. فيخيل الى البعض اننا ندعو الى أدب اسلامى يخلط الحقائق بالخرافة .. والواقع بالأسطورة .. والمعنى باللامعنى اذا جاز .. وما الى هذا المستوى النازل يجب أن نهبط فى تصورنا لحقائق كل مايقال .. ان واقع الاسلام .. وحقائق الاسلام .. ومعنى المعنى فى الاسلام .. لم تعد قضايا قابلة للأخذ والرد على الاطلاق .. ولكن الأدب الاسـلامى المأمول فى أطره المختلفة .. شعرا .. وقصة . ورواية .. ومسرحا .. يجب أن يتحرك من منطلق ايمـانه بهـذه القضـايا أولا ، ثم من منطلق « احساسه بها » وليس « صوغها » ثانيا .. ثم من منطلق اسـتفادته بكل أشـكال التعبير الملائمـة لعصره فى نهـاية الامر ... وهكذا ـ فيما يخيل الى ـ فعل توفيق الحكيم فى مسرحيته «أهل الكهف» .. وطه حسين فى ترجمته الروائية «على هامش السيرة» وغيرهما ممن تصدوا للكتابة فى هذا المجال .. ممهدين بحق لخلق ادب اسـلامى عابر لحدودنا ومخاطب لكافة

أنماط البشر فى كافه زوايا الأرض ·· بلا تفرقة من لون ·· أو جنس .. أو جغرافية مكانية .. أو حتى زمانية .. على تعاقب الاحقاب !!

الأدب الاسلامى الذى ندعو اليه ... ادب عقائدى بلا تعصب .. تراثى بلا جمود .. قرآنى بلا تحفظ ... انسانى بلا كراهية .. نضالى بلا مبالاة ....

الأدب الاسلامى الذى ندعو اليه ·· ليس هذه البحوث الفقهية .. أو الاصوليه .. أو التاريخية ... التى تسيل على اقلام الكاتبين .. وان كان لهذه جميعا دورها الخطير فى تشكيل ملامح العصر ..... وانما هو الادب بمعناه الجمالى .. قصة .. أو مسرحا ..أو رواية .. أو شعرا ... وارجو الا يصدمنا مصطلح « الأدب بمعناه الجمالى » ·· لأن « الجمالية » فلسفة غائرة العمق ... وليست مجرد تلوين لسطوح الاشكال .. ليست الجمالية موقفا من مواقف الترف حيال ما يجرى فى الكون .. ليست انكماشا مخدرا فى لذاذات فردية بائسة .. ليست التلهى بأنماط من القول منخوبة بلا قرار ....

الأدب الاسلامى الذى ندعو اليه .. هو كل اولئك جميعا. ·· وهو شيء وراء كل أولئك جميعا لأن الأدب الحقيقى ـ كما قلت ـ قادر باستمرار على أن يخلق قوانينه ·· ويشكل ملامحه ·· ويقف اطاره ومحتواه على مستوى المعاطاة التى لا تنتهى الى حد ·· غير حد الابداع دائما ·· والريادة دائما ·· ونبالة الذود عن كل ما هو رائع فى التاريخ ·· دائما دائما !!

عن البطولة والبطل ٠٠ من المنظور الاسلامى

- ١ -

التصدى لقضية «البطولة والبطل» من المنظور الاسلامى ليس حركة « استقصاء » تاريخى بقدر ما هو حركة « استبصار » تاريخى ، واعتقد أن الأبوان الفارقة بين الاستقصاء والاستبصار هنا أوضح من ان تحتاج الى تعليقات أو هوامش أو شروح ٠٠ فالاستقصاء نوع من الحشد التراكمى الغارق فى جواذب الكم ، والاستبصار نوع من الانتخاب الطبيعى الغائص فى تأمل الأنواع !!

ولن يتاح لحركة الاستبصار التاريخى ان تعطى حكمها الموضوعى المقنع فى غياب حركة الاستقصاء لان الحكم علىٰ أى شىء – كما يقول المناطقة – فرع عن تصوره ، والتصور لا يكون حقيقيا الا اذا كان قائما على الحضور الكلى للصورة ، والحضور الكلى يستدعيه – دائما وبلا تردد – الاستقصاء التاريخى دون غيره من المجالات !!

ومن الضرورى قبل أى شيء ان نؤكد ان الاستقصاء لن يكون مرتبا هنا ترتيبا تاريخيا تعاقبيا ،بقدر ما سيكون مرتبا ترتيبا استغراقيا اذا جاز لنا أن نقول ٠٠ بمعنى أن اهتماماتنا الأولى لن تكون على عنصر الزمن بقدر ما ستكون على عنصر الفكر ، فقد يجوز ان يتطور الفكر فى خط مواز لتطور الزمن ، وقد يجوز كذلك ان يرتد الفكر ارتدادة ناكصة فى عصر لاحق عنه فى عصر سابق ، ومن هنا يكون استقطاب حركة الفكر أهدى وأرشد ، وان كان ذلك لا يعنى بالطبع اهدار قيمة العنصر التاريخى على الاطلاق ، فاذا واكبت الحركة الفكرية تطور الزمن فان ذلك هو المسار الطبيعى لجريان الاشياء فى مجراها الطبيعى ، الا اننا لن نكون ملزمين بدوران اعمى ــ من أى لون وفى أى اتجاه ــ اذا ما انفصلت حــركة الفكر عن حركة الزمن طردا أو عكسا ٠٠ ان ذلك لن يكبلنا بالتزام من أى نوع نحو أى من المسارات مادامت قضيتنا هى قضية الفكر ٠ وليست قضية الزمن!!

وتصورى ــ فى مواجهة هذه القضية ــ يمر بالضرورة فى مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : محاولة التعرف على ملامح البطولة والبطل ــ عبر أطوار التاريخ ــ من الوجهة غير الاسلامية

المرحلة الثانية : محاولة التعرف على ملامح البطولة والبطل من الوجهة الاسلامية .

المرحلة الثالثة : محاولة المقارنة بين مفهوم البطولة والبطل من الوجهة الاســــلامية ٠ وبين مفهومهما معا من الوجهات الأخرى ــ غابرة ومعاصرة ــ على السواء ! ٠

وقد يمكن ان يقال : ان البطولة والبطل قد تعاورتهما ــ من الوجهة غير الاسلامية ــ اطوار أربعة :

(أ) طور البطولة الاسطورية .

(ب) طور البطولة التاريخية الخرافية .

(ج) طور البطولة التاريخية الفردية .

(د) طور البطولة التاريخية الاجتماعية .

ولكل طور من هذه الاطوار بواعثه البـــادية أو المستسرة ، وضوابطه الضاغطة أو المنفرطة ، وملامحه الصميمة أو القشرية .. ولكن من الحق أن يقال هذه البواعث ، وهذه الضوابط ، وهذه الملامح . لم تكن على مستوى واحد فى كل هذه الأنماط ، فقد كان مزاج العصر ، وطبيعة البيئة ، ونضج الثقافة يشكل فوارق صميمة بين واحدة وأخرى من هذه البطولات ، ويباين بالضرورة بين واحد وآخر من أولئك الأبطال .

هذه الاطوار البطولية الأربعة هى ــ فيما نرى ــ جهات البطولة الأربع ، وربما كانت هذه المحاولة فى استقصاء اطوار البطولة أو الاطوار التى تعاورت البطل على وجه التحديد ، خطوة على طريق التأصيل لمنهج علمى يدرس البطولة والبطل فى ضوء انتماءاتهما التاريخية وليس فى ضوء تمزقهما الكيانى بين هذه وتلك من عواطف التجريد !!

والبطل ــ فيما أعنى ــ هو الموجود القادر على « الفعل التاريخى »

والبطولة ــ فيما اعنى ــ هى « القدرة على الفعل التاريخى »

وعلى ضوء هذا التصـــور نستطيع منذ البـــدء ان نتجـــاوز « البطولة الاسطورية » بما هى عاجزة عن الفعل التاريخى أساسا ، وبما هى قاصرة عن امدادنا « بالبطل » الذى يستطيع ان يقود حركة التحول ، أو يفجر ثورة التغيير فى نهاية الأمر !!

يبقى ان نتأمل اطوار البطولة الثلاثة : التاريخية الخرافية ·· والتاريخية الفردية ·· والتاريخية الاجتماعية · لدورانها جميعا حول محور التاريخ من جهة ، ولتفاوت أقدارها من حركة الفعل الحقيقى من جهة أخرى · ثم ــ وهذا هو الأهم ــ لمغايرتها فى النهاية للمنظور البطولى فى الاسلام ، بما هى اجتراح بشرى راسف فى قيد محدوديته ، ان استطاع ــ كجانب من جوانب القضية ــ أن يشير كمال الجانب الآخر ــ أعنى الجانب الاسلامى ــ فلن يستطيع أن يثبت كماله هو ، أو حتى قدراته على الكمال !!

من المنظور التاريخى الخرافى :

من الممكن أن نحدد مصطلح « البطولة التاريخية الخرافية » من خلال عنصرين أساسيين هما :

- ★ عنصر التاريخ ··
- ★ وعنصر الخرافة ··

وأعنى بعنصر التاريخ أن يكون البطل ــ المحور قد عاش بالفعل يوما على هذه الأرض ، وأنجز بالفعل عديدا من البطولات والأعمال العظيمة ، أى أن يكون هذا البطل قد قام بفعل تاريخى على وجه اليقين ·

وأعنى بعنصر الخرافة أن يكون هذا البطل التاريخى ــ المحور قد وصل فى أخلاد عاشقيه الى مرتبة أعلى من مرتبة الانسان العادى ، فأضافوا الى تاريخه الحقيقى تاريخا غير حقيقى ، والى أعماله المتعينة أعمالا متخيلة ، والى صورته كانسان صورته كقديس ، أو صورته كملك ، أو صورته كمبدع خرافى لكثير من الأشياء !! وأن يكون الحافز من وراء تكبير هذه الصورة التاريخية وتضخيمها الى هذا الحد الذى تفقد معه كثيرا من ملامحها الانسانية أو تكاد ، هو

الافتتان الذاهل ببطولة هذا البطل ، وبانجازاته الحضارية كما يكون المفهوم للانجاز الحضارى فى عصره وعصورهم معا ، ثم امتداد هذا الحس الذاهل المفتون ببطولة هذا البطل فى أعراق المراحل التاريخية التالية ، حتى يتحول البطل الى خرافة ، ويتحول الاعجاب الى عبادة وتكريس !!

ونستطيع أن نبين ملامح هــذه المرحلة ، أو قل ملامح بطوله البطل فى هذه المرحلة من خلال « أودين » بطل « كارليل » الذى فتنه ــ كما فتن أجيالا من قبله ــ الى حد منحه معه أهلية العبادة ، وامكانية أن يكون « مبدعا خــلاقا » وليس مجــرد واحد بارز من سواء الناس !!

ان « كارليل » فى ترجمتــه « لأودين » يتفرس باعجاب غير مبرر ملامح الأساطير الخارقة التى كانت تعج بها جزيرة «ايسلاندة» ويتأمل باعجاب أكبر ــ غير مبرر كذلك ــ ملامح « أودين » كبطل أخذ على عاتقه مهمة تفسير هذه الأساطير ، ويزعم الكاتب أن تفسير بطله الثاقب للأساطير كان نقطة البدء فى اعجاب الناس به ، ثم افتتانهم بقدراته الخارقة ، ثم عبادته فى نهاية الأمر .

ويزعم المؤرخ « سنورو » ان أودين كان أميرا وفارسا وبطلا فى بقعة بقرب البحر الأسود ، له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته، ثم ان بلادهم ضاقت بهم فخفوا الى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار . وان هذا الأمير « أودين » اخترع حروف الهجاء ، وابتدع الشعر ، وغيرهما ، ثم آل به الأمر الى ان اتخذه الناس الها (١) .

ولكن المؤرخ « جراماتيكاس » وهو أشــد ثقة برأيه من

---

(١) أنظر الأبطال . توماس كارليل . ترجمة محمد السباعى

« سنورو » لا يصعب عليه أن يختلق لكل خرافة أصلا وحقيقة ، ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت هنا أو هناك (١) .

ويجىء المؤرخ «تورفوس» بعد هذين بقرون ، فيضع تاريخا لزمن « أودين » اذ يقول : ان أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد (٢) .

ويأتى المؤرخ « جريم » لينفى وجود « أودين » نفيا كاملا ، معتمدا فى حركة نفيه على علمه بالاشتقاق اللغوى (٣) .

ويتصدى له ولغيره من المؤرخين من يؤكد ان « أودين » كان رجلا تاريخيا مقدودا من لحم البشرية وعظامها ، يبصر بالعين ، ويلمس باليد ، وليس مجرد هالة خرافية من النعوت والأوصاف والسمات !!

ولكن (أهل عصره لم يعرفوا لاجلالهم اياه حدا ، بل لم يكن لديهم اذ ذاك ميزان يزنون به الاجلال .... أو ربما كان ذلك الرجل « أودين » اذ منحه الله العقل الكبير ، وبعث فى ذهنه نورا من لدنه ، وفجر فى نفسه ينبوعا من عنده . أصبح يرى نفسه سرا من الأسرار ، ولغزا لا يحل ، وشيئا يوجب الرعب والدهش فى نفسه هو ، فحسب انه ربما كان الهى المنشأ ، أى شعبة من القوة الكبرى ، والذات العليا المسماة « فوتان » أو « أودين » بمعنى القوة العظمى) (٤) .

.. وعلى هذا النحو يمضى كارليل فى تأمل هذا التاريخ الخرافى،

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

(٤) الأبطال . توماس كارليل . ترجمة محمد السباعى ص ٢٩ .

أو قل هـذا التاريخ المشـوب بالخرافة بمنطق التبرير ومنطق الاعجاب جميعا ، فهو بصدد اختراع « أودين » للأبجدية يقعى على ركبتيه تقديسا وتمجيدا لبطله الالهى ، وهو بصدد اختراع «أودين» للشعر يتمزق من اعجاب بلا حدود ، ان منطق التبرير والاعجاب هما سمت هـذه التجربة الأدبية الموغلة فى احتضـان بطلها على مستوى المعقول واللامعقول ٠٠

(والتاريخ هنا لا ينفى وجود البطل ، وانما يشذب هـذه الهالة الغنية ليرصد حركة البطل ويفسرها فى ضوء الواقع بعيدا عن الخيـال ، أو هو يعيـد عرض السير وتفسيرها فى ضوء العلم) (١) ٠

ان هذا التاريخ الذى « لا ينفى وجود البطل » هو المنطلق الأساسى فى اعتبار هذا البطل بطلا تاريخيا ، اما أن يجىء التاريخ ليشذب ويفسر فى ضوء الواقع وضوء العلم ، فان ذلك لا يصـادر مقولة ان هذا البطل « تاريخى » بدرجة ما ، لان حوار الكاتبين من حوله اتكأ أساسا على واقع تاريخى له رصيد فى مدونة التاريخ ، فاذا جاءت الأجيال الخالفة وأغرقت تاريخه فى الخرافة ، فالتبس حقه بباطله ، وواقعه بلا واقعـه ، وتاريخه بخرافته ، فان ذلك لا يطامن من القيمة التاريخية لحلول البطل فى التاريخ ، وان كان يتحيف بأقدار هائلة من القيمة البطولية لبطولته ، فان وشلا من الفعل التاريخى هو الذى يلوح أمامنا ليبرز لنا بطولة هذا البطل ٠ بينما يلوح أمامنا طوفان من الخرافة التاريخية التى تحاول أن تجعل من الانسان اقتدارا خالقا أعلى من الانسان !!

ومهما يكن من شىء ٠٠ فان البطولة التـاريخية الخرافيـه لبطل ما ، تنهض فى أساسها على الواقع التاريخى ، ثم تستسلم

(١) السيرة تاريخ وفن ٠ د ماهر حسن فهمى ص ٢٥

عبر مراحل الزمن لمنطق الخرافة ، حتى تستحيل فى نهاية الأمر الى حقيقة غير قابلة لمنطق الحلول على الأرض ، أو قل الى حقيقه ضائعة فى أدغال تحتاج فى حركة التهدى اليها الى عصور من الجهود الباذلة حتى يبين حقيقها من زائفها ، وأصيلها من دخيلها وواقعها من خرافيها ، ولكن ـ هل يبين ؟؟

ان بطولة البطل لاتملك الا قدرا متضائلا من «الفعل التاريخى» كما قلت ، بما هى غارقة فى الخرافة الساذجة التى تحيل الحقيقة البشرية لمجرد بروزها أو قذاذتها فى مجال من المجالات الى حقيقة خارقة ، فتفقد على الفور بطولتها وملامح وجهها الحقيقى وتبقى فى ذاكرة التاريخ مجرد شىء جمالى يتلهى به الفارغون لحظات السأم أو لحظات الملال !!

وكذلك فان بطولة البطل هنا لا تملك التزاما أخلاقيا أو او عقائديا نحو جيلها والأجيال المقبلة .. ان الفعل الآلى هو الذى يحركها ، وهى فى حركتها تستطيع أن تبطش وأن تكذب وأن تختلق .. لأن حس الالتزام العقائدى أو الأخلاقى لا يحرك خطواتها على الأرض ، ولا يشد عيونها الى أفق التعالى والانطلاق ..

وكذلك فان بطولة البطل هنا تبدو كما لو كانت صخرة تنحدر على جبهة التاريخ بلا حتى مجرد استدعاء .. ان البطوله الحقيقية بالفعل هى بطولة « الدور التاريخى المنتظر » لإنها حينذاك تأتى على ايقاع مواعيدها الصميمة ، لتلبى حاجة المرحلة وكل المراحل التالية بما هو استقطاب شامل لحركة الانسان وحركه الكون وحركة الجدل الوجودى المتبادل بين هذا الكون وبطله المأساوى الذى هو الانسان !!

هذه لمحة خاطفة عن البطولة التاريخية الخرافية .. نمر بها هكذا عابرين .. لنحدق فيما وراءها من بطولات !!

- ٢ -

من المنظور التاريخى الفردى :

ــ ربما ــ من هنا يبدأ التاريخ الحقيقى للبطولة الحقيقية ، بمعنى ان **الأساطير** ــ كمضمون بطولى ــ ليست على أى مستوى من المستويات سوى خيال مجنح رائع ، ان استطاع أن يرضى فينا نزعة الضياع الحالم فى عالم بلا تخوم ، فلن يستطيع أن يرضى فينا النهم العقلى بشروطه التاريخية الصارمة ··· وبمعنى آن **الخرافة** ــ كمضمون بطولى حتى وان جاورت التاريخ ــ ليست على أى مستوى من مستوياتها كذلك سوى اسقاطات بشرية عاجزة على كاهل بطل نتوهم أو نحلم بأنه آت لرفع اصر العجز عن عاتق البشرية بأسرها ، وهى فى النهاية ان أمدتنا بأبعاد من الواقع البطولى الحق للشخصية البطلة ، فقد تمدنا بأبعاد أخرى هائلة من الواقع الخرافى المنسوج حول هذه الشخصية البطلة ، ومن هنا يختلط الواقع بالخرافة ، وتضيع ملامح « الفعل التاريخى » المحقق الذى ارتضينا أن يكون هو المحور الذى يجعل من البطل بطلا ، ومن العبقرى عبقريا ، ومن العظيم عظيما !!

نحن اذن فى مواجهة البطولة الفردية أمام ميلاد حقيقى للبطولة الحقيقية · ولست أعنى بذلك ان المرحلة التاريخية التى شهدت ميلاد البطولة الفردية تجىء بالضرورة بعد المرحلة التى شهدت ميلاد البطولة الأسطورية والبطولة الخرافية جميعا ، فان الانسانية قابلة باستمرار ــ تحت ضغط عوامل اجتماعية وحضاريه معا ــ لأن تعود الى طفولتها لاعبة من جديد !!

وقبل أن ندخل عالم البطولة الفردية فقد يكون من المفيد أن نمهد بأرضية تاريخية خاطفة تبين مراحل تطور فكرة البطولة

الفردية من فجر التاريخ حتى اليوم ، لان ذلك التطور التاريخي يعطي بالضرورة معناه في مجال المقابلة والمقارنة التي ستأتي حصادا لهذه المرحلة ، وتتويجا لهذا الكدح وراء ملامح الأشياء ٠

فقد (خلص الاغريق التاريخ من سطوة الخرافة ، وبدأت لمحات باهرة من التفكير التاريخي تسفر عن اتجاهات بينه ، فكشفوا مثلا عن طبيعة الصراع الأزلي بين المجتمعات البشرية كما رآه هيرودوت في الصدام بين الاغريق والفرس ، وأرسوا قواعد نظرية « الرجل العظيم » أو « البطل في التاريخ » ٠٠٠ وأخذ الرومان عن الاغريق تلك الاتجاهات التي سادت تفكيرهم عن التاريخ فأكدوا نظرية « الرجل العظيم » وهي النظرية التي بقيت حتى القرن التاسع عشر شامخة الذرى في موكب التاريخ الحافل، تشد أحداثه اليها شدا عنيفا لا يستطيع منها فكاكا ، وكأن البطل هو الصانع الوحيد للتاريخ ٠٠٠٠٠ وغدا الناس بين كثرة تابعة وقلة متبوعة ، وعلى رأس تلك القلة المتبوعة يتنسم البطل غارب المجد والسلطان ، فهو الملك المؤله في مصر القديمة ، وهو المحارب الشجاع في اسبرطة ، وهو السياسي أو القائد المنتصر في أثينا، وهو الفاتح القاهر في روما ٠٠٠ ويستوى تاريخ بلوتارك « حياة العظماء » على القمة من أعمال المؤرخين في عهده والى ما بعد عهده بحقب طوال ٠٠٠ وتسود نظرية الرجل العظيم فتترك لمستها القاهرة في التاريخ العام . ولايعدو كونه تاريخا لساسة الدول وحكامها ، ويبقى جامدا أمامها لا يتحرر منها ٠٠٠٠ ولم تستطع المسيحية حين غلبت الوثنية في روما وقهرتها ٠ واجتمعت لها السلطة الزمنية الى جانب سلطانها الديني بعد أن اعتنقها قسطنطين وأعلن انه حاميها وكبير أساقفتها أن تقضي على نظرية الرجل العظيم ، بل وأعلت من شأنها اذ بقي الناس يقدسون البطولة والبسالة من أثر تقديسهم لتلك القوة الغالبة التي تسوق

البشر ، والتي ردها القساوسة الى ارادة الهية قوت منها بطريق غير مباشر ، وبالرغم من انحراف التاريخ حين آل أمره الى القساوسة والرهبان عن اتجاهه العلمي الذى بدأه الاغريق وغدا مسخرا للاهوت ، قائما على خدمة الكنيسة وتعاليمها ، لا يعنى بالحقيقة قدر ما يعنى بالخوارق والكرامات التى ظن آباء الكنيسة انها تعلى من شأن الدين ، فتدعم العقيدة الدينية ، فقد بقيت تلك الخوارق تسوق الناس الى تقديس القوى القاهرة ، ومن ثم بقيت عبادة البطولة أو نظرية الرجل العظيم قابعة فى خفايا اللاشعور حتى انبعثت مرة أخرى فى عصر النهضة .... فلما انحسر سلطان الكنيسة ، وعاد الناس مرة أخرى ينبشون ركام الماضى ويستوحون آثار الاغريق ألوانا باهرة من التفكير العقلى والفلسفى، بقيت فى نفوسهم اثارة من القداسة لتلك القوى الكبرى التى تسيطر على مصير البشر .. حتى غدا بلوتارك ـ كما يقول ادوارد كار ـ أعظم مؤرخى القديم تأثيرا فى حركة الاحياء الكلاسيكى للنهضة الأوروبية ...) (١) .

ثم تتابعت من بعد ذلك الدكتاتوريات الفاجعة التى سحقت ارادات الجموع بدعوى بطولة البطل وامتيازه الخارق ، وقدرته وحده على توجيه التاريخ الأممى أو العالمى وجهته التى يريد .. وتدفق من خلال هذه الحركات شلال من دماء البشر ما يزال يصرخ فى تراب الأرض ـ ربما ـ حتى هذه اللحظات !!

هذا هو المدخل التاريخى الذى يمكن أن نمهد به للحديث عن « البطولة التاريخية الفردية » وكما قلت فى مطالع هذه السطور فان التطور التاريخى فى النظر الى قيمة من القيم يعطى بالضرورة أثره البالغ على كل القيم وعلى منحى تناولها معا ...

---

(١) التاريخ والسير . د. حسين فوزى النجار ص ٢٦ وما بعدها .

يؤكد هذه الفرضية موقف كاتب ــ يفرض نفسه على هذه السطور مرة أخرى ــ هو الكاتب الانجليزى « توماس كارليل » • فلقد تلقف هــذا الكاتب الخيط ، ووقف على قمة المــد الفردى فى تقديره للبطولة وعبادة الأبطال •

فهو يعتقد (ان التاريخ العام ــ تاريخ ما أحدث الانسان فى هذا العالم ــ انما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة ، وهم المكيفون للأمور ، وهم الأسوة والقدوة ، وهم المبدعون لكل ما وفق اليه أهل الدنيا ، وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه قائما فى هذا الوجود كاملا متقنا فاعلم انه نتيجــة أفكار أولئك العظماء) (١) •

وهو يرى أن (أهم مزايا جيل من الأجيال هو كيفية استقباله للرجل العظيم) (٢) •

وهو يغلو فى ذلك الى أبعد من هذا الحد فيقول : (وانى لأوقن بأنى لا أحسب أن هنــاك رجلا عظيما لايمكنه أن يكون عظيما فى كل فن ، فالشـاعر الذى لايستطيع الا أن يجلس الى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة مستحيل عليه أن ينظم قصيدة بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفارس الأروع الا اذا كان هو نفسه فارسا أروع ، ولا أحسب الشـــاعر الكبير الا انه يجمع فى نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف ، وانه قد كان يمكنه أن يكون ــ بل هو بالفعل ــ كل هذه) (٣) •

وعنده ان الرجل العظيم أو البطــل : (مخلوق من فؤاد

---

(١) الأبطال • توماس كارليل • ترجمة محمد السباعى •• ص ١

(٢) الأبطال • توماس كارليل • ترجمة محمد السباعى ص ٤٨ •

(٣) المرجع السابق ص ٨٧ ــ ٨٨ •

الدنيـــا وأحشــاء الكون ، فهو جــزء من الحقـــائق الجوهريه للأشياء) (١) ٠

(ومن الواضح ان فكرة البطل أمدت (كارليل) بمبـادىء مقتبسة من مبادىء انجيله الاجتماعى الهامة ، فالانسانية عنده مدينة بالتقدم لحفنة من النخبة ، حفنة من الملهمين المتميزين الذين نفذت بصيرتهم الى « قدسية » الأشياء ، بينما لم تدرك جمهرة الناس الا مظهر الأشياء التافه الزائل ٠٠٠ فلهم أن يحكموا سائر الناس ، ويرغموهم على الخضوع المطلق ، ويستبدوا بهم فيما اذا اقتضى الأمر ذلك ، غير خاضعين الا لرقابة ضمائرهم) (٢) ٠

وواضح ان منحى « كارليل » فى تقديره للبطولة واعجابه الخارق بالأبطــال انما ينزع عن شفافية لا عن حقـــد ٠ وعن استجابة لهواتف العظمة وليس عن غمط متعمد للهواتف وللعظمة جميعا ٠٠ وهو فى ذلك يباين ــ تماما ــ واحدا مثل « نيتشه » فيلسوف القوة المهـــاجم ، فان نيتشـــه يركز بلا ملال على آن « الانسان هو خالق القيم » وان « ارادة القوة » و « فكرة الانسان الأعلى » و « الخلاق السادة فى مقابل أخلاق العبيد » هى التى يجب أن تسود ، وقد لا يغرب عن أخلادنا فى هذا المجال دعــوة نيتشه الى التضــحية بكل الأفراد العــاجزين حتى لا يتسلسل العجز فى الأجيــال الخالفة ، وحتى يبقى فى النهاية الفرد الأقوى الذى ينتزع بقاءه بذراعيه ، ويقاتل دونه على كل الجبهات !!

ان بطولة البطل ــ من المنظور التاريخى الفردى ــ قد أسىء فهمها واستعمالها معـــا ، فقد أكد الفلاسفة والمؤرخون الذين

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢ ٠

(٢) الأدب والفن فى ضــوء الواقعية ، جــون فريفيل ٠ ترجمة محمد مفيد الشرباشى ص ٨٦ ٠

تصدوا لدراسة هذه الظاهرة ان البطولة التاريخية الفردية تعنى أن «ينفرد الفرد بالسلطة» . وأن يطلق يده فى الناس والتاريخ، وأن يتورم احساسه بالعظمة والاقتدار المعجز ، وأن يقود المرحله الى حيث يبغى هو وليس الى حيث يتواءم منطق الأشياء مع منطق الأشياء !!

ان البطـل التـــاريخى ظاهرة حقيقية باهرة فى تاريخ العصور ، ولكن ليس معنى ذلك أن يتمدد هذا البطل على حساب ضمور الآخرين ، ان البطل السوى ينبغى أن يتحرك من خلال قناعات ذاتية أجل .. ولكن من خلال قناعات غيرية كذلك ، لان الانسان مهما أوتى من عبقـرية الرأى ، وفذاذة الشخصـــية ، واتساع المجال ، لا يمكن أن يكون على هذه الأرض بمفرده .. لا يمكن أن يستغنى عن الآخرين .. لا يمكن أن يعصب عينيه ويمضى وحده على طريق مزحوم بالبراكين !!

ان خطأة « كارليل » انه اندفع فى تمجيد البطولة الى مدى متاخم أو موغل فى تمجيد الاستبدادية ، من ذلك موقفـه الشائن فى تمجيد الطاغية « فرانسيا » طاغية بارجواى ، ولو انه ـ آعنى كارليل ـ عرف القصد فى تمجيد البطولة والاعجاب بالبطل لكان فى ذلك متساوقا مع طبائع الأشياء . فان الحفاظ على فردية الفرد من طغيان الجماعة ، والاعلاء من شأن هذه الفردية بما هى الجوهر الذاتي للشخصية الانسانية ، والهتاف بكل انجازاتها الحقيقية فى التاريخ ، ان كل أولئك مطلوب ومطالب به ، ولكن على أن لا يتجاوز القصد ، ويندفع فى حماســيات لا مبررة تصـــل به فى النهاية الى عبادة أبطاله الخارقين !!

ان « كارليل » ـ كنموذج للافتتان ببطولة البطل ـ يؤمن بان (البطل هو بادىء الحركات وخالق القيم ، وموحد النظم ،

وان الرجل العظيم بشخصيته المنيفة ، وارادته المصممة ، يوجه التاريخ ، ويصرف الحوادث ، ويرسم الاتجاهات البعيدة ، ويفرض على المجتمع صورة الحضـارة وألوان الثقـافة ، ويمتد تأثيره ، ويترامى ظله الى المستقبل) (١) ٠

وهـذا كله قد نوافق عليـه ، ولكن من خـلال شرطين أساسيين :

الشرط الأول : أن ينظر الى بطولة البطل من خلال التحامها العضوى ببطولات الجمـاعة التى نبع منها ، أو بالرسالة التى يؤديها ٠

والشرط الثاني : ألا نصل باعجابنا الى مراحل التقديس والعبادة ، فان كائنا بشريا على هـذه الأرض لا يمكن أن يكون ـ من خلال أى فرضية بطولية ـ الها ٠٠ أو حتى ظلا لاله ٠٠ فان هـذا التوثيين الفاجع كان مرحلة غابرة لا تقبل أن تعود ، ولا يقبل البشر أن يصيخوا اليها اذا عادت من جديد !!

وهكذا نصل الى أن طور « البطولة التاريخية الفردية » قد تحيفته نواقص بلا حدود ، أو زوائد بلا حدود كذلك ، مما يوحى بالضرورة حتمية أن لا يكون هذا الطور هو ما تنشده البشرية فى كدحها الدائب من أجل مفهوم حقيقى للبطولة موائم لطموح الانسان ٠٠ أو مواكب لرحلة التاريخ ٠٠

ونأمل فى معاناتنا الباحثة أن نعثر على هذا المفهوم !!

---

(١) الوان من ادب الغرب ٠ على ادهم ٠ ص ١١٦ ٠

من المنظور التاريخى الاجتماعى :

من الحقيقى أن يقال : ان بطولة البطل ـ من المنظور التاريخى الاجتمـــاعى ـ ترددت بين اتجاهين رئيسيين نشـــآ فى المذاهب الفلسفية أول الأمر ، ثم تكاملا فيما بعد فى المذاهب الاجتمـاعيه ٠٠ وهما :

(أ) اتجاه يؤكد على محدودية دور الفرد فى قيادة التغيير ، ويضائل من قيمة « فعله التاريخى » الا انه لا ينفيه من منـاطق الفعل تماما ٠ وقد يكون هذا الاتجاه أقرب الى الفكر الفلسفى من حيث صلته العضوية بمنابعه ـ منه الى الفكر الاجتماعى ٠

(ب) اتجاه ينفى تماما أن يكون للفرد اقتدار ما على توجيه حركة التطور ، أو تعديل مسارات التغيير فى التـــاريخ ، بما هو جزء محتوى ـ على مستوى دينـــامى ـ فى كل صـــائر بطبيعته الى مستقبله ، وبما هو عجينة طيعة فى يد العوامل البيئية والاقتصاديه والتاريخيـــة والمادية ٠٠ وقد يكون هـــذا الاتجاه أقرب الى الفكر الاجتماعى ٠

وقد يلاحظ هنا ان المسافة الفارقة بين الاتجاهين ليست على مستوى التضـــاد أو المقابلة وانما الأمر فيهما معـــا أشبه ما يكون بالبذار والايناع ٠٠ أعنى ان الفكر الفلسفى الكامن فى الاتجـــاه الأول يمكن أن يكون أساس الحركة والاندفاع فى الفكر الاجتماعى الكامن فى الاتجاه الثانى ٠٠ أعنى مرة أخرى ان تحديد أفلاطون للعلاقة بين الفرد والدولة ، وارتضاء فكرة ان الحرية الحقيقية للفرد يمكن أن يستمدها من الدولة وليس من انطلاقه الذاتى٠٠ثم تطوير هذه الفكرة فى فلسفة « هيجل » الذى يؤكد على احتـــواء الدولة

للفرد ــ مع صيانة ذاته وقدراته ــ والذى يمهد ــ على مستوى فلسفى ــ لميلاد « الضرورة التاريخية » أو « الجبر التاريخى » ·· أقول : ان حركة هذا الفكر الفلسفى كانت ايذانا حقيقيا بميلاد كل مذاهب » الجبر الاجتماعى» ·· « والحتميات التاريخية » ·· « والديالكتيك » ·· « والتفسير المادى للتاريخ » ·· كما قادها « كارل ماركس » ومن بعده فلاسفة الشيوعية المتعددون !!

فاذا انتهينا الى هذه الملاحظة انتهينا بالضرورة الى أن وجود مبدأ الجدل أو الديالكتيك ــ كما يفرضه الجدليون الماديون ــ كحاكم استبدادى يحكم مسار التاريخ ويطوع اتجاهاته لارادته ، يفرض بالضرورة تراجع البطل التاريخى وانحسار دوره الفاعل فى جدل الصراع ، وظهور قوة أو قوى اجتماعية ساحقة لا تأبه الا بحتمية الدورة التاريخية ولا تستطيع كبح جماح نفسها بما هى صائرة بالضرورة الى هدفها النهائى الذى لا يقبل التراجع ولا يطيقه ولا يستطيعه حتى ان أراد !!

ان التاريخ كله فى هذه النظرية يستحيل الى سلسلة جامدة من « الأفعال وردود الأفعال » ·· فاذا شارف « فعل » مرحلة نضوجه واكتماله ، انهار ــ أو أوشك أن ينهار ــ انهيارا ذاتيا ، ليفسح « لرد الفعل » كى يأخذ طريقه الى مرحلة الحلول ·· وهكذا ·· وهكذا ···

من هنا ، يبدو البطل جوابا عن سؤال غير مطروح ، ويستحيل الى مجرد شارح للتطور ، أو مجرد معلق على حركة الواقع الجدلى ، أو مجرد بنية فى كل عضوى أتيح لها ــ ربما بعفوية محضة ــ أن تتحدث بلسان الثورة ، أو تترجم عن ارادة التغيير !!

وهذا خطأ المادية الجدلية الفادح ، ان « الانسان » يتراجع فى هذه النظرية الى أميال بعيدة عن حركة الفعل ، ليتيح لدورة

الجدل المادى أن تباشر نشاطها فى هذا المجال ، وكأن المادة هى العقل المخطط لمصائر الأشياء ، وكأن الانسان هو هذه الآلة الحيه التى لا تعى حتى مجرد وضعيتها التاريخية على هذه الأرض ..

ان (القوة الدافعة وراء العملية الجدلية - فى زعم ماركس - ليست عقليـة ، وانما هى حادثة طبيعيـة مادية ، وليس ارادة النـاس ولا أفكارهم هى التى تغير وجـه التـاريخ وتهيمن على اتجاهاته ، وانما هى الفواعل الطبيعية ، وتكشف المواد الخام ، ومبتكرات الصناعة) (١) .

من هذه المقولات المادية نستطيع أن نركز على أشياء لنرفضها فى النهاية :

اولها : ان الجدل كامن فى طبائع الأشياء ومنساب مع تيار التاريخ العارم .

ثانيها : ان العـامل المهيىء للتغيير ليس عقليـا انسانيا ، وانما هو مادى طبيعى .

ثالثها : ان الابداع ليس امكانية فردية مطلقة ، وانما هو امكانية جماعية يدخل فيها الانسان كشريك منفعل وليس كبنيه فاعلة .

ونتيجة لشيوع هذه المقولات المادية - فى القطاعات البشرية والجغرافية التى تدين بهـا - بتفاوت طبيعى بينها هنا وبينها هناك - فان البطل التاريخى الفرد أخذ ينحسر عن مجال الفعل

---

(١) المذاهب السياسية المعاصرة . على ادهم . ص ٧٨ .

التاريخى « القائد » انحسارا تدريجيا ، ليتيح لحركة التـاريخ المادية ــ من خـلال جدلها الحتمى كمـــا يزعمون ــ أن تمارس اندفاعها الهائل الى المســتقبل ، وأن تحقق منطق ارتدادها الأبدى من الفعل الى رد الفعل ، وأن تقبض بيديها على النقيض ونقيض النقيض !!

وفى ظلال مثل هذه الحتميات القابضة نرى كاتبا ناقدا مثل « تين » يترجم للشاعر الانجليزى « بايرون » من خلال حتميــات ثلاث وليس حتمية واحدة « فالجنس ·· والعصر ·· والبيئة » هى ثالوثه المقدس الذى ينظر من خلاله الى بطله ، مرتبا على ذلك ان الاختلاف فى النتاج الفنى بين كاتب وكاتب · أو بين شاعر وشاعر ، أو بين فنان وفنان ، ليس سوى نتيجة حتمية لقضيه واحدة مقدماتها الثلاث : « الجنس ·· والعصر ·· والبيئة » ·· أما فردية الكاتب ، أو الشاعر ، أو الفنان ، واما قدراته الذاتية على الابداع والتخييل والربط والابحار فى عالم الفن بمجاديفه الخاصة ، فان كل أولئك ليس سوى صدى لهذه العوامل المادية القاهرة التى تشكل لون فنانها ، وقيمته ، ونوعية حلوله الفنى ·· وكان الفنان دميــة منخوبة القاع ، بـلا نبض حقيقى ، وبلا ايقاع صادر عن ممالك الذات !!

هكذا أعطى « تين » تصــوره لشاعره ، نازعا فى ذلك عن قناعة صارمة بحتمية العوامل الثلاثة فى تشكيل الفنان وتشكيل فنه على السواء ، غير ملتفت ــ كما أسلفت ــ الى ما يمكن أن يكون بين كل الشخوص من ملامح ذاتية فارقة ، تخرجها من « عملية القولبة الساذجة » التى تراد لها من خلال مثل هذه الحتميات ،

الى ساحة الحرية القادرة على النبوغ فى نمط معين من الفكر ، أو البروز فى منحى خاص من مناحى الابداع والاقتدار !!

ولكن الاتجاه السائد فى المرحلة كان يوحى بأنماط من هذه الحتميات ، وهى وان تغايرت ـ بالضرورة ـ نوعيا وكميا ، وأيضا بيئيا وجنسيا ، فستبقى فى النهـاية ضـاغطة بآثارها على فكر المرحلة وفنها جميعا ، وهو ما حدث بالفعل حين تراجعت بطولة البطل على المستوى « الذاتى » لتحل محلها بطولة المجتمع . أو بطولة العناصر ، أو بطولة حركة التاريخ !!

فهل تستقيم هـذه النظرة مع واقع الحركة الانسانية فى الكون ؟

وهل تصوغ هذه النظرية قاعدة راشدة للتطور على الدوام ؟

أوقن أن مثـل هذه النظرة لا يمـكن أن تسـتقيم مع واقـع الحركة الانسانيـة لا فى الكون ، ولا فى التاريـخ ٠٠ لأن بطولة الانسان ستبقى عاملا من عوامل تحوير الحركة الكونية وتطويرها معا ، وفى التاريخ آلاف الشواهد الدالة على ان « الانسان » كان قادرا باستمرار على معاندة الحركة التاريخية ، وعلى فرض ارادة الانسان والتطور والصواب الكونى فوق كل المعاندات ٠٠٠ وهذا يؤكد أن الانسان وليس مادية الجدل هو قائد حركة التحول ، ومفجر طاقات التطوير !!

وأيضا أوقن ان مثل هذه النظرية ان استطاعت أن تضـع قاعدة للتطور ـ من منظورها الذاتى ـ فليست بمستطيعة أبدا أن ترشد هذه القـاعدة على الدوام ٠٠٠ فبديهى أن حـركة التطور المنبثقـة عن جـدل مادى لايمكن أن تأبه فى مسـاراتها بقيمـة

الانسان ، ومتى أهدرت قيمة الانسان تحت أى من الظروف فقد فقد التطور رشاده ومنطقه ، واستحال الى تطور ضــد ارادة الكون ، وضــد منطق صوابية الأشـياء ، وحتما سيقع صراع بلا نهاية بين مثل هذا التطور الفادح وبين كونية الكون التى تأبى أن تمر من تحت سنابك الارهاب !!

ان مفهوم البطولة والبطل من المنظور التاريخى الاجتماعى حاول أن يدعم آراءه الخاصة بسيطرة الحركة التاريخية المادية حين أكد انه يعمل لصالح الطبقــة الكادحة ، وكأن الطبقــة الكادحة لا يمكن ـ تاريخيا ـ أن تحصل على مكاسبها الا من خلال المرور المدمر فوق كل ما تمتلكه من طاقات ، ونزعات ، وطموحات !!

ولقد حاول كذلك أن يؤكد على العلاقة الحميمة بين الانسان ووسطه المادى ـ وهذا صحيح وصوابى ـ ولكنه لا يصبح على هذا المستوى الرائع من الصوابية الا اذا فتح عينيه على العلائق الحتمية الأخرى بين الانسان ووسطه الانسانى ، وبين الانسان ووسطه الروحى ٠٠ ان هذه العلائق الحتمية أكثر صميمية مما سواها ٠٠ ويستطيع الانسان الواشج القربى بالأغيار من حوله ، الواشج القربى بقوة أشمل من قوته ٠٠ يستطيع هذا الانسان فى ظل هذه الارتباطات أن يعمل ، وأن يبدع ، وأن يحيا ، وأن يمارس وجوده الأفضل على هذه الأرض ٠

لابد اذن من منطلق آخر يقيم البطولة على سننها الصوابى ٠٠ لابد من منظور آخر يضع شروطه الخالدة لبطله التاريخى ٠٠ لابد أن نتعتق من اطار البطولة الأسطورية بما هى عاجزة أساسا عن « الفعل التاريخى » ٠٠ لابد أن نرفض البطولة التاريخيــة الخرافية بما هى بعض حقيقى غارق فى أبعاض خرافية ٠٠ لابد أن نصادر البطولة التاريخية الفردية بما هى مدخل الى الطغيــان من جهة ، ومنزلق الى تقديس البطل من جهة أخرى ٠٠ لابد أن

نعرى زيف البطولة التاريخية الاجتماعية ، بما هي افتيات ساحق على انسانية الفرد ، وعدوان فاجع على طاقات التصعيد الروحى فى علائق الانسان بكونه الجائش بملايين المعطيات !!

لابد من البحث عن منظور آخـر ٠٠ وعن منطلق آخـر ٠٠ وهذا ما نأمل أن نواجهه فى المرحلة القادمة من هـذه الرحلة عبر هذه السطور !!

- ٤ -

من المنظور الاسلامى :

اذا كانت المرحلة التاريخية الخرافية قد شكلت بطلها على نحو يوحى بأنه بصيص من الحقيقة التاريخية وطوفان من الخرافة الفـارغة ٠٠

واذا كانت المرحلة التاريخية الفردية قد شكلت بطلها على نحو يوحى بأنه صانع الحضارة ، وقائد التحول ، ووحده يقف ليسدد خطا التاريخ ٠

واذا كانت المرحلة التاريخية الاجتماعية قد شكلت بطلها على نحو يوحى بانه ليس الفرد من يستطيع أن يكون بطلا ، وانما هى حركة التاريخ نفسه ، وحتمية أن يصير دائما ، وأن يستحيل أبدا ٠

اذا كانت كل هذه المراحل التاريخية تشكل بطلها على هذه الأنحاء المتغايرة ، فان الاسلام ينظر الى القضية كلها نظرة أخرى، ويعيد ترتيب مقدماتها ونتائجها على نحو آخر تماما ، ليس ليصل الى نظرية معادلة أو مغايرة ـ فان ذلك لا يدخل فى حسـابه ـ وانما ليقيم علاقة الإنسان بالانسان ، وعلاقة الانسان بالكون ،

وعلاقة الانسان بالتاريخ ، على أسس حضارية حميمة ، تجيش بالحب حين يجيش غيرها بالكراهية ، وتلتقى على البناء حين يلتقى غيرها على الهدم ، وتتوافق مع الفطر حين لا يتوافق غيرها الا مع الأهـواء !!

ان بطولة البطـل ـ من المنظور الاسلامى ـ تبـدأ من الأرض لتنتهى فى السماء .. هذا هو حجم بطولة البطـل فى الاسلام بلا محاولة للتزيد ، أو مزيد من رفع الشعارات .. وقد نصل فى نهاية الرحلة الى قناعات نهائية فى هذا الصدد ، ليس لمجـرد أن نرتفع بالمنظور الاسلامى فوق كل النظريات السائبة الملامح ، وانما لنرتفع نحن الى ذروة الفعل الاسلامى فى واحد من مجالاته الوامضـة التى تظل دائمـا على مسـتوى الاشعاع والارتفاع ..

وقد يبـدو قولنا : « ان بطولة البطـل ـ من المنظـور الاسلامى ـ تبدأ من الأرض لتنتهى فى السماء » حماسة جوفاء ليست تنطوى على مضمون، ولكننا سنحاول أن نتتبع ملامح هذه البطولة من هذا المنظور لنرى ، هل هى مجرد فرضية غائمة توحى بها حماسيات معينـة ؟ أم هى واقع متحرك حى فرض ويفرض نفسه على كل العصور ؟

ان خرافية البطل غيرواردة من المنظور الاسلامى بالمرة ، ولكن فردية هذا البطل ، أو اجتماعيته هى التى يمكن أن يتناولها المنـظور الاسـلامى بالتقييم والتقويـم .. فبينما يقف أنصـار المذهب الفردى فى بطولة البطل عند تخومه الخامدة ، وبينما يقف أنصار المذهب الاجتماعى فى بطولة البطل عند مشارفه الضاغطة، يقتحم الاسلام كل الحواجز والسدود ليقيم بطولة البطل على سواء آخر تماما . فالفردية ـ من المنظور الاسـلامى ـ لا تعنى فرديه

مطلقة ، ولست أعني بذلك ان الاسلام يقف فى طريق انطلاق الفرد أو انطلاق المجتمع ، وانما أعنى فقط ان الاسلام لا يعطى للفرد ولا للجماعة وجودا عاريا من كل الالتزامات ، ان الالتزام الفردى نحو الفرد والجماعة والكون والتاريخ يكبل انطلاقية الفرد من جهة، ويعطيها حرية بلا حدود من الجهة المقابلة ٠٠ وكذلك يعنى الالتزام الاجتماعى نحو الجماعة والفرد والكون والتاريخ ٠٠٠ ومن هنا تصبح الحرية حرية مسئولة ، ويصبح الفرد حاملا آلام المجتمع ٠ ويصبح المجتمع حاملا آلام أفراده ٠٠ وبدون هذا الجدل الانسانى المتحرك النابض يصبح الوجود غابة فاحشة ، أو معتركا مائجا بأنانيات من كل لون ، وعدوانات من كل اتجاه !!

ان حركة اللقاء الرائع الذى يؤصل له الاسلام بين الفرديه الفاعلة والاجتماعية الفاعلة كذلك ، تعنى ان الوجود الفردى يصبح بالضرورة وجودا غير أنانى وغير هارب فى أرديته الباطشة ، وهى تعنى كذلك ان الوجود الاجتماعى يصبح بالضرورة غير عدوانى وغير ساحق للوجود الفردى الصميمى الوجود !!

(والقرآن فى طريقته ونظمه ، حينما يتعرض للفرد « كالانسان » لا يريد الانسان من جماعة « معينة » وانما يريد « كل انسان » متمتع بصفات الانسانية وسماتها ، فدعوته « الفردية » هى دعوة «جماعية» فى عموم انطباقها على كل من يتمتع بهذه الصفة الكريمة « صفة الانسانية » ٠٠ ان الاسلام يدمج الفرد فى الجماعة ، ويدمج الجماعة فى الفرد ، ادماجا يشعر الفرد انه جزء من كل ، ويشعر الكل انه مؤلف من أجزاء متماسكة ، يكفى أن تتداعى جميعا اذا تداعى جزء منها ، أو أصيب بتحرف عن جماعته، أو بتحيز الى غير جماعته) (١) ٠

---

(١) الاسلام اليوم وغدا ــ بحث الأخلاق الفردية والاجتماعية فى الاسلام ٠ للدكتور ابراهيم سلامة ٠ ص ١٢ ٠

واذا كان دمج الفـردية فى الجماعية ، والجماعية فى الفردية أول ملامح بطولة البطل من المنظور الاسلامى ، فان الظاهرة الفردية نفسها ، والظاهرة الاجتماعية نفسها ، تأخذ فى المنظور الاسـلامى ملامح غير ملامحها فى غير المنظـور الاسـلامى من كل المـذاهب والاتجاهات ·· ان الظاهرة الفردية ملتزمة هنا وسائبة هناك ، وكذلك فان الظـاهرة الاجتماعية متصلة فى حركة نشـوئها على المستويين الاسلامى وغير الاسلامى بنوعية من القيم مغايرة ومتخالفة يكاد لا يجمع بينها سوى ان هذه وتلك ظاهرة من الظاهرات !!

ومن هنا ·· فان نظـرية الرجل « العظيم » من المنظـور الاسلامى غايرت تمام التغاير نظيراتها عند الاغريق والرومان ، ليس لأن الاسلام لا يعطى عنايته للبطولة والبطل ، فتاريخ الحركة الاسلامية غاص ببطولات رائعـة من كل لون ، ونظرة الاسـلام الى البطل دائما نظرة حب واعتزاز ·· ولكن مفهوم البطولة هو الذى يتغير ، وحدود البطل هى التى يقع حولها الاختلاف !! فغير بعيد من المنظور الاسلامى أن يكون البطل التاريخى ظاهرة فردية ، بمعنى أن يكون شخص من الفذاذة والاقتـدار بحيث يستطيع أن يغير مسيرة التاريخ ، أو يجدد شباب الفكرة ، ولعل الحكمة العربية الذائعة « ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها فكرها » تلخص هذه الوجهة ، وتفلسفت هـذا الاتجاه ···· ولكن ينبغى دائما أن نضع تحت عيوننا ان البطل ـ من المنظور الاسـلامى ـ لا يتحرك من خلال تسيب جامح ، أو انفلات ضبابى الحدود ، انه يتحرك من خلال التزامه الصميمى بقضايا متعددة : قضية العقيدة ·· وقضية الأمة ·· وقضية الانسان ·· وهو فى هذا التحرك لايمكن أن يستوحى ذاته المنغلقة على ذاته ، وانما هو يستوحى ذوات متعـددة بـلا حدود : الفقهاء ·· والعلماء ··

والعامة .. وتجارب السابقين ... ومن هنا تأخذ الفردية سمتا مغايرا تماما ، فأن يستبد البطل التاريخي بالفتوى على كل مستوى ، وفي أي اتجاه ، فان ذلك يعني بالضرورة حتمية الخطأ . ليس ذلك فحسب ، وانما يعني كذلك حتمية أن ينفر من بين صفوف الجماعة من يقاوم ويدعو الى المقاومة ، حتى تستقيم الموازين ، ويتوافق النبض ، وتندفع الأشياء في مسارها الصحيح !!

والظاهرة الفردية من المنظور الاسلامي تؤكد لنفسها أبدا انها لا يمكن أن تكون فردية انفرادية ، فحتى حين يغلق الفرد أبوابه ويعود لا يشعر بوجود أحد سواه . يتعالى في وجدانه الوجود الأكبر . فيطامن من فرديته ، ويضائل من غروره !!!

وغير بعيد من المنظور الاسلامي كذلك أن يكون البطل ظاهرة اجتماعية ، ولكن هذا المنظور الاسلامي يتساءل : « ظاهرة اجتماعية لأي شيء ؟؟ » .. فاذا صح في المذاهب الأخرى ان البطل ظاهرة اجتماعية لصراع العوامل الطبيعية .أو العوامل الاقتصادية، أو ما شاءوا من العوامل الأخرى .. فانه لا يصح في المنظور الإسلامي أن يكون البطل ظاهرة اجتماعية الا لروح العقيدة ، ونبض الايمان، والالتزام المصيري بحركة التبليغ .. فالاسلام لا يعطي فردا ما امتيازا من أي لون لمجرد كونه منحدرا من سلالة ما ، فالجميع أمامه سواسية ، لا فضل لواحد على واحد الا بالعمل ، والكدح ، والمعاناة ، وبنوعية ما يعمل ويكدح ويعاني من أجله !!

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » : ليس معناها أزهدكم أو أعبدكم على مستوى السلب والانسحاب .. وانما معناها أزهدكم في الاخلاد للراحة وأرغبكم في جدل الموت والحياة ، معناها أعبدكم تحت راية السيف ، والحرف ، والدموع ، والدم ، اذا هيض للعقيدة جناح ، أو أستبيح للأمة مجال ... ان اتقانا قد يكون

فى الحرب أشجعنا ، وقد يكون فى السلم أنفعنا ، وقد يكون فى الدين أروعنا ... ان الخرافة التى سادت الفكر الاغريقى والفكر الرومانى ، لم تستطع أن تعيش فى الفكر الاسلامى لانها اصطدمت ابتداء بحقيقة ان هذا الدين الرائع شكل من أول لحظات حلوله على الأرض ثورة صارمة على كل الخرافات ، وقاد للمرة الأولى فى تاريخ العقائد حركة تحرير شاملة : للعقول من الخرافة ، وللجذوع من الانحناء ، وللقلوب من التشريك ، وللأرض من الغاصبين ، وللتاريخ من الكذب ، وللقيم من الإدعاءات ، وللعلاقات من الدنس ، وللأقلام من شهوة التسبيب المريض !!

لقد رأينا خليفة يقف فى يوم توليه للخلافة ليخاطب الأمة : « أيها الناس ، انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى » .. ان البطل هنا لا يعبر عن قهر اجتماعى ، ولا عن تورم فى الاحساس بالذات ، ولكنه يصدر عن حس عقائدى يسامت الحق ولا يفارقه، وهذا هو محور بطولته .... ولم يكن المجتمع الاسلامى الذى يعيش فيه هذا البطل يغافل عن هذه الحقيقة ، فان صيحة رجل من العامة فى وجه هذا الخليفة العادل بقوله : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » .. كانت هى الأخرى تعبيرا صميميا عن رأى القاعدة الاجتماعية فى تقديرها للبطولة ، وفى نظرتها الى البطل .. ان « الحق » هو نقطة الالتقاء بينهما ، والحيد عن هذه النقطة المحورية يعنى انفجارات فى كل اتجاه !!

أساسية أخرى من أساسيات البطولة والبطل من المنظور الاسلامى ، وهى « احترام الحياة » ..... فلقد درجت الحركات البطولية التاريخية جميعا على كل مستوياتها الفردية والاجتماعية حتى والخرافية ، على أن يخوض البطل الى غايته حمامات من الدم بلا حدود ، وأن يعبر الى هدفه النهائى على أكداس من الأشلاء

الكونية والانسانية جميعا ... ولكن الاسلام ـ وحده ـ يقف من هذه القضية موقف النقيض : « لا تقطعوا شجرا ، ولا تحرقوا زرعا ، ولا تردموا آبارا ، ولا تقتلوا وادعا » . هذه كانت وصية القائد البطل ـ من المنظور الاسلامى ـ لجيشه الزاحف الى صدامه المحتوم بأبشع قوى عدوانيـة طاردت حتى لونيـة اللون فى أتباع هذا المنظور الاسلامى الواعد الشريف !!

ولكن كل ذلك الحقد العداونى لم يثر حفائظ القائد ، ولم يستدرجه الى كراهية الحيـاة فى كل مظهر من مظاهرها : فى الانسان .. والنبات .. والجماد .. والماء .. أبدا لا يفقد البطل ـ من المنظور الاسلامى ـ احساسه الملتزم أمام روعة الأشياء .. من الشجر الفارع .. الى الزرع المتنامى .. الى الآبار المترعة .. الى الودعاء الذين لا يقاتلون .. ان البطولة هنا مؤطرة باطارها العقائدى ، حريصة حتى فى أعقد مراحل الصدام على أن تمضى الحياة الى غايتها .. على أن يستمر الشجر فى الاثمار ، والزرع فى الايناع ، والماء فى التدفق ، والودعاء فى تقبيل وجه الحياة !!

ان الحياة تعنى ـ من المنظور الاسلامى ـ مجال بطولة البطل ، وتخريب هذا المجال يعنى ان البطل يعمل فى غير مجال ، والحيـاة هنا شاملة لكل شىء ، حياة الانسان ، وحياة الحيـوان ، وحياة الجماد ، وحياة النبات ، وحياة الحضارة .. فى كلمة واحدة « حياة الحياة » ان الحفاظ على كل هذه الحيوات يعنى بالضرورة الحفاظ على طبيعة الدور الذى يؤدى ، وعلى ديمومة الحوار بالسيف أو بالحرف .. ان السيف ـ حين تفرض الضرورة أن يسل ـ انما يمهد للحياة أن تمارس حركتها الطبيعية ، أعنى ان بتر أجزاء شائهة مريضة من هنا أو من هناك لا يعنى شهوة البتر وانما يعنى حكمة العلاج !!

نستطيع الآن أن نقول : ان بطـولة البطل ـ من المنظـور الاسلامى ـ تبدأ من الأرض لتنتهى فى السماء .. وهـذا هو

حجمها الطبيعى ·· لان امتداد أعراقها الواشجة فى تربة الأرض بلا حدود ، يبدأ من التعاطف مع حبة الرمل ، وينتهى الى الحفاظ على روح الحضارة العقائدية بمفهومها الشمولى ··· ولان هـذا الانتماء المجذر الى الأرض لا يشكل غائية مطلقة ، ولكنه ـ من المنظور الاسلامى ـ اندفاع بكل الملك الى رحاب الملكوت ·· أعنى بكل الأرض الى رحائب السماء !!

ان بطولة البطل من هذا المنظور تبدأ من الانسان لتنتهى الى الانسان الالهى ·· تبدأ من الانسانية لتنتهى الى الربانية ·· تبدأ من منطلق الجزء ـ ربما ـ لتنتهى الى منطلق الكل آخر الأمر ·· وهذا ما عنيته بقولى : ان بطولة البطل من المنظور الاسلامى تبدأ من الأرض لتنتهى فى السماء ، وهذا هو حجمها الطبيعى !!

ـ وبعد ـ فان المقارنة هنا ـ بين النمط الاسلامى وبين غيره من الأنماط ـ تصبح بلا مضمون ، فليس غير النمط الاسلامى من يستطيع أن يبدأ ببطولة البطل من الأرض لينتهى بهـا فى السـماء !! وليس غيره بقادر على أن يعطى بطولة البطل هذا الحجم الشمولى !! مهما نعانى فى رحلة اللهث وراء أى من المقارنات !!

تأملات فى تكوينات الشخصية الاسلامية

- ١ -

قد تكون الشخصية مجموعة من المجالات او مجموعة من القوات ، وقد تترك الشخصية على صفحات الواقع التاريخى بصمات ما تنحنى عليه من هذه أو تلك ، وقد يتحسس الجدل النقدى فى تقييمه الموضوعى للشخصية التاريخية عناصر قواتها الفاعلة أو عناصر مجالاتها المنفعلة ليضعهـا فى مناطهـا الصـوابى من حركة التاريخ الشاملة ؛ أو ليخرجها من حركة التاريخ الى مجرد كونها ظاهرة من ظواهر الوجود الانسانى الآتى والذاهب بلا قسمات !!

ولكن الشخصية (الاسلامية) ترفض من هذه العناصر وتنتخب ، لانها لاتريد ان تكون موجة عابرة فى محيط الاجتماع البشرى ، أو مجرد صدى لصوت تحكمة قوانين التبعية الذاهلة بلا تأصيل !!

الشخصيـــة الاســلامية محكومة بقوانين الــدورة الكاملة فى الطبيعة والاشياء ، لأنها انبثاق عقائدى يدين بشمولية الرؤية ، وغائيـــة الطموح ، بمعنى أن الاســــــلام لايتحجر فى رؤيــة صاعقة تعطى نصف الحقيقة وتعمى على نصفها الآخر ، وانما هو على النقيض ثورة جدل كونى اذا جاز ان يقال ، بمعنى انه يرفض أن يدين للقيمة من العرض ثم لا شىء ، ولكنـــه يتعقب كل بزوغ للعرض ببزوغ للقيمة ، وهذا هو المحتوى الحقيقى لمقولة أن الاسلام دين صالح لكل زمان ومكان من جهة ثم لمقولة ان الاسلام هو المضمون الحضارى الخالد للشكل الحياتى على تغاير هذا الشكل من جهة اخرى !!

واذا كانت الشخصية (العامة) فى اطارها السائب مجموعة من المجالات أو مجموعة من القوات ، فان الشخصية (الاسلامية) فى اطارها المنضبط تصبح مجموعة من المجالات (المعينة) أو مجموعة من القوات (بالذات) .. أى ان (نوعية ما) تحكم علاقة الاشياء بعضها ببعض فى تكوينات الشخصية الاسلامية ، بحيث يعلو صوت الانتخاب النوعى على صوت الاعتباط العشوائى فى مساحة هذه التكوينات .. وهذا هو ما يعطى هذه الشخصية الاسلامية تفردها القائد اول الامر ، ثم مبرر صدامها الحتمى مع الاغيار حتى تعتدل الموازين فى نهاية المطاف !!

وقد اوثر مصطلح (التكوينات) على غيره من المصطلحات لانه يشع معنى لا اريد ان نفرط فيه ، ان التكوين استنبات لشىء لم يكن ، وصوغ لاشــياء كثيرة هى كائنة ، ان مالم يــكن يكون هنا بفعل الوهج العقائدى ، وما كان مشعثا وغير قابــل للتشكيــل يأخذ هنا شكله النهائى فى ظل هذا الفعل العقائدى .. وهكذا يلوح مصطلح (التكوينات) اقدر من غيره على استيعاب ما نحلم بالبوح به من خلال هذه السطور !! وبما يكون التكوين فى عملية

الابداع الفنى مثالا تقريبيا ‥ ان الفنان عمله النهائى اما من خلال اضافة تكوين موجود الى تكوين موجود ‥ واما من خلق تكوينات مستحدثة والولوج بها الى عالم التشكيل !!

قد يقال ان الشخصية مصطلح مشترك لا يخصصها غير ان نضيف اليها مصطلح الاسلامية ، وهنا تصبح العلاقة بين التكوين والشخصية علاقة طارئة وليست علاقة صميمة .. ونحن لانرفض هذه المقولة رفضا كاملا ، ولكننا كذلك لا نستطيع ان نقبلها على نحو من الاستغراق الشامل ... لان الشخصية الاسلامية لاتصبح حاملة لهذه الهوية الحقيقية الا اذا اجتازت تجربتها النهائية بالفعل . أى انها لا تصبح شخصية اسلامية الا اذا خاطرت وغامرت واكتسبت عناصر تكويناتها العقائدية واستوت على افق القناعات النهائية التى تصبح هواءها ودماءها وسيفها وكتابها جميعا ... ان الشخصية الواقفة على ربوة فى المنتصف أو على وهدة فى القاع ، يمكن أن تكون شخصية طامحة الى فعل ما ، يمكن أن تكون مفردة من مفردات الشخصية الاسلامية ‥ ولكنها أبدا لن تكون الشخصية الاسلامية فيما نعنى بهذا المصطلح الهائل الايماء !!! الذى فى طريقه الى الاسلام بعض ملامح الشخصية الاسلامية ‥ والذى أسلم كذرة فى دورة بعض ملامح الشخصية الاسلامية — والذى يؤمن بالاسلام نظرة ، أو نظرية ، أو رؤيا ، أو انجذابا ، أو تعاطفا ، أو رغبا ، أو رهبا ، أو احتماء — بعض ملامح الشخصية الاسلامية ‥ ان الاسلام هنا يحتوى هذه المفردات ليعيد تشكلها من جديد .. انه لا يرفضها ... لأنه قادر على صوغها وتعليتها وترشيد خطواتها على الطريق ...

نعنى اذن بالشخصية الاسلامية حصاد كل التجربة البادئة من نشوة الحب ، السائرة على حقول الرفض والموافقة ، والمستوية فى نهاية الرحلة على أعراف الانتماء .. بحيث يصبح

الاسلام ليس نظرتها او نظريتها او رؤياها او انجذابها او تعاطفها أو رغبها او رهبها أو احتماءها .. وانما (كينونتها) ... وهنـا فقط نستطيع أن نستجلى أغوار كثير من المقولات الاسلامية التى تضع السيف والحرف على مستوى واحد فى سبيل أن يولد على الارض اسلام بلا تخرصات !!

نموذج الشخصية الاسلامية فيما نرى يبتدىء محيطه من الارض لينتهى فى السماء .. هذا النموذج لايتصدى فقط لقيادة السلوك الانسانى فى حركة احتكاكه اليومى على هـذه الارض ، ولكنه يتصعد بهذا السلوك الارضى ليعقد له وشائج قربى بالسماء .. ان الرجل الربانى ليس سـوى نموذج أو نمط للشخصـية الاسلامية .. ويخطىء أفدح الخطأ من يظن أن هذا الرجل الربانى هو من انقطع الى قبلة فى مسجد ، أو الى قنة فى جبل ، او الى غار فى بيداء .. ان كل الساعين على الارض (اعبـد) من هـذا من هذا المعتزلى الشاحب القدرات ..نموذج الشخصية الاسلامية يبتدىء محيطه من عراك القوى الذاتية الى عراك القوى الخارجية .. لينتهى الى صـداقة كل القـوى خارجية وذاتية .. تحتية وفوقية ... وهذا معنى أن يكون محيطه مبتدئا من الارض ومنتهيا فى السماء !!

يقولون : ان الحكم على الشىء فرع عن تصوره .. ونقول : ان تصور الشىء هنا سيكون فرعا عن الحكم عليه .. بمعنى أن قوانين الشخصية الاسلامية قوانين حلولية .. اى انها لن توجد من عدم .. أى ان تكويناتها قد انتهت بالفعل ، ولقد صدر الحكم عليها منذ أجيال .. ولا يبقى أمامنا نحن الا ان نتأمل قاعدة هذا الحكم أو مفرداته على الاقل لنتصور بعد امكانية أن نحيط بهذه المفردات ... ونحن هنا نحاول أن نصوغ مقولاتنا على نحو يوحى بذاتية الفهم .. وربما نصوغهـا على نحـو يوحى بموضوعيـة هذا

الفهم بكل مايحمل ذلك من مخالفة وموافقة ولكننا نعد بأننا هنا وهناك لن نخالف ايثارا لجلبة المخالفة ، ولن نوافق ايثارا لرخاوة الموافقات .. سنقول فى كل أولئك بصوتنا نحن .. من داخلنا نحن .. اننا لانريد أن نفرط فى قضية (الشخصية) ونحن ندير حوارنا حول تكوينات الشخصية ..

قد تكون كل مفردة من مفردات هذه التكوينات بحاجة الى تأمل مستقل ، وقد تكون بحاجة الى موقف شجاع ، وهـــذا هو هدف هذه الرحلة منذ بداية الانطــلاق .. وبديهى أننـــا لن نتدرج بالحديث عن تكوينات الشخصية الاسلامية من السطحى الى الصميمى ، ولا من الصميمى الى السطحى ، ان فكرة تقديم تكوين على تكوين ليست فى خـــاطر هــذه الدراســة ، لان كل التكوينات فى نهاية الامر تشــكل المجمــوع الكلى الذى نســميه الشخصية الاسلامية ، وهذا هو مانهدف اليه ..

هذه مقدمه

وبعدها نتأمل كل المفردات ..

وكما قلنا منذ البدء .. فان تكوينات الشخصية الاسلامية ليست افتراضا عشوائيا من جهة ، **فان ذلك يحيل القضية الى** مجرد تأويل .. وليست تجريدا ميتافيزيقيا من جهة أخرى ، فان ذلك يحيل القضــية الى مجــرد تخييل .. ان تكوينــات الشخصية الاسلامية بعض عناصر القاعدة الشــمولية التى هى الإسلام .. الجوهر واحد .. ولكن تفريعاته تنمو هنا فى عرض .. وتطفو هنا على سطح .. وتأتلق هنا فى اطار .. الشــجرة دائما تخاطب الطبيعة فى مظاهر من الفروع والاوراق بلا حدود .. وها نحن على مقربة من تأمل الشجرة .. شروشا وأفرعا وأوراقا !!

- ٢ -

(الانفتاح الفكرى) تكوين من تكوينات الشخصية الاسلامية ، لان الانفتاح الفكرى وحده هو الذى يتيح للموجود أن يتسلق بالوعى الى منابع وجوده الحقيقى .. أن يكون الانسان مغلق الذهن ، تلك هى قمة المأساة .. لأن الوعى الفكرى بكل روافد الأشياء هو المقدمة الطبيعية للوعى بالاشياء .. الذين يغلقون نوافذهم يموتون بالجدب ، والذين يرتعشون أمام الجدل الحيوى هم الذين لايملكون ذرة من اليقينيات .. لقد يتاح للدارس المستوعب لفلسفة الاسلام الشمولية أن يرى فى هذه الفلسفة حوارا صميميا مع كل الزمن بأضلاعه المثلثة .. الماضى .. والحاضر .. والمستقبل .. ان كتاب الاسلام الخالد (القرآن) لم يفرق رؤوس أتباعه فى حاضر منبت عن ماضيه .. ولا فى ماض منقطع عن مستقبله .. لقد أصل لوضعية انسانه العقائدى حوارا رافضا مع الماضى المتعفن بكل أوقاره وأوضاره ، وحوارا طامحا مع المستقبل بكل آماله وأحلامه ، وحوارا واعيا كذلك مع الحاضر .. بكل رفضه للهابط الخابط .. وأيضا بكل عناقه للصاعد الواعد من أحلام المستقبل بلا تفريط !!

يبدو (الانفتاح الفكرى) قضية صميمية اذن .. وهو ليس قضية صميمية لمجرد انه مجال (قابل) يأخذ من هنا وهناك ؛ ولكنه قضية صميمية لانه مجال قابل وفاعل معا .. بمعنى أنه يفتح جهاته الاربع على كل أضلاع الزمن ماضيه وحاضره ومستقبله .. وعلى كل أضلاع الثقافات قديمها وحديثها .. أولا لانه من خلال هذا الجدل الوجودى والفكرى يصوغ رؤيته على وهج التجربة وليس على مجرد الاحساس .. وثانيا لانه ليس مطالبا بأن يعى منادح الفكر لكى يكون واعيا بمنادح الفكر ثم لاشىء ، ولكنه يعى .. ويتمثل .. ويستوعب .. ويعانى ..

لكى يندفع بكل هذا الوعى وبكل هذا التمثل وبكل هذا الاستيعاب وبكل هـذه المعاناة الى خوض معركته الفاصلة ، داعيا .. ومقاتلا !!

اذا كان (الانفتاح الفكرى) فى غير الاسلام ترفا فهو فى الاسلام كدح غائى !! واذا كان (الانفتاح الفكرى) فى غير الاسلام بحثا عن هوية تائهة فهو فى الاسلام تجذير لهوية غير قابلة للانفراط !! وهذا هو الفرق .. ان الترف قد يكون بعض مباهج الشاعر الباحث عن حدائق الالهام .. ان الضياع قد يكون بعض مناطات التافهين الذين يرتعشون فرقا تحت شمس التجديد .. ان البحث عن الذات وهى فى قبضة الذات قد يكون بعض مأساة الفارغين .. ولكن قضية الكدح الغائى ، وقضية المرابطة والتجييش ، وقضية تأكيد الهوية وتجذيرها قد يكون أو هو بالفعل كل هموم العقائديين .. وهذا هو الفرق !!

ان (الانفتاح الفكرى) لايعنى عناق الفعل فى مرحلة واحدة من مراحل التطور ثم يتجمد .. أى أنه لايمكن أن يكون انفتاحا على مرحلة واحدة ثم يغلق نوافذه ويسترخى .. ان نهر الفكر دائم التجدد ، ودائب الاندفاع ، وهو مع كل مشرق شمس يحمل الى حوارييه مزيدا من الكشوف ومزيدا من التحديث .. ولكى يكون الانسان العقائدى ـ وهو الشخصية الاسلامية فيما نعنى هنا ـ على مستوى قضيته ، فانه مطالب بلا هوادة بأن يعيش فى قلب عصره وقلب كل العصور فى وقت معا .. أى أنه مطالب بأن يعى ثقافة عصره ليدير حواره مع مفردات هذا العصر، ومطالب كذلك بأن يعى ثقافة كل العصور انطلاقا من مسلمة أن الثقافة شجرة جذورها غائصة فى تربة الزمن ، وفروعها ضاربة فى آفاق العصور .. ان الوعى بثقافة العصر يعنى اقتدارا على معايشة المقولات المستحدثة .. ولكن الوعى بثقافة الماضى يعنى

كذلك اقتدارا على تاصيل المقولات وليس مجرد الافضاء بهـذه المقولات !!

قد نشتبك هنا مع قضـية فادحة : هـل يعنى (الانفتاح الفكرى) تبديل العقائد تماما كما تستبدل الآراء ؟

كلا ... ان جوهر الفكر الاسلامى لايستحيل ولاينكفىء الى نقيضه ، ولكن هذا الجوهر الفكرى قابل باستمرار لمواجهة أن يقال بأكثر من لغة ، وان يتدثر بأكثر من رداء .. قد يكون الشكل العلمى الاكاديمى هو المنطق الصوابى لجوهر الفكر الاسلامى فى مرحلة .. وقد يكون الشكل الفلسفى هو المنطق الصوابى لجوهر هذا الفكر الاسلامى فى مرحلة أخرى .. وقـد يكون الشـكل الجدلى هو المنطق الصوابى لهذا الجوهر فى مرحلة ثالثة ... ان هذا التشكل لايعنى على الاطلاق استحالة لون الى لون ... وانما هو يعنى فقط اقتدار هذا اللون على مطاوعة كل التجسدات ، ان عصر المنطق العلمى يتطلب مقولات علمية ، وكذلك يتطلب عصر الفلسفة مقولات فلسفية .. ان دعاة العصور الاولى ودعاة عصرنا الراهن يلتقون على كلمة (الاسلام) ولكنهم يذهبون فى شروحهم وتفاسيرهم وطرائق جدلهم مذاهب شتى ، ومن هنا كان ثراء هذا الفكر الاسلامى .. ان ثقافة عصر من العصور تفرض بالضرورة أن يتسلح الداعية بمنطق هذه الثقافة ، ولقد احاول أن اخاطب الشباب بمنطق الكهول فيصيبنى الاحباط ، فلماذا أحاول أن الوى عنق التاريخ فأفرض على مرحلة منطق مرحلة بلا تبرير ؟؟ فقط ينبغى أن اقبض على جذورى ، ولى بعد أن اضعها على ماشئت من الأصعدة فكريا وفلسفيا وفنيا بلا حدود !!

و (الانفتاح) يجرى أبعد من هذه الاشواط .. انه يعيد تقييمه لذاته فى حومة هذا الجدل الوجـودى ... اى انه يقـوم بمراجعة شاملة عند كل منحنى من منحنيات طريقه الصاعد ،

ربما ليتيح لذاته أن تعيد تقييم خطواتها أولا بأول ، وربما ليقيس مسافات التطور والجمود فى رحلته العارجة .. وآمل أن لايجرحنا شعوريا مصطلح التطور فنحن أولى به وهو أولى بنا .. ان التطور لايعنى (كما يفهمه السذجون) انتقالا من الابيض للاسود .. ولكنه يعنى دائما انتقالا بالابيض من مجرد البوح الى حقيقة الفعل ، يعنى الاندفاع بالابيض من مساحة الوطن الى مساحات كل البقاع ، يعنى تناول الابيض من منظور معاصر ومثقف فى مواجهة تناول هذا الابيض من منظور ورائى ومعصوب !!

ان (الانفتاح الفكرى) حين يعيد تقييمه لذاته ليطور من امكانية هذه الذات انما يندفع فى مسار صوابى موائم لطبيعة الاسلام كعقيدة قابلة لاحتواء الزمن بأضلاعه المثلثة : الماضى .. والحاضر .. والمستقبل .. وموائم لطبيعة الاسلام كعقيدة قابلة كذلك للتعامل مع كافة الثقافات ، يقينا منها بأن مضمونها الحضارى يرفض أن يكون جبانا لانه ممتلىء بعناصر الاحتشاد والديمومة والانفتاح .. وموائم ايضا لطبيعة الاسلام كعقيدة مقاتلة وليس سكونية ، بمعنى أن معارك الفكر الاسلامى ينبغى أن لاتطمئن الى شاطىء نجاة واحد .. ان ثبج الخضم وأنواء الطبيعة هو قدرها المنذور .. انها تبحر من عراك الى عراك ، ومن جدل الى جدل ، ومن حوار حضارى الى حوار أشمل حضارية .. كذلك كان الفكر الاسلامى منذ مطالع هذا الفكر الاسلامى وهكذا ينبغى أن يكون .. انها ليست نظرية فى السياسة ـ وليست نظرية فى الحرب .. وليست نظرية فى الاجتماع ... انها بناء عقائدى يمتد من علاقة الفرد بالفرد على هذه الارض ، الى علاقة الفرد بالكون والارض ، الى علاقة الفرد والكون والارض بالقوة الخالقة المتعالية اللامحدودة وان كان هذا لايتعارض فى مجال الفكر مع أن نسلط الضوء على نظرية الاسلام فى السياسة ..

ونظريته فى الاقتصـــاد ، ونظريتـه فى الحرب ، ونظريتـه فى الاجتماع !!

ان (الانفتاح الفكرى) فى اطار الواقع الاسلامى يعنى أن نكب ليس على نوعية فكرية جامدة ، وانما على نوعيات صاعد بعضها من بعض ، ومتمال بعضها على بعض ، ومتمم بعضها لبعض .. أى أن مايسمى سياسة ، واقتصادا ، وفلســفة ، واجتماعا ، يصبح بالضرورة بعض مفردات الفكر الاسلامى من جهة انفتاحية، فليس حوارا عقائديا ماينهض على استقطاب نوع واهمال أنواع .. قد يكون حوارا من أى لون نسميه ماشـئنا من الاســماء ، ولكنه لن يرقى الى مستوى التنظير العقائدى فى عالم كل مافيه خاضع لمنطق النظرية ، وهادف الى غائية التأصيل !!

واذن .. يصبح (الانفتاح الفكرى) بهذا المعنى ، أو قل من هذا المنظور ، تكوينا بدئيا من تكوينات (الشخصية الاسلامية) .. ويصبح الجدل ليس (أن يوجد هذا الانفتاح أو لايوجد) ... وانما فقط (من أين والى أين)! .. ويصبح فكرنا نحن بهذه الوضعية الصوابية فكرا عائشـا فى شرايين عصره المائج ، حاملا أحلام غده المأمول الموشوج بأمسه الرائع .. ونصبح نحن .. جيل الراية المقتحم .. الذين يرفلون بالعنفوان كل لحظات التاريخ !!

- ٣ -

حين يكون (الالتزام القيادى) تكوينا من تكوينات الشخصية الاسلامية ، يقفز على الفور من فوق فكرة التعــاقب المتزمت أو الترتيب الذى لانقصد الى شىء منه فى هذا المجال ..

و (الالتزام القيادى) ليس شعارا يطرح فى مرحلة سابقة على شىء أو لاحقة لشىء ، وانمــا هو بزوغ من حركة الجــدل بين الانسان والواقع .. ربما توحى كلمة (الالتزام) باتخاذ موقف فى

لحظة من اللحظات ، ولكننا ليس على هذا المستوى العارض نتعامل مع هذا المصطلح ، ان (الالتزام القيادى) بما هو تكوين من تكوينات الشخصية الاسلامية يجىء من وضعية كونه بزوغا مع حركة ميلاد الشخصية فى حومة احتكاكها المباشر بالواقع الانسانى والعقائدى الذى تتعامل معه .. أعنى أن الشخصية بتكويناتها تظل فى حالة كمون حتى تستكمل عناصر أدائها الفذ ، ثم تنهمر الى جدل الفعل مشتعلة بحماس التزامها الذاتى ، مستضيئة بأحلامها العقائدية القائدة !!

يبدأ (الالتزام القيادى) اذن من حركة التحام الشخصية الاسلامية بواقعها الحيوى ، وهو يبدأ من هذا المنطلق فى محاولة شجاعة لتغيير ملامح الاشياء .. الواقع العقائدى ، والواقع السياسى ، والواقع الاجتماعى ، والواقع الفكرى .. كل هذه الأشياء محكومة فى منطق (الالتزام القيادى) للشخصية الاسلامية بضرورة التغيير .. وليس التغيير هنا مجرد واجهة مكان واجهة، انه انقلاب صميمى يبدأ من الجذور ويتعالى الى الاعراف .. من هنا تبدو فداحة العبء المتصدى لحركة هذا التغيير الامل ، انه يتطلب وعيا كاملا بعناصر المناخ السياسى ، والاجتماعى ، والفكرى ، والعقائدى ، ويتطلب مايشبه حس الاستشهاد (وهو ما أطلقنا عليه الالتزام القيادى) أساسا لتفجير هذه المناخات السائدة ، وتأصيل مناخات بديلة أكثر مواءمة لطبيعة منطق الاشياء !!

٤

فى ذاكرة (الالتزام القيادى) دائما ينبغى ان يومض حس الشهادة ، لان العبور من شاطىء الى شاطىء يحمل محتواه الذى لايزايله ، ان الانسان القائد هنا منذور لواحدة من اثنتين : النصر أو الشهادة .. وعلى ضوء هذه الحقيقة المسلمة يمكن أن نفهم بعض فلسفة الاسلام فى تهديم الحوائط الكاذبة بين ماهو

دين ودنيا ، بين ماهو عقيدة وشريعة ، بين ماهو واقع حيوى وماهو واقع عقدى .. ان بعض فلسفة الاسلام تعطى ضرورة المزج بين الدين والدنيا .. ضرورة الالتحام بين العقيدة والشريعة ضرورة العناق بين الايمان والواقع .. ان (الالتزام القيادى) هنا لايعنى التزاما على شاطىء واحد ، ولايعنى كذلك قيادة على جبهة دون جبهة ، ان المتصدى للريادة العقائدية هو نفسه الذى ينام على حمائل سيفه فى انتظار غزوة من الغزوات أو فتح من الفتوح .. وهو يملك عافيته على أى من الوجهين ، فهو لايمضغ وعظا عقائديا ليشبع نهم الابداع الفنى فى نفسه .. وهو لايضرب بسيفه عشقا لولوغ ظامىء فى الدماء .. ان القضية المؤرقة هى أن يحل اسلامه على الارض ، وهو يمتشق (الحكمة والموعظة الحسنة) أول الامر .. فاذا تصاممت الرءوس هزها بخفقات موقظة من سيفه العادل !!

ولكننا نذهب أعمق وأعمق فى فرضيات جدلية اذا نحن توافقنا على أن (الالتزام القيادى) مجرد قناعات بدئية تنبثق من حركة احتكاك انسانها المسلم بواقع الانسان هكذا بلا تحديد .. ربما تصبح (لو أنها كانت كذلك) مجموعة من ردود الافعال لاتشكل واقعا متكاملا يملك أن يضرب بسيف المبادأة .. وهذا هو مانحذر حتى من مجرد وضعه على مستوى التخييل .. ان (الالتزام القيادى) يمارس حركة فعله من خلال تصور كامل لقضية الاعتقاد .. أعنى أن مرحلة (الانفتاح الفكرى) التى تسبق وتصاحب وتتلو حركة الالتزام القيادى ، تتيح للشخصية الاسلامية بمعاونة تكوينات أخرى كذلك أن تستوعب أبعاد قضيتها ، وأن يكون كم الاعتقاد لديها مساويا لكيف هذا الاعتقاد ، وأن تصل فى يقينها الحاسم الى ذروة الامتلاء اليقينى .. فاذا هى باشرت مراحل الفعل كانت صادرة فى كل تحركاتها عن خلفية

ايمانية كاملة تفرض على غيرها ان يكون رد فعل لها ، وليس ان تكون هي مجموعة من ردود الافعال لغيرها من المقولات !!

يلتزم (الالتزام القيادى) بأن يقدم الدليل على رحابة وعيه البطولى ، والدليل هنا ليس مغامرة على شيء بقدر ماهو مثابرة على شيء ·· ان قيمة الوعى البطولى تتألق فى أن يعطى البطل من مساحة الضوء للاخرين ، ان يوزع أدواره لا أن يسرق كل الادوار، أن يقف حيث هو محتلا قمة الصراع الجدلى مع واقعه اللزج ، مادا ذراعيه وسع انفتاحهما الى الآخرين متيحا لهم على قمة هذا الصراع !! أن يتدلى هذا هو الخطر الحقيقى ، ولكن أن يرتفعوا اليه هذا هو منطق البطولة والالتزام القيادى ..

ان الفرد قد يكتب أول سطر فى تاريخ الحوادث ، ولكن الجماعة هى التى تكتب كل السطور ·· والالتزام القيادى ليس استشرافا لكل مفردات الحركة فى الواقع الحيوى ، والا لجاز ان يكون (القائد) شيئا اشبه بما يقال عن (الكل فى واحد) .. ان قصارى الالتزام القيادى أن يرمى الساحة بعينى نسر ، وأن يسلط وعيه الخارق على الكليات والاصول ، وان يدع بعد ذلك للآخرين عبء أن يصاحبوا خطواته ، كل على الدرج الذى يجيد الصعود عليه .. ابدا لا يكون الفرد شموليا الا من خلال الاخرين حتى فى الواقع الفكرى ·· انت تتنفس من رئات مئات من الأجيال أنت ترى بعيون الملايين الغابرة والمعاصرة ·· أنت لست أنت الا اذا كنت أنا أنا .. وهذه هى المعادلة التى لابد ان يفقهها كل التزام قيادى على مستوى الفكر أو على مستوى العقائديين !!

اذا كان اعطاء الدور للآخرين بعض واجب (الالتزام القيادى)·· واذا كان الاعتراف بالذات من خلال الاعتراف بالآخرين بعض واجبها الآخر .. فان (صناعة) الرجال هى الواجب المتمم أو

الواجب الخاتم اذا جاز ان يقال .. اعطاء الدور حركة سالبة لأنه عناء نفسي محتمل على كل حال .. اما صناعة الرجال فهى ذروة الايجاب ..لانها صياغة بديل بالقوة أو بالفعل .. ودليل حاسم على استقطاب الانسان للقضية ، واستقطاب القضية للانسان ، وتلك ـ بكل المقاييس ـ هى قمة الايجاب والايثار !

الرجل .. والقضية .. أيهما يعطى من نفسه لصاحبه ؟؟

الرجل يعطى فكرا .. وساعدا .. ورجالا

والقضية تعطى .. رافدا .. ومضمونا . والهاما

(والالتزام القيادى) الفاهم يعطى جسرا واصلا بين الرجل والقضية .. لابد للقضية من رجل ، ولابد للرجل من قضية ، ان الالتزام القيادى مطالب بافراغ القضية الملائمة فى وجدان رجلها الملائم .. سياسيا .. وفكريا . واقتصاديا وحضاريا ان كثيرا من الاحباطات المعاصرة ترجع جذوره الى افراغ قضية غير ملائمة فى وجدان رجل غير ملائم .. فيضرب كل منهما الرصاص على عينى صاحبه !!

اذا كان (الالتزام القيادى) كل هذه الاشياء .. فان معناه الوهلى .. هو ان نشتبك بالجدل مع الواقع الحيوى .. معناه ان نلتزم بتغيير هذا الواقع .. معناه ان ننتصر أو نستشهد .. معناه ان نمتلك قيمة المبادأة .. معناه ان نقدم الدليل على وعينا البطولى من خلال اعطاء الدور أو من خلال اعترافنا بالاخرين .. معناه ان نختار اقتدارا خارقا على صناعة الرجال .. واقتدارا أرحب على تمديد الجسور بين الرجل والقضية .. معناه ان نكب على الجدل مع كل عناصر الواقع الضاغط ، لنديل منها لعناصر من ضنعنا نحن !!

ان الشخصية الاسلامية من خلال التزامها القيادى تستطيع أن تعيد سطوع الضوء فى عيون الكلمات ... وهى مستطيعة دائما أن تجعل من الكلمة زحفا فى الزحوف .. والكلمة التى نعنى هنا ليست هذا الاطار اللفظى المجوف ، وانما هى هذا الواقع الممتلىء المعبر عنه فى كلمات .. انها من هذه الوجهة تصبح الكلمة الفعل .. وتصبح ترجمة نضالية للمقولة الاسلامية الرائعة : (فعل رجل فى ألف رجل .. أجدى من قول ألف رجل فى رجل). ان قيمة الشخصية الاسلامية من خلال التزامها القيادى ربما تلوح فى محاولتها العازمة أن تجعل للكلمات أظفارا .. وأجنحة وعيونا .. ان تجعل منها طائرا يعبر كل مساحات الزمن . الى كل مساحات الأزمان !!!

- ٤ -

الاقتدار الكامل على (صوغ المقولات فى نظرية) .. تكوين من تكوينات الشخصية الاسلامية ... وهو من هذا المنعطف الصميمى مرحلة ينبغى أن نضيئها بلا كلال !!

أن مأساة الفكر الاسلامى فى عصوره المتأخرة نابعة — فيما أعتقد — من عجزه الخرافى عن قدرته على التنظير .. أن العصر الذى نعيشه يلغط بأشتات من المذاهب والنظريات ، ولست داعيا الى ابتداع اسلام جديد فى مواجهة كل مذهب جديد ، لأن للاسلام أصوله التى لايتحيفها الزمن ولا ينال من جلالها التاريخ ... كل ما أدعو اليه ، هو أن تمتلك الشخصية الاسلامية اقتدارها الفذ على صوغ مقولاتها العقائدية (من الوجهة التطبيقية) فى نظريات .. أعنى أن للاسلام فلسفته الاقتصادية المتكاملة التى يمكن اقتناصها من الاصول العامة والنزول بها الى مفردات الواقع الحيوى فى اطار من قابلية التطبيق .. وكذلك أعنى أن

للاسلام فلسفته الحضارية الشاملة التى يمكن استشفافها من واقع الاصول العامة وصوغها فى نظرية حضارية موائمة (فى اطارها الفكرى) لواقع العقل الانسانى المعاصر وهكذا . وهكذا . ان الذين يزعمون بأننا غير مطالبين بتقديم اسلامنا الى الاغيار فى انتظار ان يقبل هؤلاء الاغيار على اسلامنا طائعين أو مقهورين ، ينسون أروع مافى الاسلام من حيث هو دين فاتح ومقتحم ومشتبك مع كل الزمن فى صراع حياة أو موت .. وعلى نفس المستوى ينبغى أن يفهم أولئك الذين يفزعون من صوغ المقولات الاسلامية فى نظرية .. أن النظرية الاقتصادية الاسلامية .. والنظرية الحضارية الاسلامية .. والنظرية العقائدية الاسلامية .. لاتعنى تفتيت الاسلام ككل الى ابعاض من النظريات .. وانما هى تعنى بالضرورة أن الاسلام لم يقل كلمته فى مناطات الجدل الوجودى والميتافيزيقى جميعا على نحو من الاجمال القاصر .. نعنى أن هذا البناء المتكامل يقيم فى كل زاوية جدارا .. وفى كل جدار لبنات .. وفى كل لبنة عناصر تكوينها البدئى .. ودعنا من محاولة التشبيه فى هذا الصدد .. أن الفكر الاسلامى حين يصوغ (على ضوء أصوله) نظرية فى الاقتصاد ، أو نظرية فى الاجتماع ، أو نظرية فى الحضارة ، لايغامر أبدا باسلامه ككل ينبغى أن لايفتت .. ان علماءنا كانوا أسرع الى استجابة الفهم حين اقاموا نظريتهم الاسلامية فى الفقه على ضوء من التحديد المنهجى بين ماهو عبادات وماهو معاملات .. وحين أقاموا نظريتهم فى علم الكلام على ضوء من التحديد الاكاديمى بين ماهو الهى وماهو بشرى .. ان دورنا نحن ان نعطى من بيننا (الشخصية الاسلامية) القادرة على صوغ هذه المقولات فى نظريات ومقولات .. ان شبابنا المعاصر يعانى من وفود تيارات مسلحة بمنطق العصر ، وهو محكوم بقصوره الذاتى عن التعامل مع الاصول الاسلامية الكبرى بما هى اكبر من طاقته ، وبما هو غير مؤهل دراسيا للأسف ! لاستيعاب

هذه الإصول في شكلها التراثى ... يبقى اذن إن يتاح للشخصية الاسلامية ان تمارس دورها الفاعل فى هذا الصدد ، بلا تخويف وبلا حماسيات ، وانها لقادرة على استلهام أصـولها ، وتنظير مقولاتها على تنوع هذه المقولات ، ثم على الدخول بهذه المقولات فى اطارها التنظيرى الى عالمى العقل والوجدان المعاصرين ... وهنا فقط يمكن أن يكون دور هذه الشخصية فاعلا وقادرا على الانجاب، لانه من جهة يواجه عالمه هكذا وجها لوجه . . ولانه من جهة أخرى يقود جماهيره الى منابعه الاصولية على مستوى هائل من الذكاء والوعى !!

القدرة على (صياغةالنظرية) لاتعنى احداث شيء من لاشيء، وانما هى تعنى تركيب شيء من كل الاشياء ، فى الهيكل الاجتماعى مثلا ينبغى للشخصية الاسلامية أن تستقطب كل أبعاد الاهتمام بالانسان فرديا وجمعيا من خلال تراثها الاسلامى ، وأن تعيـد تركيب هذه المفردات فى نظرية اجتماعية موائمـة لطبيعة العصر الذى تحياه . . ان ذلك يقتضى بالضرورة نبشا للتراث الاسلامى بكامله ، فى الفقه عبادات ومعاملات ... وفى التوحيد الهيا وبشريا . . وفى الاقتصاد أخذا وعطاء . . وفى الاجتماع حرية والتزاما . . وهكذا الى نهاية المطاف ... أن مجموع هـذه المفردات الموزعة يعنى المحصلة النهائية للكائن الاجتماعى فى نمطه الاسلامى ، وهو يعنى بالتالى طبيعة الرؤية الاسلامية لهذا الكائن الاجتماعى رؤية يمكن أن نسميها (النظرية الاجتماعية الإسلامية) ... أى أن ماكان موزعا هنا وهناك ـــ أو مجمعا ولكن بشكل ربما يلائم منطق عصر ليس بالضرورة هـو منطق عصرنا نحن ... يصبح ـــ من خـلال النظرية ـــ صوت احتياجاتنا الحضـارية ، وعاصـما هائلا من التسكع الدائخ فى دروب ماندرى وما لا ندرى من النظريات !!

ان ماساة انسان هذا القرن انه فقد نصف توازنه ، بمعنى

ان الجانب العقلاني فيه يوشك أن يبتلع الجانب الوجداني ، ربما بفعل التطور التقني الهائل الموغل في تعرية كثير من المجاهيل .. وهي مأساه لان الفكر العقائدي ظل على مواقعه الاولى رافضا حتى مجرد الحركة تحت ستار انه يملك كنوزه وكفى — ان هذه الكنوز لو احسنا الفهم ليست ملكنا نحن ، انها ملك كل داب على الأرض ، وأن نحتكرها نحن تجميدا أو ترديدا أو قصورا جريمة «فادحة» بلا حدود .. لقد قفز الفكر العلمي قفزات هائلة ، وحقق لنفسه مساحات من الانتصارات ، فأحدث بذلك هوة فاغرة بين طبيعة الرؤية العلمية في اطارها المتطور الصاعد ، وبين طبيعة الرؤية الوجدانية في اطارها المتيبس الجامد .. لو اننا — من بداية هذا القرن — حاولنا أن نستقصي الكشوف الفكرية في الجانب العقائدي لفدحنا احساس بالخجل .. ولكننا نستطيع أن نحصي في الجانب العلمي عشرات من الفتوح والكشوف .. وهذه ابعاد مأساتنا نحن !!

تأسيسا على هذه الوضعية ، ينبغي أن نسلم بأن طبيعة العقل المعاصر (في اطاره العلمي) تستتبع مخاطبة هذا العقل ليس بمفردات النظرية وانما بالنظرية ذاتها ، لاننا نعرف أن العقل العلمي عقل تركيبي يجنح الى التعامل الحي مع كل عناصر التجربة وليس مع أبعاض ممزقة من جسد هذه التجربة اضافة أو سلبا !!

في تراثنا العقائدي من جهة . وفي اقتدارنا على معايشة حركة الفكر العالمي المعاصر من جهة أخرى .. من عناصر التعقيل والاقتدار الواثق على التنظير مايكفي لمخاطبة هذا العقل المعاصر في اطاره العلمي .. يلزم فحسب أن نركز على هذا الجانب ، وأن نمارس الابداع من وجهة نضالية ، وأن نعيش عصرنا القافز بكل حجامه واتساعاته ، وأن لانرفض أي حوار مع أي من المقولات

الهاجمة أو المسألة ، ففي يقيني أن الفكر العقائدى يربح آلاف المرات من حواره الجاهد مع الفكر النقيض .. ان الفكر الصديق يعطيك قناعات نهائيه بأن كل سطوح الارض ممهودة وقاصدة ، ولكن الفكر النقيض يعطيك قناعات نهائية بأن وراء كل مسطح ممهود آلاف الآلاف من الاخاديد والهوات ، وبذلك تنتضى أنت ـ بلا توقف ـ كل أسلحتك وأروع أسلحتك .. أى أن هذا الفكر النقيض يقفك دائما فى حالة تعبئة ، ويفتح أحداقك على كثير من التساؤلات وعلى كثير من الاجابات ، ويعطيك امكانية أن تعيد ترتيب مقدماتك ونتائجك ، لتصل دائما الى القضية الأصوب !!

اقتدار الشخصية الاسلامية على التنظير ليس ترفا عصريا ندعو الى مقارفته ، بقدر ماهو احساس رسالى نلح فى ضرورة الاستشهاد تحت رايتـه .. وأبدا ينبغى أن لانفهم الدعـوة الى التنظير على انها احداث خرق فى الملة ، أو ابتداع طريق غير طريق العقيدة .. ان أصحاب هذا الفهم وحدهم جرذان الفكر الاسلامى الذين يتربصون بكل بصيص ضـوء ، فى محـاولة قذرة لامتطاء صهوة النباح المأجور والمرور .. ان الاقتدار على التنظير معنـاه أن نخاطب العقل الاسلامى وغير الاسلامى بلغة عصره الذى يحياه، من خلال استقطابنا الجامع المانع لكل مفردات الفعل الفكرى فى اسـلامنا العظيم .. فى الاقتصاد ينبغى أن نعـارض بالنظـرية الاسلامية كل النظريات الاقتصادية ..فى الاجتماع ينبغى أن نعارض بالنظرية الاسلامية كل النظريات الاجتماعية .. فى الفكر العقائدى ينبغى أن نعارض بالنظرية الاسلامية كل النظريات العقائدية .. هى ليست مجاراة بقدر ماهى مباراة .. ان أصولنا لن يتحيفها ضيم ، ولكن تفريعاتنا يجب أن تتشكل فى أطر بلغة العصر ومن

منظورات معاصرة ، ان عباقرة المجددين فى الاسلام لم يستوردوا لغة جديدة ، ولكنهم أعطوا من منظـور جـديد .. بلغتهم هم ، وبمضمونهم هم ، ومن تراثهم هم .. وهذا هو معنى أن نجدد .. يبقى أن نخطو نحن الخطوة التالية .. ان نجدد من خلال (النظرية) وليس من خلال حشد تراكمى ناهض على اضافة المترادفات فى غير طموح الى تكامل البناء !!

– ٥ –

(الايمان المقاتل) .. تكوين آخر من تكوينات الشخصية الاسلامية ، وهو تكوين صميمى يتجاوز منطقة أن يكون مجرد تكوين الى منطقة يوشك فيها أن يكون واجهة كل تكوين وخلفيته جميعا .. اننا هنا لانعزل شيئا عن شىء عزلا يباعد بين طبيعة كل من الاطراف ، بقدر مانحاول أن نتأمل شيئا فى أعقابه شىء تأملا يفضى الى عناق النظائر والأشباه .. فاذا قلنا ان (الايمان المقاتل) تكوين من تكوينات الشخصية الاسلامية فان ذلك يعنى على الفور التحام هذا التكوين بغـيره من التكوينات التحـاما ناهضـا على المعاطاة والجدل ، متخطيا كل تخوم النظر الاكاديمى بما يفرضه هذا النظر الاكاديمى على قضاياه من تفصيل ، وتجزىء ، وترتيب، وبهذا الفهم الوهلى لقضية (الايمان المقاتل) كواحد من تكوينات الشخصية الاسلامية . يمكن الدخول الى عالم الجدل حول مفهوم هذا التكوين !!

(الايمـان المقـاتل) نقيض (الايمان السكونى) .. لأن (السكونية) هنا تعنى قناعة ذاتية شاحبة تضـيق حتى بتمديد ذاتها مرحلة ايمانية بعد مرحلة ايمانية حتى تنتهى الى مايشبه الجذب الصـوفى الذاهل عن جدل الواقع الحيوى الفائر بملايين المعطيـات .. ثم لأن القتالية هنـا تعنى الى جانب القناعة الذاتية

المنفتحة اندفاعا صاخبا فى كل مدارات الفعل الوجودى الحامل كل هموم القطيع البشرى فى أهدابه بلا فكاك ... فاذا استرخت بعض المفاهيم العقائدية على وسائد الاقتناع الذاتى الضامر فان مفهوم الايمان المسلم يلبس خوذته مقاتلا من شروق انسانه الى غروب آخر انسان .. يتوافق ذلك من كل جوانبه مع المقولة الاسلامية الصادقة : «الايمان ما وقر فى القلب .. وصدقه العمل » .. هنا ايمان مقاتل بكل مستويات الصدق والاندفاع !!

(الايمان المقاتل) .. يعنى مواجهة كونية للفشل الايمانى المتمثل فى الحاد العصر من جهة ، ومواجهة كونية لنوعية من الايمان المستخفى فى اطمار عجزه الذاتى من جهة أخرى .. الايمان فى مواجهة اللاايمان يعنى حتمية البحث والجدل والانتماء العقائدى ... والقتالية فى مواجهة السكونية تعنى حتمية التجاوز من دائرة الذات الى دوائر الكل ، وحتمية التخطى من محيط القناعة الذاتية الى محيط التبشير والدعوة والفتح .. بهذا يصبح (الايمان المقاتل) شيئا بحجم كل الكون لانه صيرورة دائمة من منطلق الذات الى كل الذوات ، ثم لانه تعبير حقيقى عن فلسفة عقائدية شاملة يشهرها الاسلام تحديا خارقا فى وجه كل الكون!! (اسلام) .. مصطلح يساوى (كل الزمن) وعلى انسان هذا الدين أن يعى أن ايمانه ايمان مؤرق وجاهد ومقاتل ، لانه يبتدىء من القناعات الذاتية المحدودة ، وينتهى الى حتمية القناعات الكلية الشاملة ، وقبل هذه المرحلة الشمولية يظل اسلام المسلم واقعا فى دائرة الظلال !!

يقال احيانا — وكيف ؟ هل تستطيع كل الجماهير المسلمة أن تكون على مستوى الوعي الايمانى المبشر الذى يتيح لها أن تحمل راية الدعوة وتبعة الفتح ؟؟ والذين يسألون هذه الاسئلة يهدرون نصف القضية كاملا ... ان (الايمان المقاتل) ليس هو الايمان

اللابس خوذة الحرب المعبر عنها بالصراع العضلى ثم لاشيء .. ولكنه أشمل من ذلك شـمولا ، انه قد يلبس خـوذة الحـرب العضلية .. وقد يلبس خوذة القتال الفكري ، وقد يلبس خوذة المواجهة الحضارية ، وقد يلبس خوذة الجدل العقائدى .. المهم أن يكون ايمانا مقاتلا على ثغر من الثغور ، بنوعية مايتاح له من سلاح قادر على مواصلة العمل ، أو مواصلة الحوار !!

(والايمان المقاتل) يبدأ نوعيا من الايمان بالذات كوحـدة مخلوقة للقوة الخالقة .. ويتدرج الى الايمان بالآخرين كمجموعة تعطى بتلاقيها ايقاع حكمة الخالقية والمخلوقية فيها .. ثم يصل الى الايمان بالكون كاطار حيوى يعطى للوجود الانسـانى قيمة حلوله على الارض .. ثم يتعالى الى الايمان بالله كقـابض على منطلقات الحركة ومصايرها جميعا .. ومن خلال هذا التحرك الايمانى تنبثق قضايا العقيـده التوفيقية والتوقيفية معا ، من ايمان جازم بالرسالات ، والرسل ، واليوم الآخر ، والقضاء ، والقدر ، الى آخر هذه المقولات .. ومن البديهى ان حلقة الايمان لاتكتمل بالعبور الذاهل على واحد من هذه اشياء .. فان يؤمن الانسـان ببعض (الكتـاب) ويكفر ببعض معنـاه ان صفحة من صفحات هذا الكتاب اما أنها لم تزل غير مقروءة وهذا خطأ منهجى فى أى حكم نهائى .. واما أن صفحة من صفحات هـذا الكتاب مغلوطة وهذا تجديف فى (حكمة) المبدع الاول الذى يحرك الحرف بدءا من حيث هو ماهيـة ذاتية ، وانتهاء الى حيث هو ماهية خالقة تقول للشيء (كن) .. (فيكون) بلا فصم بين عالم الذات وعالم التكوين !!

ولان (الايمان المقاتل) ايمان حركى ومتصد وكلى .. فهـو يعطى ذاته لانسانه من خلال منطق نضالى يرفض ايمان المقلد او ايمان المقهور أو ايمان المتاجرة .. ليس لمجرد أن التقليد والقهر

والمتاجرة قضايا مرفوضة على مستوى الايمان فحسب .. وانما لأن هذه الظواهر الهابطة تعكس احتمال السكونية والهروب وتفتيت البناء الكلى فى خلد الشخصية الاسلامية التى استوعبت ايمانها عن هذا الطريق !! يصبح واحدا من نوعية هذه الانماط الهابطة من ينوع الفكر الاسلامى على لحن واحد مكرور وممضوغ لآلاف آلاف المرات •• أو من يقاتل فى الساحة الاسلامية بسلاح خرافى مفلول تجاوزته اندفاعات كل العصور .. أو من يحاول فى قضايا الاعتقاد أن يقدم مزيدا من التأويل الهروبى لمفاهيم ايمانه المقاتل الهاجم .. دائما فى عصور الانحطاط الحضارى يحتل التأويل مواقع التعقيل ، تصبح الخرافة واجهة الحياة فى الفكر وواجهة الفكر فى الحياة ، توشك الاشياء الدخيلة أن تغتال الاشياء الاصيلة ... وهذه هى محنة البذل الكادح المنوطة بكاهل الاقوياء المتصدين لحركة التصحيح والترجيح !!

ينهض (الايمان المقاتل) فى ساعة العسرة ليؤكد وشائج انسانه بعالم الفعل والحركة ، حتى فى عصور التهافت يجد (الايمان المقاتل) صيغته الحضارية التى يعطيها لجماهيره مضمونا وفلسفة واطارا .. ربما تكون هذه الصيغة ذات مسحة ثبوتية الى مدى ما .. ولكنها على أى من المستويات تشكل فى نهاية الامر عاصما للشخصية الفردانية والشخصية الجمعية من الذبول أو التحور او الانحلال .. وماتلبث هذه الصيغة الثبوتية فى اطار من واقع التطور الفاعل حتى تواكب مسيرة التقدم بوحى من امتلائها الذاتى بكل عناصر الحركة والاندفاع .. ان ثبوتها الطارىء لم يكن لعجز معوق نابع من قصورها الذاتى ، وانما كان بعض استجابة مرحليةلتيبس الاطار الزمانى والمكانى الذىفرضته عناصر الانحطاط الجمعى فى عصر من العصور •• ثم هى بعد ذلك قادرة على ايقاظ ذاتها ، وعلى دفع هذه الذات فى خضم الجدل الذى لاينتهى حتى بانتهاء الحياة !!

نخطيء اذن .. حين نتصور أن الايمان شجرة ظليلة نلقى أعباءنا تحتها وننام .. ان قدر العراك مع كل بلاد العالم هو خبزنا اليومى .. لايكون ايمان بلا فعل .. التواصل الكونى هو قضية الايمان المقاتل .. ليست دائرة واحدة وانما هى دوائر قابلة لنوعيات من الحركة والوثوب .. تبدأ الملحمة من مشارف الذات وتنتهى فى قلب الحقيقة .. الاطار هنا هو كل الزمن رفضا لبدائية التفتيت .. وراء كل شيء ، وأمام كل شيء ، وفى قلب كل شيء .. هذا هو محور الفقه الحقيقى لقضية ((الايمان المقاتل)) كتكوين من تكوينات الشخصية الاسلامية الفاعلة ؛ الواقفة فى قلب الحركة الكونية ذائدة عن مباهج الفكر ، مناضلة عن حدائق الروح ، مقاتلة عن حضارة الاعتقاد ، متعامدة مع الموت والحرية .. الى أن يغيب قمر الوجود !!

وبعد ...

ربما — فى نهاية الرحلة — نكون قد تأملنا بعض تكوينات الشخصية الاسلامية ، وربما نكون قد وقفنا على الاعراف بين الصواب والخطل .. وربما يكون حس المغامرة فى هذه الدراسة أغلب من حس التقعيد والتأصيل .. ولكننا أبدا لن نفقد قناعة أن صوتنا الخاص كان صوت هذه الكلمات .. وأن امكانية التصويب والترشيد متاحة بل ومنشودة ... وان ممالك الفعل الفكرى تزهر دائما تحت شمس الحرية ... وان رحلة الألف ميل .. تبدأ (كما يقولون) بخطوة واحدة !!

الدين هو الحل

من المشاكل الخطيرة فى تاريخ الفكر البشرى ، دوران هذا الفكر فى فراغ موحش رهيب ، وضلاله الاعمى فى رحلة البحث عن قرار ..

قديما .. وعلى سفوح اليونان وقممها السامقة . انطلق هذا الفكر البشرى باحثا عن قراره .. ناشدا الايمان بشىء يشده اليه .. فلا تبحر به الريح فى مهاوى الضياع .. ولكن هذه الرحلة ما أثمرت قرارا ، ولا أينعت شيئا يهب الامن والسلام .. كل الذى وهبته .. حشود من المعرفة العقلية الرائدة . التى قادت الاجيال فى طريق التطور العقلى الصاعد .

واذا كانت المعرفة العقلية تلوح معزولة الكيان عن المنطقة الروحية فى بدائه الناس .. فانها ــ فى الواقع ــ كانت الشرارة الاولى التى انبثق منها ضوء الصعود الخالد الى آفاق الروحانية العالية . وكانت كذلك ــ حتى فى طور ميلادها الاول ــ استشرافا ذكى الفهم لكل ماهو وراء المادة .. ولكل ماهو خلف تخوم الحياة ..

ذلك كان شأن الفكر اليونانى القديم .. كان يعتز بنفسه الى حد الغـرور .. ولكنـه كان مع ذلك يتطلع دائمـا الى أعلى من طاقاته وقدراته .. ولئن أخطأه التوفيق فلم يصح ـ ككل ـ هذا الأعلى طاقة وقدرة هو الله .. فانه مع ذلك كله كان نبضة الوعى الباكرة فى تاريخ المعرفة الروحية المؤسسة على عمد عقلية فارعة تهزأ بكل عاصف وتسخر من كل ريح ..

وحديثا .. وعلى ضوء كل ماجد فى حياتنا المعـاصرة من انتصارات علمية وحضارية شامخة .. مازالت للفـكر نزواته واندفاعاته .. واستطيع أن أقول . ان ضراوة الاغترار والزهو بكل ما هو عقلى .. ومادى .. وأرضى .. لم تبلغ فى أى طور ما بلغتـه اليـوم من ضراوة وقسـوة .. ان موجـات الالحـاد والشك .. لتفور فى كل منطقة من العالم اليوم .. حتى فى أعرق هذه المناطق ايغالا فى مراحـل الايمانيـات .. ربما لأن الزحف العلمى بكل فتوحاته .. وانطلاقاته . قد أعطى عن نفسه صورة القادر الذى لا يغلب . والقائد الذى لا ينهزم .. فى اللحظة التى يقف الدين فيها محتلا مواقعه الاولى .. منحسرا فى مجـالات كثيرة عن بعض هذه المواقع .. نتيجة النضوب الفكرى والايمانى الذى أصاب أبناءه بالشـلل ، فلم يعـودوا قادرين على حمله وتبليغه ، والتحليق به الى آفاق مضيئة أكثر حياة ، وأشـمل اندفاعا ..

وفى وهج هـذا الدوران الفـكرى الراعش المضطرب عاش الانسان فى الماضى ويعيش اليوم . أقسى ما يمكن ان يتصور من حيـاة .. انه يدور فى فراغ .. ويحس بأن وجـوده عبثى !! لحظة الميلاد عنده تساوى لحظة الموت ، والمسـاحات الزمنيـة القائمة بين البدء والختام ، ليست سوى مرحلة من العبث القاسى الذى لا جدوى من ورائه ..

خذ مثلا واحدا من مفكرى هذا العصر (ألبير كامى) .. واقرأ بحوثه وقصصه .. ومسرحياته .. انه ككاتب لامع مفكر سيبهرك من غير شك بثرائه الفنى الرائع الممتاز وبعمقه الساحر الاخاذ .. ولكنه فى النهاية سيسلمك الى احساس عاصف باليأس والعبثية واللاجدوى ... فى مسرحيته « سوء تفاهم » تصيح « مارتا » (هذه الدنيا ليست سوى مقبرة سنوضع فيها فى النهاية بالكوم متلاصقين) .. وفى موضع آخر تخاطب ماريا : « لكن قبل أن اذهب لأموت ... على ان أخلصك من وهم اعتقادك بأنك على صواب . وأن الحب ليس عبثا .. وان ماحدث لم يكن الا نتيجة الفوضى الشاملة . وهو منطقى معها » .

ان كل كتابات هذا المفكر الفنان . طافحة بهذه القتامة الداجية .. وهذه الهروبية الصفراء . وربما لا تجد لأكثر ابطاله من نهاية سوى الانتحار .. كنتيجة طبيعية ومنطقية لايمانهم بفوضى العدالة ... وعدالة الفوضى ..

(البير كامى) ... هنا ... ليس سوى رمز لعشرات ومئات من مفكرى العصر ، الذين فقدوا الايمان بشىء معين أعلا من الانسان ... واهدى من المادة .. ففقدوا بذلك صلابة الارض التى يقفون عليها ، ووضوح الرؤيا اللازم لكل من يشق طريقه فى الحياة .. ان ايمانهم كان بالعقل ... وبالعقل وحده .. حتى الهوه .. وليس فى استطاعة العقل البشرى . حتى فى قمة نضوجه واشراقه .. يحمل عبء الالوهية الخارق .. بكل ما يتطلبه هذا العبء من صفات وكمالات .. أجل . ليس فى استطاعة العقل البشرى أن يقدم الحل ، أو الحلول العاقلة لمعادلة الحياة الصعبة المتشابكة لأن العقل نفسه بعض من هذه المعادلة ... ولأنه يرتطم دائما بأسوار محدوديته فيقع على السفح عاجزا عن التحليق والطيران ..

وهنا يبرز الدين كحل .. وكحل الهى شامل وعميق .. ليقدم لمعادلة الحياة تفسيرها المنطقى الذى لا يتهرأ فى حومة الصراع ودورانه المفزع ..

الدين كحل .. يبدأ من منطلق الايمان بالأعلى لينتهى الى الايمان بالشجرة الفارعة المثمرة .. المتهدلة الأغصان والثمار .. ساذجة .. مثلا من الايمان بالثمرة الى الايمان بالشجرة قائلا لك ان الأثر يدل على المؤثر كما يقولون .. ولكنه يبدأ من منطلق الايمان بالشجرة الفارعة المثمرة .. المتهدلة الأغصان والثمار .. قائلا لك : لو لم تكن الشجرة موجودة أكانت توجد هذه الثمار ؟؟

ومن هذا نستطيع نحن أن نفهم لماذا كانت الصيحة الأولى لنبى عظيم « كمحمد صلى الله عليه وسلم » هى : « لا اله الا الله » .. انه يبدأ القضية من أساسها .. ثم يمشى بك فى دروبها دربا فدربا .. حتى يقفك فى النهاية أمام بناء ايمانى شامل متكامل بكل أبعاده واعماقه .

انت فى قضية الايمان مطالب بشىء من التجاوز .. تجاوز الذات وتجاوز المنطق العقلى .. فالذات الضامرة الكليلة يجب أن تؤمن بأنها دون مستوى الندية للقوى الكبرى الخالقة .. فليس اذن فى استطاعتها استيعاب حقيقتها .. ومن واجبها أن تذعن لهذه القوى المبدعة وان تسلم لها بالحكمة .. والعظمة .. والابداع ...

التلميذ البادىء دون مستوى الندية لأستاذه ، فليس من حقه أن يشك فى معطيات هذا الأستاذ . الا اذا بلغ شأوه العلمى . ان من حق التلميذ فقط أن يسأل ، وأن يطلب المزيد من الفهم . ولكن ليس من حقه أبدا أن يقول لأستاذه أصبت هنا .. أو

اخطأت هناك الا اذا كان قادرا على التفوق على أستاذه .. فاذا كان ذلك كذلك فى اطار العلاقة بين الأستاذ وتلميذه الذى قد يبلغ شأوه العلمى يوما ما .. فان العلاقة بين الانسان وخالقه يجب أن تحددها دائما علاقة العجز والقدرة .. أو علاقة النقص والكمال .. لأنه ليس فى طاقة الانسان أن يلحق شأو خالقه .. لأن شأو الخالق ليس مدى طفرة أو طفرات .. وانما هو اللانهائية الضخمة ، بكل ما تنطوى عليه اللانهائيات من قدرات وأسرار ..

الايمان اذن عملية ترسيخ لوضعية الانسان على هذه الارض ، بدلا من تركه مذبذبا هكذا فى مهب الرياح .. وليست عملية الترسيخ هذه شدا الى صخرة بكماء . وانما هى اعطاء الانسان كل مشاعل النور ، ليبصر على ضوئها الغاية من وجوده . والهدف من حياته .. ومتى تعلقت آمال الانسان بغاية ينشدها ، أو هدف يرنو اليه . فان وجوده حينذاك يكتسب خصوبة ومعنى ، ويصبح من غير شك وجودا هادفا وعميقا .. وليس مجرد عبث أو فوضى أو حياة بلا جدوى ..

واذا كانت بعض الفلسفات المادية تعطى الانسان فى حياته غاية أو هدفا .. فان الدين يسبقها الى ذلك .. متخطيا تخوم الحياة الى تخوم الآخرة . عاقدا بين غاية الانسان هنا وغايته هناك . أوثق الوشائج . وأعمق الصلات .. بينما تظل جهود الفلسفات المادية حبيسة اللحظة المعاشة لا تتخطاها الى غيرها من حياة ...

وهنا تبرز ضخامة الدور الذى ينهض به الدين ، معدلا كل منطق هذه الفلسفات .. فان الانسانية لكى تحقق وجودها الأفضل لابد ان تتخطى الى حد ما .. بعض غاياتها الحياتية .. فاذا آمنت بأن وراء هذه الغايات الحياتية غايات أخرى وراء

الحياة . اقدمت على التضحية بكل ما فى وسعها من ايمان ..
اما اذا لم تكن مؤمنة بسوى الغائيات الدنيا .. فانها قد ترتطم حتى بآمالها فى الدنيا ، محطمة ومحطمة .. وهنا قصور المادیات ..

الدين كحل .. يهب الايمان الواثق المتكامل .. ويعطى الهدف من الوجود للوجود .. ويحفز على التجاوز الواثب المتفتح .. ويفض المغاليق لنرى ابعد من حدود الرؤيا . وهو وحده الذى يمكن أن يكون حياته الحياة .. ونبض التطلع الانسانى الى الأسمى دائما .. والأشمل دائما .. والأخلد دائما .. وتلك هى رسالته ! !

التطور منطق لا خرافة

يبدو ان الخوض فى مثل هذا الصـــدد ليس دائمـا على مســـتوى السهولة المتخيلة التى تفترض امكانية السبح في كل البحار .. **اولا** لأن التطـور ـ موضـوعيا ـ **يحمـل فى داخله** مخـاطره التى لا تنتهى بمـا هو تجـاوز حتمى لبعض انمـاط التقاليد .. والمضامين .. **وثانيا** .. لأن كل المتلقين ليسوا على مستوى واحد فى محاولة الاستيعاب والتمثل .. فبعضهم صامد لا يهتز .. والبعض لا يعـدو ان يكون ريشـــة فى الرياح .. **وثالثا** ـ وهذا هو الأخطـــر ـ لأن للتطور ـ دائمـــا ـ منطقـا لا يهزم .. وبريقا يمهـد له الارض .. ويعبـد أمامه مجـالى الانطلاق ..

والذين يرفضون التطور هم وحـدهم الذين يرفضـون المعاصرة .. لان التطور منطق الحياة .. بينما يشكل الجمـود منطق الموت .. أو على الاقل منطق العجز عن مواكبة الحياة ..

ان كل الكشـوف العلمية التى نحيـا اطاراتها ومحتواها اليوم .. ليست شيئا آخر سوى افراز طبيعى لحركة التطور ..

ولو ان الانسان تحت وطأة الجمود ـ رفض ان يطور ذاته وآداته .. لأمكن أننا كنا نعيش اليوم فى مغاور الجبال وكهوفها اليابسة .. نستضىء بالنار .. ونعدو وراء حيوان برى .. ونتبادل الاشارات الخرساء بدلا من هذه الكلمات التى فتحت لنا فى الكون مناجم غير ناضبة الكنوز ..

التطور اذن منطق الحياة .. وطبيعة الأشياء .. ولكنه منطق محكوم بالحدود والاقيسة .. وليس انعتاقا جامحا متمردا على كل القيود والضمانات .. فليس يوجد على الأرض ما يمكن ان يسمى مطلقا .. ان المطلق ليس امكانية البشر .. ولكنه امكانية القوى الخالقة المنبثق عن شعاعها الخالد هذا الوجود الذى نحياه .. ان الحق مقيد كما أن الباطل مقيد .. ومجرد ان يوجد حق وباطل .. حرية وعبودية .. جمال وقبح .. يحتم أن يكون كل مقابل حدا لمقابله يعيقه عن أن يكون « مطلقا » بلا حدود .. ان الجمال حد للقبح .. كما أن القبح حد للجمال .. ومجرد وجود أحدهما .. يحدد بالضرورة وجود احدهما الآخر فى نفس اللحظة وفى نفس المجال ..

وابدا .. لاتشكل هذه الظاهرة مصادرة من نوع ما للون من الوان الوجود الموضوعى للقيم والاشياء .. فان هذا الجدل بين الأشباه والأضداد .. هو وحده القادر على أن يجعل لوجودها معنى .. ولحركة اندفاعها فعلا أثرى .. وأخصب .. على كل المستويات ..

ان خلافاتنا الحادة يجب أن تسلط ليس على قضية التطور .. يكون أو لا يكون .. وانما على نوعية « التطور » مرشد هو أو مضلل ؟ محرر او مدمر ؟ .

وحين نسلم للتطور بحتمية تحققه فى وجودنا الحياتى .. شكلا ومحتوى .. يجب ان نعطى انفسنا حق القبول والرفض.. حتى لا نستحيل الى مجرد كوننا محكومين بحركة التلقى وليس بحركة الانتخاب .. وهذا وحده .. هو الضمان الأكيد الذى نرفع به أيدينا فى وجه الطوفان .. فان تطورا ملائما لطبيعة جيل من الناس .. ولطبيعة جيل من التقاليد .. لا يمكن ان يكون بالضرورة هو نفس التطور الملائم لجيل آخر من التقاليد والناس .. والتطور حين يستحيل الى قسر .. أو الى ضربة لازب كما يقولون .. دون اعطاء البشر حق القبول والرفض .. يصبح جلدا قاسيا عن جريمة لا نعرفها .. وسرقة لوميض أعين نحتاج الى وميضها فى رحلة الظلام ! !

ففى الأدب .. كما فى الاجتماع .. يجب أن يكون تطورنا نابعا من هنا .. لا من هناك .. لان التطور المنطلق من أصالة ذاتية متفتحة .. على مستوى الفرد والمجموع .. يفضى دائما الى مزيد من الاصالة .. والذاتية .. والتفتح .. ولكنه حين ينطلق من ذوبان هش .. وفتون بعبقرية الآخرين .. لا يفضى دائما الا الى هشاشة الاجنحة .. وقتل منازع العبقرية الذاتية .. وهوان التراث القومى فى معترك التراث .

ولو أن عاصما من الفهم واكب حركة التطور .. لما أمكن ان نجلد ظهر حاضرنا وماضينا .. فقد يكون حاضرنا قاطرة أخيرة فى قافلة التطور الذى نعايش نبضه الآن .. ولكن ذلك لا يمكن أن يكون مقدمة لنتيجة غاشمة تؤكد أن حاضرنا انعكاس لماضينا .. وان هشاشة هذا الحاضر صدى صيحة الهشاشة فى ماض لنا بعيد .. ان ذلك لو صح .. لكان من الطبيعى لأوربا اليوم .. أن تكون فى آخر القافلة .. فقد كانت عبر قرون طويلة تضرب فى أعماق الظلام .. منخوبة القلب والعقل .. ضائعة

الملامح والقسمات .. بينما كان العالم الاسلامى مصدر اشعاع خطير .. يبدع حضارته .. ويتلقى حضارات .. ويضيف الى هذه من ثراء ذاتى لايهزم ولا يشيخ .. وليست هذه صيحة يأس اخيرة يلقى بها الغرقى فى خضم التخلف .. كما انها ليست تجديف واهم يردد شعارات صاغها متحمسون من قومه كرد فعل طبيعى لاحساسهم الغارم بهزائم الفكر وهزائم الروح .. فان التاريخ الحقيقى للعصور هو الذى يؤكد هذه الحقيقة .. وليس هتافنا المتشنج دفاعا عن وجودنا المهاجم فى الصميم ! !

ان روح « الانتخاب » و « الانتقاء » فينا يجب الا يخدرها شىء عن مراقبة حركة التطور .. لأن نهوضنا الواثق يجب أن يكون منبعثا من داخلنا .. فالقوانين .. وانماط الحياة .. واستلهام الوحى فى كل الابداع .. يجب أن يكون ملائما للذات المحكومة به .. او المبدعة له .. ولن يكون كذلك الا اذا كان شعاعا بازغا منها .. وصوتا صادرا عنها .. حتى لا تحس بكيانها الشاهق يتمزق خلجة خلجة .. ونبضة نبضة .. وهذا لا يعنى على الاطلاق أن نقف من كل الثقافات والحضارات موقفا رفضيا .. فان ذلك يعنى اننا نتكلس ، اننا نريد لكل النوافذ أن تظل مفتوحة .. ولكل الشموع أن تبقى مضاءة .. ولكل الازهار أن تعانق فى كل فجر قدر التفتح والنضوج .. ولكننا نرفض حتى الموت .. أن تفتح كل النوافذ غير نافذة واحدة .. هى تلك التى نطل منها على ماضينا .. وتراثنا .. وعبقرية الابداع فى كياننا الحضارى .. ان نوعا من التفتح الايجابى هو ما نريد .. فلنتمثل كل الثقافات .. ولنعانق كل المفاهيم .. ولنفرز من خلال ذاتنا المبدعة ما يلائم طبيعة أرضنا العربية .. وانسانها المؤمن بتراثه الغنى .. الرافض اساسا أن يغنى من

خلال حناجر الآخرين ... وان يغلق نفسه على نفسه كذلك ... في عملية انكماش جبانة بكماء ! !

على المستوى الشعرى ــ مثلا ــ نلاحظ ان شعرنا العربي المعاصر وخاصة « الشعر الحر » منه .. طافح بالعبث .. والمرارة .. واللاجدوى ... والاغتراب ... وهذه كلها افرازات عصرية نعم .. ولكنها قائمة أساسا على احتراق الصلة بين المثال والواقع من جهة ... وعلى عبودية الانسان للتطور الآلي الخطير من جهة ثانية ... مما يفيض على الواقع الابداعي احساسا عارما بالقلق ... واحساسا عارما آخر بتفاهة الانسان امام الآلة القافزة الخطيرة .. أن ذلك قد يكون منطق الأشياء في مناطق ليست لها تقاليدنا التراثية .. أو لها تقاليدها القابعة في زوايا الشعارات والمثل غير المهيئة من أول الطريق لمعانقة الواقع الجائش بآلاف الصراعات ...

ان التطور هنا قد زيف الى حد بعيد .. فليس رشادا ولا قريبا من الرشاد أن أصيح كما يصيح الآخرون ... دون أن تكون لهذه الصيحة خلفية ايمانية بشيء ما .. سوى أن البس اقنعة كل المهرجين .. ان التطور منطق لا خرافة ... حركة عاقلة .. وليس قفزة رعناء .. بصر بالارقى والأجمل .. وليس انحناء على نهر الدموع ... ان لنا أحزاننا الخاصة .. وهمومنا الخاصة .. فلنتحرك من داخلها حركتنا الذاتية ... مضيئة كانت أو غائمة .. رائعة أو فاجعة .. فقط على أن تكون حركتنا نحن ...

ان شعراءنا يفتحون أرضا جديدة ... نعم .. مضيفين الى قممنا الشعرية .. أبي العلاء . والمتنبي . وشوقي ... وغيرهم . ولكن هذا لا يمكن أن يعطيهم براءة الجموح .. فانهم مطالبون

على مســـتوى الفكر .. ان يتمثلوا تراثنـــا كله : العقائدى والشعرى .. وأن يتحركوا من خـلاله دائمـا .. وان يقيموا معاصرتهم ليس على أساس اجترار مضمونى لهذا التراث .. وانما على اساس تطوير فاهم له .. تطوير يهدف بالضرورة الى ان يكون حرصنا عليه .. حرصنا على وجودنا فى الوجود ! !

ويوم ينهض هذا الفهم لمعنى المعاصرة فى أدمغة شعرائنـــا ومفكرينا على السواء .. فان شلالا من الابداع الحقيقى والمضىء سوف يتدفق فى صحراء حياتنا المجدبة .. رائعـا كالافق .. متهللا كالفجـر .. ناشرا جناحيـه كنسر اسـطورى على كل الأبعاد .. مهما كانت غثاثة الواقع الحضارى العربى المعاصر الذى نحياه !!

عن (التجربة) ·· بين الخلط والتحديد !!

ليس عن التجربة الفنية يدور هذا الحوار ، بمعنى ان محور هذه الكلمات لن يكون تجربة الشاعر فى معاناته الفنية حين يتصدى للعمل فى مجال الشعر ·· ولن يكون كذلك تجربة الفنان التشكيلى فى رحلة بحثه الدائب فى عالم السطوح والألوان !!

وليس عن التجربة العاطفية أتصدى للحديث الآن ، بمعنى اننى لن أتصدى فى هذه الكلمات لتاريخ (العاطفة) أو لتاريخ أبطالها الذين ملأوا جوانب الأرض عشقا وحكايا حول هذا العشق على مستوى العذرية الخالصة ، أو البوهيمية المنفلتة !!

ان التجربة التى أعنى هنا ، هى (التجربة الدينية) ربما على وجه التقريب !! ان صعوبة فادحة تواجه المصطلح المحدد لنوع التجربة التى أعنيها هنا ، ربما لأن اطارها العام قابل بالضرورة لاحتواء كل العناصر والمفردات الحياتية المختلطة والمتمايزة ، بما هو اطار شمولى تنحنى أبعاده على كل المستقيمات فى حياة البشر وكل المنحنيات ، وأعنى بهذا الاطار الشمولى (الدين) !!

التجربة التي أعنيها اذن هي تجربة الانســـان على طريق الصواب والخطأ ، أو قل على طريق الخير والشر ، ما هي ؟ وما ملامح أبعادها الكونية !!

وقد تلوح القضية للفارغين ساذجة بلا قرار ، وربما لإن حياتنا الفكرية غاصة في هذه المرحلة بملايين المسلمات ، ولكن هذه القضية تشكل ـ فيما أزعم ـ نصف خريطة الفكر الديني بلا محاولة للتزيد أو طرح للشعارات !! انها قضية تجريم وبراءة ، فاذا لم نحسن فهمها على وجها الحقيقي ، فانه من الممكن في هذه اللحظة ان نضرب وجه البريء بدينونة التجريم ، وان نضـع أكليل البراءة تاجا على رأس الجارم الحقيقي • أو قل ان أقل ما يمكن ان يصيبنا في هذه اللحظة نوع من الدوار الفكري الذي لا ندري معه من الجارم ومن البريء ، وتضيع من أيدينا كل الخيوط !!

ان مواجهة مثل هذه القضايا بمثل هذا النوع من المسلمات القانعة غير المرتكزة في حركة يقينها على غير العادة والبلادة ، يمكن ان يسحب من تحت أقدامنا كل صـــلابة الأرض ، ويتركنا هكذا راقصين رقصة الموت في فراغ الفراغ !!

أن المسلمة ينبغي ان تولد من حجـم المعاناة • بمعنى انني لا أستطيع ان استقر على فهم ما دون معاناة هذا الفهم ، ان الفهم الذي يقدمه لي الآخرون ينبغي ان لا يكون سوى فهم مساعد لمعاناتي الخاصـــة والصميمة على طريق الفهـم ، ولا فلست ســوى صدى صوت ضائع في آحراش الظلام !!

ولا أدري متى ــ على خريطة فكرنا الديني ــ نرفض ان نتناول وجبة الخبز المضوغ ، أملا في وجبـــة خبز من ابداعنا نحن يكون دائم البكارة ؟؟ ان مواجهة الأشياء بمزيد من المسلمات يحبط قضية الفكر وقضية الدين على السواء ، لأن الفكر الديني أساسا نزوع

بلا انتهاء الى استكناه هذا العالم المتراحب ، وتخط بلا حدود لأسوار هذا الكون الى ماوراءه من أكوان ، فاذا أحلنا هذه القضية الصميمة. نحن الى قناعات باردة ، فان وشـم الغباوة الكونيـة لن يفارق وجوهنا حتى لحظة اسدال الستار !!

ولنبدأ معا في مواجهة القضية التى نحاول ان نتعرف على ملامحها الآن بعيدا عن الفهم المغلوط لحقائقها الأساسية .. يقولون: ان الانسان خطاء بطبيعته ، ولأنه هكذا خطأ بطبيعته فقد فتح له الدين كل أبواب الأوبة التائبة ، مضاعفا له الاجر ، مبدلا سيئاته حسنات ، محلقا به فوق مستوى الانسان الآخـر الذى لم يقارف الخطأ ، ولم يدخل بحار (التجربة) الفادحة !! هكذا يقولون !!

القضية اذن ذات شقين .. انسان يسمى انسـان التجربة لأنه عائد من رحلة وقوعه في وهدة الخطأ .. وانسان بلا تجربة وبلا وقوع في وهدة الخطأ على نحو من الانحاء .. أيهما أروع ، وأهدى ، وأقمن بمعارج الخلود ؟؟

وبدءا ، لا نريد ان نحارب جيوش (المسلمات) بمسلمة أخرى من أى لون ، أعنى اننى لا أريد ان أوافق هنا على ان الانسان الخطاء هو وحده صاحب (التجربة) . بينما يظل نقيضه المتأبى على الوقوع انسانا عاريا من (التجربة) .. لا أريد ان أوافق على هذه المسلمة الساذجة ، لأنى هكذا أفهم هذه المعادلة : ان الانسان العائد من رحلة الخطأ انسان دخل (تجربته) أجل !! ولكن نقيضه ــ الانســان المتأبى على حركة الوقوع في وهدة الخطأ ــ دخل (تجربته) كذلك !! ان تجربة الانسان الخطاء يمكن ان تفهم على مستوى السلب بما هو مستسلم منذ البدء لهواتف الطبيعة المركوزة فيه اذا شئنا ان نقول .. ولكن تجربة نقيضه المتأبى على الخطأ يمكن ان تفهم على مستوى الايجاب بما هو مستعصم بأخلاقيـات مقاتلة تأبت منذ البدء على حركة النزول !!

أريد أن أقول : ان طاقة (الوعى) هى ما يفرق بين نوعية كل من النمطين ، ان نمط الانسان المخدر الوعي ، المستجيب لهواتف الطبيعة ، العاجز عن موقف الصمود ، ان هذا النمط هو صاحب (التجربة) الانكفائية .. بينما يلوح النمط الآخر المستعصم انسانا قابضا على وعيه ، متأبيا على جواذب الهبوط ، شاهرا سلاحه فى وجه خيانة كينونته كانسان !!

هكذا أفهم هذه المعادلة ، وهكذا ينبغي ان تفهم كل معادلات الفكر والدين ، ان تعبئة شبه خرافية قد أفلحت فى اقتلاع فهمنا الصوابى للاشياء ، وأعطتنا مدادها الأسود نلعب به لعبة الكتابة والقراءة غير جادين فى شيء على امتداد خريطتنا الجغرافية والانسانية ، كأننا بعض الدمى على مسرح الكون ، ولسنا آحادا من شخوصه الحقيقيين !!

أن يخطىء الانسان .. هذا معناه انه فى مرحلة من مراحل حلوله الانسانى قد نسى معنى خلافته على الأرض .. وان يصعد بالجهاد الذاتى والمعاناة القاسية من وهدة الخطأ الى مشارف الصواب .. هذا معناه أنه عاد يتلمس طريقه الى معنى خلافته على الأرض ..

ولكن .. أن يتأبى الانسان منذ البداية (فى حدود طاقته كانسان) على التجاوب المتهافت مع منطق الخطأ ، رافضا ان يستسلم وان ينهار ، معانيا فى ذلك صراعه البطولى مع هواتف الطبيعة وجواذب الذات .. هذا معناه انه من لحظة حلوله الانساني قد استوعب معنى خلافته على الأرض ، وأنه أخذ يقاتل قتالا مصيريا على جبهتين فى وقت معا .. فهو يقاتل القوى الذاتية المتدلية أو التى تريد ان تتدلى الى الوهدة ، وهو يقاتل القوى الغيرية التى تشكل

بطبيعة وجودها عنصر الهجوم على وضعيته كانسان عقائدى يرفض ان يخلد الى الدعة فى زحمة الجدل أو فى زحمة الصراع !!

ان (التجربة) كمصطلح يراد به الأعلى والأكمل ، ينبغى ان لا تضاف الى رصيد الخطاء المستسلم القانع برحلة الهبوط وحده ·· وانما ينبغى ان تضاف الى رصيد المستعصم المتأبى كذلك ، أو هى ينبغى ان تضاف الى رصيده أولا وقبل غيره من الأغيار !!

لابد من التحديق اذن فى مفهوم هذا المصطلح (التجربة) ·· ان التجربة قد تكون تجربة الخطأ لا أصادر هذه المقولة ·· وقد تكون تجـربة التأبى على الخطأ فلماذا يصـادرون هذه المقولة ؟!؟ لقد أومأ محمد العظيم الى هذه القضية حين صاح صيحته الرائعة : (يأتى على أمتى زمان يكون القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر) !! ان القابض على دينه هنا هو انسان (تجربة التأبى) وليس انسان (تجربة الانكفاء) · لأنه (قابض) ليس على زهرة فى عروة قميصه ، وانمـا هو قابض على (الجمر) ولعـل كلمة (قابض) هنا وليس مجرد (ملامس) مثلا ·· تعطى (للتجربة) أبعادها المأساوية الرائعة الصمود !!

ان القابض على دينه هنا هو القابض على سـلاح المقاومة ، وهو القابض على (لا) فى مواجهة كل المغريات !! وليس نقيضه صاحب تجربة الانكفاء سوى قابض الا على خوره الذاتى والكونى ، وعلى (نعم) فى مواجهة كل العدوانات على كل المستويات !!

ونوشك ان نطل على هذا الأفق الصامد فى مواجهة التحلل من خلال هذه الومضـة القرآنيـة كذلك : « لقـد خلقنا الانسان فى كبد » ! ان هذا « الكبد » ليس شيئا آخر غير المعاناة الكونية المخيفة التى تيطت منذ البدء بواحد هذا الكون الرائـع الذى هو

الانســـان ، وليست هذه المعاناة الكونيـــة كذلك شيئا آخــر سوى ما نطلق عليه نحن مصطلح : (التجربة) !! قد يقال : ان هذه المقولة القرآنية تعطى منطق التعاطف مع انســـان التجربة المنكفئة وليس منطق التعاطف مع انسان التجربة المتأبية ، ولكنى لا أستطيع أن أستوعب منطق التعاطف مع فهم القضية على هـــذا النحو ·· لأن السياق القرآنى لا يحبس مدلولها فى هذا الجانب دون هذا الجانب : من جهة بما هو صادر عن منطق الخير وقاعدته جميعا ·· ومن جهة أخرى لأن تجربة الانكفاء ينبغى أن تكون أو هى بالضرورة ـ شذوذ القاعدة وليست القاعدة فى الطبيعة وفى الانسان وفى الفكر !! ·· « لقد خلقنا الانسان فى كبد » تعنى : فى كبد الرفض الأبيض وليس فى كبد التهافت الاستجابى ، هذا ما أفهمه من طبيعة منطق الآيـة ، النـابعة من طبيعة المنطق القرآنى ، اذا تجوزنا فى التعبير عن طبيعة الوحى القرآنى بهذه الكلمات !!

(التجربة) التى أعنيها اذن هنا هى التجربة السلوكية من الوجهة الدينية بالمعنى الذى حاولت ان أحدد تخومه !!

ان تجربة الخطأ بعض ملامح المســيرة الانسانيــة أجل ·· ولكنها لا يمكن ان تكون كل خارطة المسيرة الانسانية !!

ان تجربة الخطأ والانكفاء معــاناة وجـودية يحمــل مأســاة خوضــها الانسان لا أنفى ذلك ·· ولكن تجــربة التأبى والصمود معاناة وجودية أعمق وأروع يخوضـــها انسان آخر ·· لا أحب ان ننفى ذلك كذلك !!

ان الخلط تشويه للحقائق والمفاهيم ، بينما ينهض التحديد أملا صميما يجب أن نهرع الى احتوائه ومعاناته حتى نطل على أفق التطور الحضارى الذى أبدعنا يوما ملامح وجهـــه الفاتن ، ويوما عانقنا نجومه البيضاء ٠٠ ان فى قدرتنا ان نحيل الأمل الى عمل ٠٠ والحلم الى حقيقة ، والغد الى مساحة لحلول فعلنا البطولى الكبير ٠٠ فى يدنا دائما ٠٠ أن نجاوز اللامنطق الى المنطق ، والفهم المغلوط الى الفهم الصوابى ، والخرافة الكبرى الى الحقيقة الكبرى !!

فلسفة الاحساس الجمعى .. من الوجهة الاسلامية

\- ١ -

الاحساس الجمعى جانب من أروع جوانب فلسفة النظرة الاسلامية الهادفة الى بناء حضارة الانسان من خلال الانسان ذاته وليس من خلال استلابه واقتلاعه ، بمعنى ان مفردات هذه الحضارة لا تشكلها نزعة فردية أنانية تصيب مناطق الذات بتضخم فادح لا يصيخ الى الآخرين .. ولا تشكلها كذلك نزعة جبرية ساحقة تحيل مفردات الظاهرة الانسانية الى مجرد معابر آلية بكماء .. ان فلسفة النظرة الاسلامية تتكىء فيما تتكىء عليه من عناصر البناء الحضارى على (الاحساس الجمعى) الذى يتيح للذات ان تمارس حقها الطبيعى فى الحلول على الأرض والتاريخ ، وللجماعة ان تمارس حقها الطبيعى فى تشكيل ملامح الدولة بكل ما ينحنى عليه مصطلح الدولة من ضوابط ومناهج وشروط !!

- ٢ -

ومصطلح (الاحساس الجمعى) لا يعنى تجـــاوز الفرد الى الجمع ، لأن الفرد هو التكوين الأول الذى تلتصق به تكوينات فردية أخرى لتشكل مفهوم الجماعة ، فنحن لا نستطيع حتى تصــــور ان يوجد الكل فى غياب الواحد ، الواحد دائما هو الخلية الأولية التى باندماجها فى عديد من الخلايا الأولية الاخرى يكون الشكل النهائى، ولكننا يجب هنا ان نلاحظ انه بلا شكل نهائى كذلك تبقى الخلية فرضية قائمة على حافة العجز غير قادرة على التحقق الوجودى ، وهكذا تبدو لوازب الضرورة فى عنـاق الفرد بالجمع ، والواحـــد بالكل ، والخلية بالشكل النهائى ٠٠ ان الاحساس الجمعى لا ينبثق هكذا من الفراغ ، انه نبض التعاطف فى وجدان المفردة الوجودية التى هى الانسان ، وهو لا يتوجه كذلك الى الفراغ ، انه متوجه أساسا الى الآخرين الذين يشكلون فى النهاية ظاهرة الجمـــاعة أو الدولة أو الأمة ، وبهذا التواصل الحتمى بين ما هو واحد وما هو جمع تسترد الظاهرة الانسانيـــة ملامحها الحقيقية ، وتعيش فى التاريخ فوق امكانية الذبول والانحناء !!

- ٣ -

وبديهى ان هذا الاحساس الجمعى لو التصق بالذات المحسة ولم يتجاوزها الى الآخرين لبقى حركة دائرية مغلقة لا تفضى الى شىء حقيقى ٠٠ لابد اذن من تجاوز الاحساس الجمعى مناطق الانفعال الساذج الى مناطق الفعل الحياتى ، بمعنى ان الفرد الذى تخضر فى قلبه زهور هذا الاحساس الجمعى النبيل ينبغى ان ينقله الى مجال التحقق الوجودى تعاطفا فى الخير والشر ، وتناصرا فى الســـلم والحرب ، وتضامنا فى السراء والضراء ٠٠ وبديهى كذلك ان هذا الاحساس الجمعى النبيل لو حوصر فى القمة ، أى فى الجماعة ،

ولم يتنزل على الآحاد ، لبقي حركة فوضى جماعية ان أرضت غرورها المظهرى فهى عاجزة عن ارضاء طبيعة الاجتماع الانسانى ، لابد اذن من تجاوز الاحساس الجمعى مناطق النظرية الفلسفية الى مناطق المعاناة الانسانية ، بمعنى أن الجماعة التى تمتلك طاقة الاحساس الجمعى النبيل ينبغى ان تنقله الى مجال التحقق الوجودى ، ايمانا بانسانية الانسان ، ونشدانا لتخفيف عذاباته وكدحه ، ووصولا به الى المستوى اللائق الذى يؤهل ملكاته الايمانية الأخرى للانطلاق والتحقق وممارسة دورها الفكرى والايمانى والوجودى جميعا بلا تفريق !!

- ٤ -

والاحساس الجمعى لا ينبع من الذات بما هى ذات موجودة فحسب ، فكم من ذوات انسانية تعيش على الأرض وهى عارية تماما من مجرد الاحساس بالتواصل الوجدانى ، قد تدفعها الضرورة الى عمل جماعى ، وقد يحركها العدوان الى حرب جماعية ، وقد يحفزها حافز الى الخروج فى اجماع كبير لاعلان رأى أو المطالبة بقضية ، ولكنك بقليل من الغوص فيما وراء السطوح تستطيع ان ترى فى هذا المحيط الجماعى مجرد جزر انسانية منفصل بعضها عن بعض ، ان الضرورة هى المحرك الذى دفع بها الى العمل ، ان عوامل الخوف والأمن هى التى حركتها فى اتجاه التوحد ، ان القضايا الذاتية هى التى حفزتها الى الوقوف هكذا فى جبهة توحى بتوحد الداخل وهى من هذا التوحد الداخلى على مسافات ... مجرد جزر انسانية منفصل بعضها عن بعض ، هذه هى الحقيقة الفادحة التى تؤكد ان الاحساس الجمعى لا ينبع من الذات بما هى ذات موجودة ، ولكن بما هى ذات تستقطبها قيم معينة ، قيم لا تتسم بأنانية المنطق ، وأيضا لا تتسم بجبرية المنطق .. قيم غير قابلة للاصطدام بحقائق الكون لأنها تعبير حقيقى عن حقائق هذا الكون .. قيم تعرف

ان الانسان ليس وحده على الأرض ، ولايمكن له ان يكون وحده على الأرض ، بدءا من الاحساس بالدائرة الضيقة التى هى الذات ٠٠ الى الدائرة الواسعة التي هى الكون ، الى الدائرة الأوسع التى هى ما وراء الذات والكون من قوة خالقة للكون والذات !!

- ٥ -

والاحساس الجمعى يمر فى مراحل تطور وتحور دائمين ، ليس بمعنى اقتلاع ذاته من أصل الى أصل ، وانما بمعنى رحيله من وضعية حضارية الى وضعية حضارية أخرى ، ان الاحساس الجمعى الذى تؤلفه الضرورة أو الخوف أو الغاية ، ليس هو بعينه الاحساس الجمعى الذى تولده الطبيعة أو الايمان أو وحدة النبض العقائدى ٠٠ ان الأول يبدو صادرا عن موضوعية مطلقة غير مختلطة بعواطف الذات ، بحيث اذا أمكن لهذه الذات أن تحصل على قضيتها من غير هذا الطريق لأسرعت الى التخلى عن هذه الوجهة الاولى ٠٠ ولكن الثانى يبدو صادراً عن ذات تعرف حقيقة موضوعها دائما ، بحيث لا يمكن ان توجد مساحة محترقة بين قضية الذات وقضية الموضوع ، فهو متحرك من أجله ومن أجل الآخرين على السواء ، وهو غير قابل بالضرورة للتخلى عن هذه الوجهة ولو كان الى غايته المنشودة ألف ألف طريق !!

- ٦ -

وفى سبيل دعم كيانه الوجودى الذى تحدده عناصر الحركة والحياة ، يرفع الاحساس الجمعى راية القبول وراية الرفض معا ، أعنى انه قد يعبر عن مقولاته بطريق الايجاب والاحتواء والتعاطف ، وقد يعبر عن مقولاته بطريق السلب والطرح ورفض التعاطف ٠٠ الاحساس الجمعى ربما يتوهج فى المشاركة الوجدانية ، والمحاورة العقلية ، والتناغم الروحى اذا هو صادف ارضية مشتركة يمكن أن

تتلاقى على جنباتها عناصر تجاوب صميمي يجمع الأطراف ·· وربما يتوهج كذلك فى رفض هذه المشاركات والمحاورات والتناغمات اذا كانت تعبر عن عقائدية مختلفة أو وضعية نقيضـة ·· ولكنه هنا لا يرفض وهو معصوب العينين ، انه يؤسس رفضـه الجازم على مقدمات من الوعى بكل أبعاد القضية المرفوضة ، وعلى مقدمات اخرى من الوعى بتبعة الرفض على مسـتوى الذات وعلى مسـتوى الأغيار ·· حتى فى التاريخ الحضارى يمكن للاحساس الجمعى ان ينتخب من ركامه وان ينحى ، لايهم هنا ان يكون هذا التاريخ من نوعيـة عقائدية مشتركة ، ان قبـول الكشف العلمى النابت فى تاريخ ما لا يحتم أن يكون هذا التاريخ من نوعية عقائدية صديقة·· وكذلك يمكن ان يكون الرفض موجها الى بعض مناطق التاريـخ المشترك ·· ان رفض التخلف والجهل فى تاريـخ ما لا يحتم انه يكون هذا التاريخ من نوعيـة عقائدية نقيضة ·· وهكذا يتوجه الاحساس الجمعى بالقبول والرفض الى كل المناخات ، فيعانق منها ما يتوائم مع ايقاع الحركة الراشدة ، ويطرح منها ما يتناقض مع هذا الايقاع المتحرك الراشد بلا حدود !!

- ٧ -

هذه بعض جوانب فلسفة النظرة (الفكرية) الى قضـية الاحسـاس الجمعى ، وهى من غـير شـك بعض جـوانب النظرة (الاسلامية) التى تطرح من قضاياها الذاتية ما يتيح للنظرية ان تتكامل !! فما هى أبعاد جوانب فلسفة (النظرة الاسلامية) الى هذه القضية ؟

ما هى الاضافات التى تمنحها للظاهرة ؟

ما هى حدود التناغم والتضـاد بين ما هو اسلامى من هذه الوجهة وما هو غير اسلامى ؟

هذا هو محور حوارنا الآتي .. ونرجو (في اطار فلسفة النظرة الاسلامية) ان نكون على مستوى التصدى لهذا العمل العلمي المتراحب الأعماق والأبعاد !!

- ٨ -

بدءا .. لابد ان نحدد طبيعة النظرة الاسلامية الى القضايا التي يمكن ان تكون قسمة مشتركة بين كل المذاهب والاتجاهات والتيارات ، فمن هذا المنطق وحده يمكن لأى فهم ان يكون على مستوى صوابى اذا هو استطاع ان ينفذ الى صميم القضية الكلية ، وان يحسن جمع مفرداتها في اطار شمولى جامع يضع الشبيه الى جوار الشبيه ، ليخرج في النهاية بتصور كلى ناهض على استقصاء كامل ، واستبصار ذكي بضوابط الأشياء !!

- ٩ -

ان بعض فلسفة النظرة الاسلامية ان تعطى للأساسيات المركوزة في طبائع البشر حقها في الوجود ، وحقها في التعبير عن هذا الوجود ، وهى بذلك لا تلغى دورها الفاعل في تشكيل ملامح الأخلاقية الانسانية ، وانما هى على النقيض تستطيع من خلال هذا الاعتراف الأولى ان تستقطب هذه الطبائع ، وان تحاول تعليتها وترشيدها والحفاظ على ألقها الأول ، ان الخطورة يمكن ان تكون كامنة ليس في هذا الاعتراف الأولى ، وانما في محاولة كسر طبائع الأشياء ومعاداة هذه الطبائع أو تجاهلها أو الغاء دور التعلية والترشيد والتصويب .. من هنا ينبغى ان نبدأ حركة البحث !!

ان الاحساس الجمعى (من الوجهة الاسـلامية) ينطلق من دائرة الفرد ليلتحم بدائرة الجمع ليعود كرة أخرى الى كل المفردات ٠٠ فالفرد مطالب هنا بلون من ألوان التنازلات الدائمة عن بعض حاجاته وضروراته للآخرين ، لأن هؤلاء الآخرين مطالبون هم كذلك بلون من ألوان التنازلات الدائمة عن بعض حاجاتهم وضروراتهم له ، ان هذه العملية البسيطة المعقدة فى ان لا تتم فى اطار جبرية ضاغطة من أي لون ، لانه حتى فى أساس القضية كلها «لا اكراه فى الدين» ان طوعية بحتة تحكم منطق العلاقة بين الانسان والايمان ٠٠ فاذا كان ذلك كذلك فى أساسيات القضية كلها ، فلا أظن اننا بحاجة الى تأكيـــد ان هذا المنحى الطوعى ينسحب بالضرورة على عمليـة الاحساس الجمعى الذى يتقارض فى اطاره الفرد والمجموع بعضا من ضرورات المادة وبعضا من عواطف الوجدان ٠٠ ان (الحاجة) الى الآخرين (من الوجهة الاسـلامية) ليست وحـدها هى الحافز الحقيقى على المشاركة الوجدانية أو الاحساس الجمعى كما نحب ان نقول ، وانما ينهض الايمان بعرضـــية المادة وديمومة القيمة واحدا من أخطر الحوافز الحقيقية على هذه المشاركة أو قل على هذا الاحساس ، وبذلك تتم كل التنازلات على أساس من الايمان بأن الانسان أبقى من الشىء ، وبان الروح أنقى من المادة ، وبأن الخير أعلى من الجحد ، وبأن ما نتركه طوعا وفانيا هنا ، نظفر به ضرورة وباقيا هناك ٠٠ ان (الايمان) يدخل فى القسمة هنا فيرطب من جفاف المقابلة بين الأخذ والعطاء ، ويخلع على القضية كلها معنى ان يكون الحس الانسانى المستجيب لهواتف الطبيعة المركوزة مستجيبا قبـــل كل شىء وبعـد كل شىء لضوابط هذه الطبيعة المركوزة ، ولعناصر تعليتها وترشيدها والارتفاع بها الى أوج الاتصال بالسماء

.. وهذا هو الفرق بين طبيعة النظرة الفكرية المجردة وطبيعة النظرة الاسلامية الملتزمه فى هذا المجال !!

- ١١ -

واذا كان الاحساس الجمعى (من الوجهة الاسلاميه) يرفض ان يكون نبض التعاطف صاعدا من الفرد الى المجموع دون تنزل هذا النبض المتعاطف من المجموع الى الفرد ، فانه يبنى فلسفته فى هذا الصدد على أساسية راشدة ، ان الفرد لا يعمل خادما فى ملهى غير محكوم بقانون ، وانما هو سيد على الأرض يتعامل مع جبير من المسودين الآخرين ، وليس فى اســتطاعة قوة على الأرض ان تقنع الانسان المسلم بأنه خلق من عنصر أدنى ، لأن جلجلة الوحى تطن طنينها فى أذنيه : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم» .. وما دام ذلك كذلك فمن واجبه ان يعمل أجل ، ولكن من حقه كذلك ان لا يستذله العمل والآخـرون مهما كانت التبريرات ، ان نبض التعاطف الصاعد منه الى المجتمع الذى يحيا فيه ، ينبغى ان يرتد اليه نبض تعاطف اذا أعوز أو جهد أو حاصرته هزيمة الشيخوخة ، ان التكافل الاجتماعى هنا ليس احسانا بقدر ما هو التزام ، التزام الجمع الاسلامى بمد يد العون الى كل مفرداته البشرية فى ساعة العسرة ، والتزامه بتفتيح كل آفاق الامكان أمام هذه المفــردات البشرية لتحقيق معنى وجودها على الأرض ، وتوســيع رقعة المتاح أمامها بدءا من الاستمتاع النظيف وانتهاء الى الاحتواء الكامل !!

- ١٢ -

ولقد يترقى الاحساس الجمعى (من الوجهة الاسلامية) ليس فى معارج التطور والتحور فحسب ، وانما فى المســافة السابقة

واللاحقة لكل مراحل التطور والتحور ، أعنى ان فلســـفة النظرة الاسلامية فى هذا الصدد لا تسلط ضـــوءها الغامر على مساحات هذا التطور ماذا يمكن ان تكون فحسب ؟ ولا على مســاحات هذا التحور ماذا يمكن ان تكون أيضا فحسب ؟ وانما على نوعية هذا التطور والتحور جميعا ماذا هى أساسا ؟ فاذا اطمأنت الى طبيعة هذه (النوعية) فكل المسافات والمساحات والأبعاد بعد ذلك يمكن ان تكون قابلة للفهم ، ومندرجة تحت مفهوم النظرة الاســـلامية بلا نشوز ·· أعنى مرة أخرى ان التطور فى ذاته لابد ان يخضع لفلسفة النظـرة الاسلاميـــة فاذا واءم طبيعة هذه الفلســفة فكل التفريعات بعد ذلك قابلة للفهم والاستيعاب ، واذا لم يوائم طبيعة هذه الفلسفة فمصادر تكويناته الأولى مصادرة هنا ، ومحكوم عليها بحتمية الانطواء ·· أعطى لذلك مثلا : نحن لا نستطيع ان نتعامل مع التطور فى الثوابت الاســـلامية كالألوهيـــة والفرائض وآيات التنزيل ، ولكننا نستطيع فقط ان نتعامل مع التطور فى طـرائق عرضنا لهذه الحقائق على الأغيار ، وفى طرائق فهمنا لطبيعة هذه الثوابت على ضوء كل ما جد من كشوف وتقنيات ·· ان الاحساس الجمعى بالتطور والتحور هنا يكون قائما على فهم صوابى مقارب لطبائع الأشياء من جهة ، ومقارب أيضا لطبائع العصر الذى تحيا من جهة أخرى ، اذا هو أصر على تجنيب ثوابته كل أعاصير التحور والتطور المحكومين بالانطواء ، واستمسك بكل عنفوانه بقيمة ان يظل هو فى ذاته متطورا ومتحورا يفيد من كل تجارب العصر ويضيف الى امكانية عطائه امكانيات أخرى غير قابلة للحصار !!

- ١٣ -

ولا يتخلف الاحساس الجمعى (من الوجهة الاسلامية) عن أن يكون قابلا ورافضا معا ·· لأنه بهـــذا القبول والرفض يؤكد معنى

انسانيته ، ومعنى معاناته للفكر الحضـــارى الذى يمور به العالم اللاغط من حوله ، ان فلسفة النظرة الاسلامية فى هذا الصـــدد تنهض على مسلمة أولية ، هى ان لدى الانسان العقائدى بناء فكريا ووجدانيا وعقائديا متكاملا ، يعرض كل ما سواه عليه ، فاذا أخصب جانبا من جوانب الفكر ، أو جانبا من جوانب الوجدان ، أو جانبا من جوانب الايمان العقائدى ، باركه وشد على يديه ، واذا صادم جانبا من هذه الجوانب تجاوزه أو عفى عليه ٠٠ وهذا هو المقياس !!

- ١٤ -

أعتقد اننا بعد هذه الاطلالة الخاطفة على طبيعة فلسفة النظرة الاسلامية الى القضايا التى يمكن ان تكون قسمة مشتركة بين كل المذاهب والاتجاهات والتيارات فى اطار ما نطلق عليه (الاحساس الجمعى) ٠٠ يمكن ان نحـاول تأمل بعض الظواهر التى تضـيفها النظرة الاسلامية من منظورها الخاص الى هذه القضية الهائلة ، حتى تتكامل أمامنا أو قل توشك ان تتكامل أمامنا أبعاد الصورة التى تعكسها النظرة الاسلامية فى هذا المجال ٠

- ١٥ -

أول هذه الظواهر هو حرص القرآن العظيم محور الحـركة الاسلامية على استنبات مشاعر الحب والايثـار فى أعماق المسلمين عبر آياته وسوره القصار والطوال ، وصـــولا الى صهر المجتمع القرآنى فى بوتقة واحدة يخرج منها فائر الحس ، متوهج النبض ، موصول المشاعر بكل مشاعر الآخرين ٠٠ ان القرآن يضع أمامنا فى هذا الصدد صورة حية للاحساس الجمعى ناطقة فى انســـان الوضعية الاسلامية الأول محمد عليه الصلاة والسلام : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين

رءوف رحيم » .. « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .. « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين» ..
ان هذا التصوير الرائع لمعاناة الواحد الذى هو النبى العظيم من أجل الكل الذى هو الجمع الاسلامى يعكس صميمية الاحساس الجمعي كظاهرة من ظواهر فلسفة النظرة الاسلامية فى البناء الحضارى للانسان !!

- ١٦ -

الظاهرة الثانية : هى فلسفة الوحدة فى الاسلام ، بدءا من وحدة الخلق ، وانتهاء الى وحدة الخالق ، مرورا بوحدات متعددة .. ففى مجال وحدة الخلق يتعالى صوت القرآن : « وهو الذى خلقكم من نفس واحدة » وفى مجال وحدة الخالق يتعالى هتافه الجليل : « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » وفى مجالات الوحدة الأخرى تتردد هذه الأصوات : « واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » .. ان وحدة المنبع ، ووحدة المسيرة ، ووحدة المصير ، ووحدة الاله ، ووحدة النبى ، ووحدة الكتاب ، ووحدة القبلة ، ووحدة الهتاف .. كل أولئك جوانب من فلسفة الوحدة فى الاسلام ، وهى فلسفة حافزة الى استشعار قضية الاحساس الجمعى الذى يتألف شكله النهائى من مفردات هذه الفلسفة الشمولية الكبرى !!

- ١٧ -

الظاهرة الثالثة : هى اضاءة المسافات بين القاعدة والقيادة ، ان فلسفة النظرة الاسلامية فى هذا الصدد تنهض على ان القيادة اذا فقدت قاعدتها تصبح على الفور ورقة ذابلة معلقة فى الفراغ ..

واذا فقدت القاعدة قيادتها تصبح على الفور هى الأخرى قوة هائلة تصب فى محيط الضياع ·· لابد من احساس جمعى يربط القائد بجماهيره ، والجماهير بقائدها ·· وهذا ما أعطى على صعيده محمد العظيم أروع نماذج العطاء ·· لقد قاتل الى جوار أصحابه ، ولقد حفر معهم تحصيناتهم الدفاعية ، ولقد عاد مرضاهم ، ولقد واسى حزاناهم ، ولقد فرح لغبطة الهانئين ·· وهم كذلك كانوا اله ما كان لهم ·· لقد افتدوه بالروح والمال والولد ، ولقد استقبلوا الموت بعد موته كأنما يستقبلون أحلى المواعيد : (غدا ألقى الأحبة ، محمدا وصحبه) !!

هذه بعض مشاعل اضاءة المسافات بين القائد النبى وجماهيره المسلمة ، وهى قابلة بلا انتهاء لمزيد من التطبيق بين كل قيادة مسلمة وبين جماهيرها الفاهمة ، حتى تمتلك الظاهرة عافيتها من جديد ، وتعود لشجرة الحركة الاسلامية طاقة اخضرارها على امتداد كل الفصول !!

- ١٨ -

وهكذا ·· تتكامل فلسفة النظرة الاسلامية فى احتواء هذا الاحساس الجمعى من وجهتها الذاتية المتفردة ، التى تستقطب عديدا من الأساسيات الطبيعية عاملة فيها بمزيد من التعلية والترشيد والتصويب ، مضيفة الى هذه الأساسيات من ثرائها الذاتى ما به تتكامل الظاهرة ، وتتنامى أبعاد مدها الوجودى ، وتترك على جبهة التاريخ مساحات من الضوء المنهمر الذى يصنع للانسان ملامح فجراه الواعد ، ويضىء له آماد طريقه المركوم بالأشواك !!

الكلمة من المنظور الاسلامى

- ١ -

ترى ٠٠ ماذا كان يمكن أن تكون هذه الحيـــاة لو لم تكن الكلمة ؟ أغلب الظن أنها كان يمكن أن تكون دمية خرساء تخمش وجهها بيديها ، وتطمس فى أحداقها النور والدفء ومعنى أن تكون ما هى الآن !!

فالكلمة هى الوسيلة الأولى لالتقاء الأفراد والأجناس على معنى الزمالة والحب ، هى التى جمعت آدم الوجود بحوائه فبنيا هذا الاجتماع الشـــاهق الذى نعيش نبضه وخفقاته حتى الآن ، وتركا لنا منه هذا الكم الهائل من العواطف النظيفة المتعالية التى تتوهج ذاتيا فى أعماق أعماقنا فتورق بالحب وتثمر ملايين الملايين من أطفال الوجود ٠٠ وتتوهج ابداعيا فتعطى مثل هـــذا التاريخ الفنى الذى نراه فى أدب العواطف الثرة منذ فجر الكتابة والروايه حتى اليوم وهو تاريخ عظيم بكل المقاييس !! وهى التى أخرجت الانسان من كهفه الأول حيث عاش فى هذا الكهف محاصرا بالخوف

من الأشياء والأحياء ، وحيث كان يتوهم فى كل حركة عدوانا ، وفى كل آخر عدوا ، وفى كل مظهر من مظاهر الكون قضية صماء غير قابلة للفهم وغير قابلة للاحتــواء ، فلما احتوى الكلمة بدد غواشي الخوف ، وأدال في نفسه للحب من العدوان ، وجعل من مظاهر الكون قضية ناطقة بآلاف الأسرار والمعطيات ، فطور ذاته ووجوده ، وأعطى الحياة امكانية أن تتفوق على نفسها أبدا ، وأن تنمو فى كل الاتجاهات مزيدا من النمو ، وغير قليل من الاندفاع!! وهي التى بنت الحضارة بالفهم ، وشيدت المدنية بالعلم ، وأحالت صخر الوجود الى جنات بهذا اللقـــاء البشرى على معنى التعاون وتبادل الخبرات ، أنت تعطينى فى هــذا المجال وأنا أعطيك فى هــذا المجال ، ومن احتكاك هــذه العطاءات المتكاملة تنبثق أعظم خطوات التطور التقنى فى حياة البشر ، وتتبوأ الحضارة عرشها السامق ، فتتدفق الحياة بالخير الناهض على العلم ، وبالحق المدعوم بالفهم ، وبالجمال المؤطر بالحب ، ويصبح الوجود مثابة للناس وأمنا ، وتتعاطى الجماهير أزهار السلام !!

- ٢ -

والكلمــة هى ناقلة التراث الحضــارى من جيل الى جيل ، فيأخذ الجيل الخالف من هــذا التراث بقدر ما يحتــاج وتحتــاج المرحلة التى يعيشها على الأرض ، ثم يضيف الى كم التراث الذى احتواه والى نوعه معا ما تعين المرحلة على اضافته واعطائه ، واضعا فى حساباته دائما أن الجيل الحاضر ينبغى أن يسلم الشعلة الى الآتى وهى أروع ايماضا ، وأسطع توهجا ، وأضــوأ ضــوءا أو مساحة ضــوء اذا شئنا أن نقول !! وهنا لابد أن نفطن الى شىء صميمى ، هو أن قضية التراث الحضارى التى تأخذ الكلمة على عاتقها عبء نقله وتطويره عبر آلاف من الأجيال ينبغى أن تفهم

على نحو صوابى ، فليست الحضارة هى حضارة الكلمة وحدها ، وليست هى حضارة المادة ثم لا شيء .. انها حضارة هذه الأنماط جميعها ، فالحضارة الفكرية ، والحضارة العلمية ، والحضارة الروحية ، والحضارة المادية ، تشكل جميعها حضارة واحدة بلا فصام ، أعني ان حضارة واحدة من هذه الحضارات فى غياب الحضارات الأخرى لا يمكن أن تكون الحضارة الانسانية الراشدة والمأمولة ، وانما تظل تصرخ باحتياجها اللازم الى غيرها من الأنماط حتى تتكامل وتكتمل .. ان الفصام الجاهل بين حضارة المادة وحضارة الروح هو أفدح ما يعانى منه الفكر العقائدى ، ولو أننا وعينا جيدا معنى (خلافة) الانسان لله فى الأرض لما طاف بخيالنا يوما أن صداما من أى لون يمكن أن ينشأ بين حركة الروح وحركة المادة ، أو بين طبيعة الفكر المجرد وطبيعة العلم التطبيقى ، أن هذه المجالات المتكاملة تشكل فى نهاية المطاف معنى الحضارة فى نسقها الشمولى ، وهو ما تحمل الكلمة عبء التبشير به أولا ، ثم عبء الفتح به ثانيا ، ثم عبء نقله من جيل الى جيل آخر الأمر ، حتى تظل الشعلة باقية ومتوهجة ، ويظل المسار الانسانى مندفعا فى عروجه ، محققا معنى وجوده على الأرض ، ناهضا بأعباء التطور ومتصديا للدفاع عنها حتى يسدل على ضوء الوجود آخر ستار ..

- ٣ -

والكلمة هى صلب كل الرسالات والأديان ودعوات المصلحين .. هى التوراة ، وهى الانجيل ، وهى القرآن ، وهى كل ما خلف الأنبياء والهداة والمصلحون على قمم الحياة من مشاعل فكرية مضيئة .. ان الفكر البشرى ليقف مذهولا اذا هو حاول أن يتأمل معطيات انجاز الكلمة من خلال القرآن والانجيل

والتوراة ، وما أحدثت هذه الكتب من تحولات تاريخية فى الذهنية الانسانية من جهة ، وفى التطور الحضارى من جهة ثانية ، وفى شكل العلاقة القائمة بين الانسان والكون آخر الأمر ٠٠ ان مضمون هذه الكتب السماوية وما ينحني عليه هذا المضمون من تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية وأخلاقية وعقائدية هو شكل من أشكال فعل السماء في الأرض ، والكلمة وحدها كانت حاملة هذا المضمون الالهى البشرى فى آن ، فأحدثت بذلك أعظم ثورة فى تاريخ المسيرة الانسانية ولا تزال ٠٠ اننا مدينون للكلمة بشكل الحياة التى نعيشها اليوم ، وبشكل الحيوات الأخرى التي عاشها والتى سيعيشها كذلك أسلافنا وأخلافنا بلا تحديد ، لان حيوات السالفين فى نسقها الذى شكلته الكلمة كانت رافد حياتنا نحن، ولأن حيوات الخالفين فى نسقها الذى ستشكله الكلمة كذلك ستكون امتداد حياتنا نحن ، وبهذه الصلة العضوية بين أنماط الحيوات السالفة والآنية والخالفة ، يمكن أن نفهم مشروعية الكلمة وصميمية وجودها فى الوجود ٠٠٠ لو اننا نحينا الكتب السماوية وامتدادها الفكرى والحضارى والعقائدى جانبا ونظرنا الى التطور الانسانى بغيرها ماذا كان يمكن أن يكون ؟ لعرفنا ان حجم الخصب الذى أعطته هذه الكتب هو بعينه حجم هذا التطور ، لان الانسان عاريا من حراسة القيم والقضايا والأساسيات التى جاءت بها الكتب السماوية لم يكن ليكون شيئا على الاطلاق ٠٠ ان حقول الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأخلاق والعقائد غاصة باشعاعات هذه الكتب ، وبدونها كان يمكن أن تظل جديبة قاحلة ، ترتد فى منطلقاتها ومصباتها جميعا من النقيض الى النقيض ، لان من طبائع الأشياء أن ينسخ الفكر البشرى عطاء الفكر البشرى بلا توقف ، ربما ليفرض حلوله ، وربما ليرضى غروره ، وربما لينتصر لوجهة على وجهة ، وهكذا تظل قضية الاجتماع الانسانى ممزقة بين أطراف النقائض ، قابلة للضياع فى أبد الحوار ٠٠ ولكن هذه القضية نفسها

(أعنى قضية الاجتماع الانسانى) تظل فى ضوء التشريع السماوى على قرارها الأول ، فاتحة صدرها لمزيد من الحوار والحركة ، ولكن فى اطار من أساسياتها الثابتة وليس قفزا بالسيوف على هذه الأساسيات ٠٠ وهكذا تستقر وتعتدل الموازين !!

- ٤ -

والكلمة حرة بطبيعة تكوينها البدئى ، أعنى انها لا تستمد حريتها من رافد خارجي ، فالسيف لا يستطيع أن يمنع الذهن الانسانى من تدوير الكلمات فى خاطره ، ان هذا الذهن الانسانى ليملك من الأجنحة ما يضرب به فى كل آفاق السماوات ، والذين يكبلون الكلمة باسم هذه أو تلك من المواضعات يخطئون أقدح الخطأ ، لان من المواضعات ما ينبغى على الكلمة أن تشهر فى وجهه السيف ، حتى حق الخطأ يجب أن نمنحه للكلمة بلا خوف ، لان من الخطأ يتولد الصواب ، ولان الرأى النقيض يعطيك من امكانية الحركة أضعاف ما يعطيك الرأى الصديق ، ان الرأى الصديق لا يزيد على أن يعطيك مزيدا من المسلمات ، ولكن الرأى النقيض يعطيك امكانية فهمه ، وامكانية الحوار معه ، وامكانية احلال البديل ٠٠ ان الكلمة الحرة ٠٠ أو الكلمة الحرية ، هى التى وقفت فى وجه الطغيان فما استطاع أن يقتلع الجذور من الأرض ، وهى التى واجهت الارهاب فما استطاع أن يخرس الأصوات فى حومة الجدل ، وهى التى زاملت الانسان فى محنة تصديه لكل التجاوزات فخرج من كل أولئك ظافرا غير مقهور ٠٠ ولو أننا ألقينا نظرة على مسار الحركة الانسانية فى التاريخ لعرفنا أن انسان هذا التاريخ البطولى هو من كان يتعزى عن فقدانه حريته بالكلمة ، كان سقراط يستقبل الموت باسما تحت راية الكلمة ، وكانت الكلمة جناحيه اللذين يحلق بهما فوق السجن فى كل الفضاءات العريضة الملونة !!

- ٥ -

في ضوء هذا المفهوم الشمولي للكلمة ·· ما هي الكلمة اذن من المنظور الاسلامي ؟ وما هي أبعادها الحقيقية من هذه الوجهة ؟

لابد أن نقرر منذ البدء انها كل هذه الأشياء التي أسلفنا ، وشيء آخر يعطيها على الصعيد الاسلامي خصوصية بارزة ··

أعني انها هي وسيلة الالتقاء بين الجنسين ··

وهي ناقلة التراث الحضاري ··

وهي صلب كل الرسالات والأديان ودعوات الاصلاح ··

وهي حرة بطبيعة تكوينها البدئي حتى لتمتزج بالحريه امتزاجا وجوديا غير مبتوت ··

ثم هي (من المنظـور الاسـلامي) وضعية متميزة تحمل خصائصها الدالة ، وملامحها الفارقة ·

- ٦ -

ولعلنا من خلال استقصاء مقارب لورود الكلمة في القران من جهة ، ولتأمل طبيعة هذا الورود في القرآن من جهة أخرى ، نستطيع أن نضع تحت أعيننا ملامح الكلمة كحقيقة موضوعية من المنظور الاسلامي ، وقد نستدرك على الفور ملاحظين ان ورود الكلمة في القرآن قد يجيء نصا وقد يجيء ضمنيا ، وهي من الوجهه النصية أو من الوجهة الضمنية تعطي دائما حقيقتها ، وتضع لنفسها ذاتية متفردة تكاد تجعلها عالما من الكمال الخاص الذي لا يندرج تحت ما سواه مما عسى أن يكون هابطـا أو خابطا أو عشوائيا ··· وربما نستدرك كذلك ملاحظين أن نبي الاسـلام في تحركه

بالكلمة وفى تحركه مع الكلمة يضع لها هو الآخر بوحى من القرآن شروطها التاريخية التى تجعل منها كيانا موضوعيا متفجرا بالحيوية والحركة والنقاء واعتناق كل الكون ، والتنائى بها دائما عن أن تكون اطارا مجوفا بلا مضمون ، أو شعارا منفصلا فى حركة وجوده عن الواقع ، أو سلاحا لختل الأشياء والمعانى والارتماء بها فى ليل المجاهيل ..

- ٧ -

فالكلمة (كما يصورها القرآن الكريم) تلخيص لتراسل السماء والأرض فى بواكير الوجود لاستنقاذ أبى البشرية آدم عليه السلام : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » !!

وهى اجمال لفلسفة الاسلام كدين شمولى تكاملت حلقاته وتنامت : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » !!

وهى هتاف الانضواء تحت فهم كلى للحقائق الكبرى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » !!

وهى سلاح جمعى ذو حدين .. مضىء ومعتم : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ؛ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » !!

وهى بدء لا ينتهى ، ومداد لا يجف ؟ : « قل لو كان البحر

مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » !!

وهى ميزان الحق وسيف العدالة : « ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون » !!

وهى طائر أبيض الجناحين قادر أبدا على اختراق الآفاق والسماوات : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » !!

وهى شيء مقدس يتسامى للانتماء اليه حتى الأنبياء : « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم » !!

الى مثل هذا الحد تتوهج (الكلمة) فى القرآن العظيم الذى هو الوعاء الحقيقى للمنظور الاسلامى فيما نعنى بمصطلح المنظور، وليس هذا كل ما ورد فى القرآن الكريم من حديث عن الكلمة ، وتحديد لمفهومها الحقيقى ، فلقد تحدث عنها فى مواطن كثيرة من حيث هى افضاء هادف أو من حيث هى افضاء غبى ، مرة بهذا المنحى النصى المعجز الرائع ، ومرة أخرى عن طريق المنحى الضمنى الذى يضع الكلمة حرفا على شفاه البشر ، أو سلاحا فى أيديهم ، أو رسالة منوطة بهم .. « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم » .. « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم » .. « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ... ان الكلمة هنا توشك أن تكون انسانها القائل ، فاذا استحالت كذبا فانسانها هماز مشاء بنميم وهو أخلق

بالطرد والعصيان !! واذا اغتابت فانسانها آكل جيف ووحشى، وهو واحد من الخارجين عن سواء الفطرة واطارها النظيف !! واذا تسرعت فأدانت بمجرد الظن ، فانسانها جاهل وهو أقمن قمين بأن يظل عاضا على أصابع الندم !!

- ٨ -

ان هذه الحملة الضارية على سوء سلوك الكلمة تؤكد أن الأبعاد المضيئة التى يضعها المنظور الاسلامى للكلمة لا يمكن أن تكون أبعادا غير انسانية المنطق والقرار ، انها قد تكون وسيله الحب الجامع بين آدم الوجود وحوائه ، ولكنها تضع هذا الحب على مستوى النقاء وليس على مستوى العهارة ٠٠٠ وقد تكون ناقله التراث الحضارى ، ولكنها تنتخب من هذا التراث ما ينفع الناس ويمكث فى الأرض وليس تحتطب كل ما تلقى بلا تفريق ٠٠٠ وقد تكون صلب كل الرسالات والأديان ودعوات الاصلاح ، ولكنها ترفض أن يحرف الدين عن أصله ، أو الرسالة عن مناطها، أو الدعوة عن تعلية الحياة ٠٠٠ وقد تكون حرة حرية قبلية ترجع الى لحظة ميلادها البدئى ، ولكنها تضع هذه الحرية القبلية فى اطار من التناغم الكلى مع الحقيقة الشاملة ، فلا ترضى أن يكون جانب من القضية مضيئا بينما يزحف الظل على جانب آخر ٠٠٠ وهذا هو الفرق ٠٠ ان الكلمة (من غير المنظور الاسلامى) تبحر مع الحب حتى تلامس العهارة ٠٠ ومع التراث الحضارى حتى تنحنى لهذيان الرافضين ٠٠ ومع كل الأديان حتى تقدس المدخول وغير السماوى ٠٠ ومع الحرية حتى تتاخم الفوضى وتلتحم بهما بلا حدود ٠٠ أما من المنظور الاسلامى فانها تعرف كيف تضع الأشياء فى مناطاتها الحقيقية ، الحب بناء وليس تدليا ، والتراث حضارة فهم وليس حضارة اعتباط ، والدين وحى الهى وليس

تحريفا بشريا ، والحرية التزام وليس تسيبا بلا قوانين !! من هنا كان ترشيد النبى للكلمة موصولا وغير محدود ، وكانت أيضا حملته الضارية على كل ما يضع الكلمة فى غير مناطها الطبيعى : « ألا أخبركم بأحبكم الى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة ؟ ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون ـ ألا أخبركم بأبغضكم الى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة ؟ الثرثارون المتفيقهون » !! (لا يدخل الجنة نمام) !! (لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا ، فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر) !! (ان الرجل ليتكلم الكلمة لا يلقى اليها بالا يهوى بها فى النار سبعين خريفا) !! وهكذا تتواصل هتافات الترشيد والتحذير وتأطير الكلمة باطار من الطهر الذى لا يدنس نفسه ، حتى تكون الكلمة على مستوى أن تكون اطارا موضوعيا للقرآن الذى هو محور الحركة فى الاسلام بدءا وتناميا وانتهاء !!

- ٩ -

واذن .. فالكلمة (من المنظور الاسلامى) كلمة مسئولة ..

هى مسئولة عن تعلية التعبير عن كل ما يجيش فى أعماق البشر من هواتف الطبيعة ونوازع الضرورة ، وخوالج الوجدان .. لان تعلية التعبير هى المقدمة الحقيقية لتعلية الحقائق المعبر عنها !!

وهى مسئولة عن توظيف التراث الحضارى فى تطوير الحياة والاحياء ، وليس فى تدمير الحياة والاحياء ، ان التراث ليس صنما يتعبد له وثنيون ، ولكنه ايقاع فكرى وحضارى ينبغى أن يتنامى جانبه الرسالى ، وأن تتوارى جوانبه الخرافية !!

وهى مسئولة عن الحفاظ على الرسالات والأديان فى اطار منطقها الالهى ، حتى لا يكون خلط بين ما هو أرضى محدود بطاقة البشر ٠ وبين ما هو سماوى منتم الى وحى السماء ، فتكون فتنه على الأرض ، وتشتبك القوى المتعارضة فى صراع دموى يشوه من طبيعة هذا الجمال المخلوق الوادع القسمات !!

وهى مسئولة عن الحرية مسئوليتها عن وجودها البدئى ، لأن أى عصر عبودى يمكن أن يطفىء على الأرض كل المصابيح ، وأن يترك البشر فى فوضى من الذل والخرس واطراق الجباه ، وأن يمسح بيد البطش على كل التاريخ المضىء الذى يثرى جوانب الكون ، ويطور نواميس الفهم لحقائق الأشياء !!

وهى مسئولة عن دوام التواصل بين السماء والأرض ، فبالكلمة نحن نتعبد لله . وبالكلمة نحن نفهم عن كتابه الخالد ، وبالكلمة نحن نمدد من رقعة الضوء الايمانى فى كل المناخات !!

وهى مسئولة عن وجود وجودها نفسه ، فالكلمة تحيا فى الكلمة ، وانسان هذا الكون يرفض أن يحيا خارج خارطة الكلمة، لانه يرفض أن يكون شيئا يضاف الى جبال الأشياء !!

ان (مسئولية الكلمة) تعكس فلسفة وضعيتها الفريدة الفذة (من المنظور الاسلامى) لانها تلقى على كاهلها عبء التزام عقائدى يضع الكون فى احداقه كأنه مسئول فيه عن خفقة الضوء ، ونبضة الخصب ، وحركة الفرد ، واندفاع المجموع ، وقيم الحضارة، ونقاء التواصل ، وبنائية المقولات !!

هذه هى الكلمة (من المنظور الاسلامى) ٠٠ وهذا هو حجمها الهائل من هذه الوجهة ٠٠ فهل نستطيع أن نكون على مستوى الفروسية حين تكون الكلمة سيفا ؟ أم اننا ما نزال نرى فى السيف مجرد حشد من الأسماء تنام هامدة على صدر قاموس من القواميس ؟؟!

■

قضية الفكر الاسلامى بين المد والانحسار

من طبائع الأشياء أن تكون الحركة الفكرية فى طور لاحق أثرى من الحركة الفكرية فى طور سابق ، وتتأكد هذه الفرضية اذا كان مسار (الحياة العامة) ـ سياسيا واقتصاديا وحضاريا ـ متجها الى الأمام وليس الى الوراء ، فان بين حركة الفن ـ على كل مستويات هذا الفكر ـ وبين أطر الحياة العامة أواصر واشجة تلهم وتستلهم فى جدل وجودى لا يكف عن المعاطاة !!

فاذا انتكست الحـركة الفكرية فى طور لاحق عنهـا فى طور سابق مع تدفق الأطر الحياتية الأخرى فى اتجاهها الصاعد فلابد ان تكون هناك خلفية فاجعة تحتم هذه الرجعة أو قل هذا البوار !!

والمتأمل فى حركة (الفكر الاسلامى) يروعه ما يلاحظ من انحســار فاجع بلا تبرير ، مع توافر المتـاحات الفكرية والعلميه والتقنية على مستوى لم يكن متاحا لكل المبدعين فى هذا الصدد قبل هذه السنوات الخصيبة العجاف فى آن ٠٠ بمعنى أن جيل الرواد من أمثال طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، ومحمد حسين هيكل ـ وغيرهم ـ ما يزال هو الجيل الوحيد القادر على التحرك فى اتجاه تشكيل ملامح المرحلة ، واعطاء حركة الفكر الاسلامى أسلحة معاصرة ما تزال تقاتل بها حتى اليوم !!

لابد ان وراء هـذه الظاهرة عوامل جذب ورائية تعيق من تقدم الفكر وتحد من انطلاقه الى أرحب الآماد ، وفى رأيى ان هذه العوامل ليست من النوع المادى الذى يمكن القبض عليه فى عفوية بادهة ، وانما هى على النقيض من ذلك تكاد تشكل قضية بذاتها تحتاج فى تأمل أبعادها الى دراســات واستقصـاءات ٠٠ أعنى ان تأمل هوية العوامل الورائية فى قضية الفكر الاسلامى ليس أقل

خطورة وصميمية من تأمل قضية الفكر الاسلامى نفسها ، فان جانبا هائلا من تعديل المســارات التاريخية يرجع بالضرورة الى فهـم أسلحتنا المنتضاة فى هذا الصدد ، والى فهــم نوعية استعمالنا الصوابى لهذه الأسلحة المنتضاة ، والى تأمل فرضية الفشل الى جانب تأمل فرضية النجاح هكذا بلا تفــريق ٠٠ ان الاندفاع المتحمس فى طريق التفاؤل لن يجدى على الاطلاق ، وخير منه بملايين الأحجام ان نتوقع نقيضه حتى ندرب طاقاتنا على السبح فى أمواج الظلام وضد طبيعة التيار !!

ولست بقادر فى هذه السطور على رصد كل الظاهرة واستقصاء كل عوامل جذبهــا الوراثى ، ولست أطمح هنــا الا الى لون من الاستنفار الحقيقى ، والدعوة الى تعبئة شــاملة لتحريك جهودنا الفكرية على هذا الطريق ، تماما كما حاولت فى دراستى لهوية « الأدب الاسلامى » ودراستى « للفكر الملحد » فيما يقرأ شبابنا من ابداعات مسرحية مترجمة ٠

القضية الآن هى بالتحديد : لماذا اســتطاع جيل الرواد ان يبدع لنا هذه الشوامخ : (حيــاة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ٠٠ و (الله) و (حقائق الاســلام وأباطيــل خصــومه) و (العبقريات) لعباس محمود العقاد ٠٠ و (مرآة الاســلام) و (على هامش السيرة) و (الفتنة الكبرى) للدكتور طه حسين ٠٠ و (فجر الاسلام) و (ضحى الاسلام) الخ ٠٠ لاحمد أمين ، وغيرها ٠٠ وغيرها ٠٠ ولم نستطع نحن الا على مستوى هامشى ان نضيف الى ما بذلوا ، أو حتى ان نواصل مسيرتهم الجادة المثقفة على هذا الطريق ؟؟

ان معاناة بلا حدود يحسها الباحث المعاصر حين يتصــدى لدراسة أكاديمية فى هذا المجال ، لأن كل الجهــود المبذولة الآن تعيش عالة على هذه الدراســات الرائدة ، وتكاد من فرط العجز

أو من فرط التثاؤب لا أدرى ان تمضغ مفاهيمها في اجترار مكرور وذابل وبليد !!

لقد تصدى الدكتور حسين هيكل فى (حياة محمد) لمقولات هابطة حاصرت تاريخنا الاسلامى من شرق الأرض وغربها جميعا ، وبعقلية رائعة ، ومنهجية أروع ، استطاع الرجل ان يحيل مناطق الهجوم الى مناطق استسلام ، أو قل الى مناطق دفاع على أهون الفروض !!

ولقد تصدى العقاد فى (عبقرية محمد) لمقولات أبشع هبوطا حاولت ان تجعل من قائد الحركة الاسلامية مجرد فاتك بالسيف ، أو مجرد عاشق للجميلات ، واستطاع العقاد أن يرسخ — من منظور عقلى معاصر مستوعب — مسلمة ان هذا النبى القائد كان وما يزال أعدل من قبض على حمائل سيف ، وأعف من نظر الى المرأة فى رحائب الوجود !!

ولقد تصدى أحمد أمين فى سلسلة دراساته الفذة عن الحضارة الاسلامية بمعناها المتكامل لمقولة الجدب الحضارى على مستوى اسلامى ، واستطاع بجهود الباحث الباذل وعقلية العالم المثقف ان يديل من الباطل للحق ، وان يضع الحضارة الاسلامية فى مناطها الصوابى رافدة لكل الحضارات البازغة ومجددة لشباب كل الحضارات الهرمة المتهرئة !!

ولقد تصدى الدكتور طه حسين فى (على هامش السيرة) لمقولات الجفاف فى النمط الاسلامى . واستطاع من خلال تقنية فاهمة أن يسكب الاخضرار فى اعراق هذا النمط ، وان يحيل كل مسيرة الشخوص الى نبض وجودى زاخر بانبل ما على الأرض من عواطف البشر ، وبأروع ما فى الوجود من هواتف الأرض الرانية الى مناطها فى السماء !!

وتستطيع ان تقول ذلك فى ابداعات أخـــرى مما ابدع هذا الجيل الرائد العظيم ، الشيء الذى يرسب فى الأذهان قضية ان هذا الجيل الرائد كان يعرف من أى المنطلقات يبـــدأ زحفـة الهائـل ، والى أى الآماد ينتهى مساره الكبير ..

فلماذا اذن توقف الزحف ؟ ولماذا اذن انتهى بهذا الجيـل هذا المسار ؟ لماذا لم يواصل الجيل الخالف اندفاعه المؤمن قابضا على حركة التصدى ، فاعلا فى حومة الحوار ؟

أكاد أزعم هنا ان الفارق الصميمى بين موقف كل من الجيلين : ان الجيل الرائد حين خرج الى القتال بالقلم فقد خرج بايمانه بنفسه ، وبايمانه بعقائديته ، وبايمانه بروعة مواريثه الثاوية ـ لا يهم ـ فى بطون الكتب الصفراء !!! فى حين خرج الجيـل الخالف الى القتال بايمانه المرتعش ، وبعقائديته المدخولة ، وبمزيد من الشك فى مواريثه، والخجل من ان يقال انه قارىء كتب صفراء لا حمراء !! لقد انعكس هذا التسييب العقائدى والفكرى على موقف هذا الجيل الخالف فلم يستطع ان يصمد على جبهة المواجهة مقاتلا هاجما ، أو حتى مقاتلا على جبهة الدفاع !!

لا تقولوا : ان الزحف هنـا يوشك ان يـكون كاسحا بأفدح مما تعرض له الجيل الرائد تحت وطأة تفتح الفكر المهاجم على آفاق لم يكن يحلم بها فى قمة المرحلة الفائتة .. فان هذه المقولة مرفوضة من طرفين : الأول ان عرامة أى هجوم تقتضى بالضرورة استجابة دفاع أذكى وأقدر .. والثانى أننا ما نزال نقاتل هذا الهجوم الكاسح بفكر جيلنا الرائد ، وما يزال فكر هذا الجيـل الرائد يقاتل لنا على كل الجبهات !!

ويوشك المتتبع لحركة الفكر الاسلامى من خلال أولئك الرواد أن يركز على أساسيات بارزة فى ابداعهم : فلقد كان بعض هـذا

الابداع بمثابة (تفجير للينابيع) ·· وكان بعضه بمثابة (تأصيل للمفاهيم) ·· وكان بعضه بمثابة (طموح الى التنظير) ·· وكان بعضه بمثابة (ارتفاق منهج نصى) ·· وكان بعضه بمثابة (التجول الفنى فى حدائق العقائديات) ·

ان (حياة محمد) لهيكل كانت خطوة على طريق (تفجير الينابيع) وكانت (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه) للعقاد وأعمال أحمد أمين الاسلامية خطوة على طريق (تأصيل المفاهيم) وكانت دراسة العقاد الفذة عن (الله) خطوة على طريق الطموح الى خلق (نظرية اسلامية) فى هذا المجال ·· وكانت (مرآة الاسلام) لطه حسين خطوة على طريق احتواء (المنهج النصى) ·· وكانت (على هامش السيرة) لطه حسين خطوة على طريق (التجول بالفن فى حدائق العقائديات) !!

وهنا استطيع ان أزعم ان ابداع هؤلاء الرواد لم يكن حركة بوح يستريح من معاناته الكاتب بنفثه كلمات فى سطور ، وانما كان حركة فكر ريادى يتكىء فى اندفاعه على حس تكاملى كان يسيطر على حركة أولئك الرواد فى حركة ابداعهم الفكرى والفنى ، بمعنى ان كل واحد منهم كان صوتا لايريد لنفسه ان يكون صوتا مكرورا ، ولا صدى لصوت مفرد أو مكرور ، وبهذا الحس المغامر الطموح استطاع جميعهم ان يشكلوا هذه الدائرة المتكاملة التى يفضى أولها الى آخرها بلا نشاز ، فحين نرى اتجاها الى تفجير الينابيع هنا ، نرى الى جواره اتجاها الى تأصيل المفاهيم هناك ، وحين نرى غير بعيد ملامح اتجاه الى محاولة التنظير نرى غير بعيد كذلك اتجاها الى اعتماد المنهج النصى ، وحين نرى ميلا هادفا الى التجول الفنى فى رحائب العقائديات نحس بان هذا المتجه يأتى لتمام دائرة لا تتم فى غيابه الى الاطلاق ·· وهكذا تنتهى الدائرة الى تفرد بارز من

ناحية ، والى تكامل رائع من ناحية أخرى ، ولا تكون قضية المبدع هنا أن ينوع على لحن أساسى غامر بابتكاره سواه،وانما تكون قضيته ان يبحث فى المداد الفكرى والفنى عن مناطق البكارة والأمل الصميمى فى اضافة لبنة الى جدار الواقع العقائدى حتى ينهض الجدار ويتشامخ البناء !!

ولست فى حاجة الى شجب الجانب الآخر أو الدعوة الى شجبه ، أعنى اننى لست فى حاجة الى ادانة الجيل الخالف الذى يتحرك بالفكر والفن فى مناطق النفوذ التى أفرغت امعاءها تماما ‥ لقد شهدت المرحلة الأخيرة موجات من « الدعاية » الفكرية للقضية العقائدية مكرورة بلا ملال ، ومقلدة بلا حياء ، وتافهة بلا قرار ‥ ولم نلمح من خلال كل هذا اللجب قضية واحدة قادرة على البقاء ، ولا دراسة واحدة يمكن ان تضيف الى ضمير العصر أبعادا جديدة تثرى حركة الفكر فيه أو حتى حركة الحوار !!

ان يكون الجيل الرائد مفجرا للينابيع ‥ مؤصلا للمفاهيم ‥ طموحا الى التنظير ‥ مقترحا مناهج متعددة ‥ ومتجولا — على مستوى فنى — فى حدائق العقائديات ‥ فان هذا كله يعطى هذا الجيل جدارة التمدد فى أخلاد الأبد ، وجدارة التخطى لملايين السدود !!

وأن يكون الجيل الخالف عاجزا بقدرية فادحة عن مجرد العطاء فى أى من هذه المنطلقات — فكريا وفنيا — فان هذا كله يعطيه جدارة السقوط الفادح تحت سنابك التاريخ ·

أعلم ان جهودا بذلت — على مستوى الجيل الخالف — فى كل من هذه المجالات ، ولكننى لست عن مجرد الجهد المبذول أبحث ، فقضيتى أوغل تجذيرا فى تربة الواقع الفكرى من مجرد الحركة أو مجرد الدوار ‥ وأوشك ان أجزم بأن محاولات مستحدثة قد

بذلت بالفعل وهى ليست قريبة الغور فى هذا المجال ، ولكنها فى النهاية تبقى محـاولات مفردة تفتقر الى ما يعاونهـا على تكامل الدورة ، وانسياب البعض فى حركة الكل الكبير من هذه المحاولات ـ مثلا ـ بعض جهود مالك بن نبى فى الجزائر ٠٠ وبعض جهود نديم الجسر فى لبنان ٠٠ وبعض جهود محمد البهى فى مصر ٠٠ وهى محاولات موفقه وغيورة وطموحة من غير شك ، ولكنهـا كما قلت لا ترتكز فى تمامها على حس تكاملى يفضى فى النهـاية الى ظاهرة بارزة التمام !! لقد كان من الممكن ان يشـكل الفكر الاسـلامى بمتاحاته المعاصرة حركة أروع من الحركة الرائدة ، وثورة أشـمل من كل ثورات الفكر الاسلامى عبر كل العصور ، ولكنه ـفيما يخيل الى ـ فكر قانع ومستسلم ، وغير باحث عن حركة الكدح أو حركة المعاناة ، أو قل أنه فكر غير قابض على قناعاته النهائية ، بما هـو عاجز عن ديمومة الحـوار مع فكر المراحـل غابرها ومعاصرها على السواء !!

وحتى لا انتهى الى مجرد التشـنج أو الى مجرد الصراخ ٠٠ فأننى أود أن أوجه من هنا دعوة الى مفكرى الحركة الاسـلامية على امتداد الرقعة التى يتقاسـمون فوقهـا خبز العصر وهواءه : أن يتلاقوا على كلمة سواء ، وأن يتدارسوا امكانية العطاء المتكامل ، وأن يتصـدوا للقضـايا الصميمة وليس للقضـايا القشرية ، وأن يحركوا اقلامهم فى اتجاه الحياة وليس فى اتجاه الموت ، وأن يكون حاضر الجيل ومسـتقبله وهمومه المثقفـة هى محـور اهتماماتهم الحقيقية ، وأن يهيلوا تلالا من الرمال على الاحساس الفاجع باقليمية

الحركة واقليمية الفكر ، فأن جناح الاسلام يغطى حتى الآفاق غير المنظورة فى هذا الكون اللامتناهى الى آماد ، وأن يقاتلوا ٠٠ أو يستسلموا ٠٠ فلسنا فى حاجة الى نائحين مأجورين ٠٠ والحركة المسلمة بعد قادرة على انتخاب عناصرها القادرة حتى من تحت اطباق الظلام !! والأفق ممتد ٠٠ والسواعد هائلة ٠٠ والنداءات بحجم ما بين الأرض والسماء !!

دراسـات قـرآنيـة

الاعجاز القرآنى .. فى فكر المعاصرين

- ١ -

المدخل الطبيعى للحديث عن قضية من القضايا هو استقراء تاريخ هذه القضية ، خاصة اذا كان لهذا التاريخ من الامتداد الزمانى ما يتيح للباحث أن يتجول فى ابهائه ، وأن يرجع فى نهاية الرحلة بحصاد هائل العطاء !

والاعجاز القرآنى قضية كانت لها فى فكرنا التراثى دوائر تتراحب بتراحب المد الثقافى ، وكانت تستقطب من جهود عمالقة المفكرين مساحة تعكس ضخامة الاحساس بصميمية هذه القضية ، وجلال ما تنحنى عليه من معطيات عقائدية وفكرية وفلسفية وبلاغية !

ان تاريخ هذه القضية ـ ككل التواريخ ـ لم يبدأ منظما ولا جاريا على منهج اكاديمى ـ اذا جاز أن نستعمل هذا المصطلح فى هذا المجال ـ وانما بدأ منشورا فى أقوال العرب وآرائهم واستدلالاتهم ، بشكل يوحى بأن مخاضا من لون ما كان يتخالج الفكر الابدأعى فى هذه المراحل ، وان تاريخ الفكر كان يتهيأ لاستقبال وافد جديد لم يلبث ان تخلق وتكامل وأعطى كنوزه ،

واستحال في حركة الخلق الابداعى الى تيار زاخر باضافاته الفكرية والفنية والعقائدية والمنهجية !

ثم بدأت الظاهرة تأخذ شـكلها الأكاديمى ، على تجوز فى التعبير هنا (على الاقل فى مطالع الحركة) فقد كتب أبو عبيـدة كتابه (المجـاز) باحثا فى أسلوب القرآن بعرضـه على أساليب العرب ... ثم كتب الجاحظ (م٢٢٥) كتابه (نظم القرآن) جاهدا فى الاحتجاج للقرآن والرد على كل طعان كما يقول .. ثم كتب أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطى (م ٣٠٦) كتابه (اعجاز القرآن) وقد شرحه عبد القاهر الجرجانى شرحا كبيرا سـماه المعتضد ، وشرحا أصغر منـه ، يقول الرافعى : (ولا نظن الواسـطى بنى الا على ما ابتـداه الجـاحظ ، كما بنى عبد القـاهر فى (دلائل الاعجاز) على الواسطى) ـ اعجاز القرآن للرافعى ص ١٥٣ ـ ، : ثم وضع أبو عيسى الرمانى (م ٣٨٢) كتابه فى الاعجاز مركزا على أن القرآن معجز ببلاغته .. ثم وضع الخطابى (م ٣٨٥) كتابه (اعجاز القرآن) مبينا أن وجه الاعجاز هنا هو استقطاب القرآن للحدود الثلاثة : اللفظ والمعنى والنظم ، ثم ما للقرآن من أثر نفسى لا تملك معه القلوب الا وجيب الاذعان والانبهار .. ثم كتب الباقلانى (م٤٠٣) كتابه (اعجاز القرآن) موضحا تفرد الأسـلوب القرآنى عن غيره من الأساليبالشعرية والنثرية والسجعية ... ثم كتب ابن سنان الخفاجى (م ٤٦٦) كتابه (سر الفصاحة) وتعرض فيه (للاعجاز) من وجهين : خرق القرآن للعادة بفصـاحته ، وصرف العرب عن معارضته ، ثم كتب عبد القاهر الجرجانى (م ٤٧١ وقيل ٤٧٤) كتابه (دلائل الاعجاز) وقد عالج فيه موضـوع الاعجـاز نظما وتأليفا كجزء من ظاهرة أشمل هى طريقة نظم البيان عامة .. ثم تتابعت التفاسـير وكلها يقف من الاعجـاز موقف الدارس المستنبط وان اختلفت مناحى النظر وتعددت زوايا الرؤية بين الواحد والآخر من هذه التفاسير !!

هذا تخطيط عريض للمسار التاريخي القديم لحركة الابداع الفكري في موضوع (الاعجاز القرآني) قد ينقصها الشمول ولكنها دالة على نحو من الانحاء ، وقد يعوزها الاستبطان ولكنها موحية بشكل أو بآخر ، فماذا عن المسار التاريخي لنفس هذه الحركة من الوجهة المعاصرة ، وهو الموضوع الأساسي الذي تتحرك في اتجاهه هذه السطور ؟

ربما كانت صيحة جمال الدين الافغاني في أواخر القرن التاسع عشر بداية المعاصرة ، في الحديث عن قضية الاعجاز ولقد تلقف الراية من بعده الشيخ محمد عبده فأعطى عطاء ثاقبا من خلال دروسه التي سجلها الشيخ محمد رشيد رضا وجمعها وزاد عليها في : (تفسير المنار) .

ثم تتابعت الجهود وتدفق تيار الحركة الابداعية مما يصعب معه استقصاء هذا الكم الهائل من الاسماء والأعمال ، ولكن هذه الصعوبة في الاستقصاء لا يمكن ان تصرف الباحث في هذا الصدد عن محاولة استقصاء الملامح العامة التي تتسم بها محاولات هؤلاء ، أو قل عن محاولة استقصاء أبرز القضايا التي طرحها الفكر المعاصر في حواره الجاد حول قضية الاعجاز .

وعلى نحو مقارب نستطيع أن نقول ان جهود الفكر المعاصر في حواره حول قضية الاعجاز القرآني قد أبرزت عديدا من القضايا الأساسية التي يرونها محورا لهذا الاعجاز هي على وجه التقريب :

* توثيق التواريخ الغابرة ، وابراز الحكم والمواعظ والآداب ، واجتياز نمة البلاغة ، والاخبار بالغيب — (محمد عبده) (*)

* غلبة الروحانية القرآنية التى لا تقاوم — (فريد وجدى).

* البيان والاجمال ، واقناع العقل ، وامتاع العاطفة ، وخطاب العامة والخاصة ، والقصد فى اللفظ مع الوفاء بحق المعنى ، والتآلف الصوتى — (محمد عبد الله دراز ! .

* الافاضة التاريخية فيما يجهل العرب من انباء ، ومراعاة الاسلوب العلمى والمنطقى والنفسى — (عبد الله عفيفى).

* أعجاز الاسلوب والمعانى والتشريع والمعارف — (محمود شلتوت) .

* الاعجاز التاريخى والانسانى والحقائقى للقرآن من حيث هو كلام عربى هزم التحدى والمعارضة ، وكأن ينظمه — حروفا وكلمات وجملا وأصواتا وتراكيب وبلاغة قولية ونفسية واحكاما للسياسات المنطقية — اروع نمط معجز يتأبى على كل محاولات المماثلة أو المقاربة — (مصطفى صادق الرافعى ! .

* الاسلوب البيانى من حيث هو طراز فريد فى أدائه وصوابيته وطرائق امتلاكه الفذ لعناصر الغلبة الابداعية على كل المستويات — (سيد قطب وامين الخولى وبنت الشاطىء).

هذه — على نحو مقارب كما أسلفنا — هى ابرز القضايا الصميمية التى دار حولها حوار هذا الفكر المعاصر فى قضية الاعجاز، وربما تكون هناك او على وجه التأكيد لابد أن تكون هناك قضايا صميمية أخرى قد استقطبها حوار هذا الفكر المعاصر فى هذا المجال ، والاستقصاء بالضرورة أهدى من الانتقاء ، ولكنه — أعنى الاستقصاء — ليس هدف هذه الكلمات الواثبة ، بقدر ما تبرز عملية التركيز على أهم القضايا المثارة بالفعل هدفا صميميا لهذه الكلمات فى هذه السطور !!

اننا اذ ننتهى الى قناعة أن هذه القضايا المثارة هى بالفعل اهم ما يشغل الفكر المعاصر فى بحثه الكادح حول قضية الاعجاز، نجد انه من غير الصوابى أن نمر عليها هكذا مرورا عابرا غير متأمل ولا دارس ، ولكننا كذلك نزعم انه ليس فى طوق مثل هذه السطور الواثبة ان تتأمل بالدرس كل جوانب الموضوع ، ولا أن تلم الماما شاملا بكل عناصره ومفرداته .. يبقى اذن أن نختار فكرا معاصرا أبدع فى هذا الصدد على مستوى شمولى يجمع بين الاكباب على مفردات النظر الموضوعى من جهة ، والاكباب على مفردات النظر التأثرى من جهة أخرى ، فربما كان فى ذلك وحده ما يمكن أن يضىء كل جوانب الموضوع اضاءة أعرف انها ستكون هامشية ، ولكنى أعرف كذلك انها ستكون الى مدى ما اضاءة كلية على نحو من الانحاء ، ان الاختيار هنا صعب بلا حدود ، ولكننا محكومون بضرورته ، وحين نختار رجلا كالدكتور طه حسين ليمثل الفكر المعاصر الذى ابدع فى هذا المجال من هذا المنظور ، فاننا نختاره على ضوء من قناعتنا بأن ما كتبه فى الجزء الذى خصصه لقضية الاعجاز من كتابه (مرآة الاسلام) يثير من القضايا التنظيرية والتطبيقية ما يصلح أن يكون أساسا لحوار فكرى معاصر يضع القضية كلها على مستوى الجدل الفاعل بدلا من تأمل وجهها السكونى فى تراث الغابرين .. وأنا لنرجو أن نوفق فى النهاية الى تبرير هذه القناعات !!

- ٢ -

فى محاولة العرض والتحليل التى ينهض بها الباحث لاستبطان آراء الدكتور طه حسين فى قضية (الاعجاز القرآنى) ينبغى أن يتسلح الباحث بيقظة عارمة فيفرق بين ما هو

موضوعى وما هو ذاتى ، لأن الدكتور طه حسين يقف من القضية موقفا عقلانيا وموقفا فنيا معا ، ولسنا بالطبع نقصد من هذا التقسيم البدئى الى لون من الوان التفريق الحاسم بين ما هو عقلانى وما هو فنى ، فان كل اشكال التعبير تفضى فى النهاية الى نوع من التقارض أو المعاطاة ، أن فكرة الحائط العازل ليست فى فكر هذه الدراسة ، وانما هو لون من التحديد المساعد على تأمل طبائع الانواع !!

يذهب الدكتور طه حسين الى أن القرآن ليس (من الوجهة الشكلية) شعرا كهذا الشعر الذى يضطرب فى أغلال باهظة من أوزانه وقوافيه وأعاريضه .. وهو (من الوجهة الموضوعية) ليس شعرا كذلك ، يوغل فى فدافد الخيال وينحنى على موضوعات تهرأت كالمدح والفخر والغزل والرثاء والهجاء والبكاء على الاطلال والحنين الى الاحبة ووصف الصحراء والابل والحيوان وهذه الأشياء التى يغص بها ديوان الشعر العربى .

ويرى الدكتور طه حسين أن هذه الجمالية الشعرية الفارغة من الوجهتين : الشكلية والموضوعية لم تكن لتكون أسلوب القرآن فى ظاهر أو باطن ، لأن القرآن ليس تلهية ساذجة يتقاذفها أغرار يولعون بالشعر ، وانما هو ثورة انقلابية كاملة فى المفاهيم والانماط ، فحديثه عن التوحيد والشرك ، عن الله والانسان ، عن السماء والأرض ، عن الدنيا والآخرة ، عن الرغب والرهب ، عن الرحمة والعذاب ، عن الغيب والشهادة .. كان بمثابة تفجير هائل الدوى فى عالم تحكمه لزوجة منحدرة ، تبدأ من عناق الشعر وتنتهى الى عناق الحجر ربا ودياناً !!

ويتأمل الدكتور طه حسين نوعية العلاقة بين النبى العظيم الذى حمل هذا القرآن للناس وبين مناوئى الحركة الاسلامية

من اليهود والنصارى ، فمحمد رجل من قريش لم يجلس الى معلم ، ولم يقرأ الهجاء أو يكتبه ، ومع ذلك فقد كان يجادل اليهود فى التوراة ، والنصارى فى الانجيل ، وكان يعرى مواقف الزيف فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والكتب عن غاياتها ونواميسها الالهية المرادة ، وكان يتصدى لمشركى قريش محقرا لوضعية انحنائهم الذاهل تحت أقدام ارتفاعات حجرية صماء يسمونها آلهة !! فأين كان محمد من كل هذا الفعل البطولى الخارق لو لم يكن حاملا فى أعماقه وتحت أهدابه كلمات الوحى التى تكاملت قرآنا لم يجيء هادما لناموس سابق عليه ، وانما جاء مصدقا لما بين يديه ومضيفا اليه !!

ولأن القرآن جاء متمما ومصححا فان الدكتور طه حسين يستشف من خلال هذه الوضعية أن هذه الصلة العضوية بالواقع الحيوى حددت نوعية هذا البيان الالهى ، فهو لم يجيء بشريعة شلاء تضرب فى فراغات الخيال ، وانما جاء بشريعة حميمة تضرب فى أحشاء الواقع البشرى والكونى بما تنظمه من عبادات ومعاملات على المستويين : الفردى والجمعى ، الجنسى والأممى .. ومع كل هذا التشابك الحميم بالواقع الحيوى فقد كان القرآن قادرا باستمرار على ربط كل هذه التشريعات بيقظة الحس البشرى الربانى ، بمعنى انه خلق المعادلة الصوابية بتحضير الله رقابة دائمة لا تنفك فى ضمائر ووجدانات البشر .. وهكذا يتعالى الأرضى حتى يسامت السماء بقانون الاعجاز الكامن فى حركة الجدل بين ما هو من هنا وما هو من هناك !!

ويدين الدكتور طه حسين كل ردود الفعل القاصرة امام هذا الاعجاز الكاسح المقتدر ، لقد اتهمت قريش محمدها وقرآنه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ولكن محمدا وقرآنه كانا أقوى ،

فلما لم تفلح هذه الردود القاصرة لجئوا مرة أخرى الى الحوار بالصراع العضلى تدليلا بواقع مادى على افلاس ملكاتهم الابداعية وقوانينهم الاقناعية ، وهذه هى قمة الاحباط !!

وبذكاء ناقد يرى الدكتور طه حسين ان لونا من الاعجاز القرآنى يكمن فى قضية أن محمدا يشد هكذا الى ضرورة التبليغ وسط هذا الخضم المائج من العداوة المناوئة ، والضراوة الظامئة، أن الهية القرآن تنطق هنـــا بلســـان من الفذاذة المعجزة ، بأن نبى هذا القرآن على مستوى من الفذاذة المعجزة ، وأيضـــا فان محمدا كان يجابه نداءات أضرى واعتى ، فلقد طولب غير مرة بأن ينشىء لنفسه جنة من نخيل وعنب ويفجر الانهار خلالهـــا تفجيرا ، وان يأتيهم بالله والملائكة قبيلا ، وان يسقط الســـماء عليهم كسفا ، وأن يرقى فى السماء ويأتيهم بكتاب يقرءونه ، وأن يجعل لنفسه بيتـــا من زخـــرف ، وأن ينزل عليهم من السماء كنوزا .. ولكن محمدا كان فى مواجهة هذه النداءات الفاجعـــة لا يملك الا أن يجهش بكلماته الوامضة المضيئة : « قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » !!

وينتقل الدكتور طه حسين الى الأسلوب الادائى للقرآن فيتبين ان هذا الأسلوب الادائى كان وجها فذا من وجوه اعجازه الخالد ، فهو ليس شعرا مكبلا بأوزان الشعر وقوافيه واعاريضة وهو ليس نثرا كذلك يجرى على قوانين هـــذا النثر البشرى سائبا هكذا بلا ضابط ايقاعى يحكم وقفاته أو اندفاعاته ، وانما هو (كمـــا يقول الدكتور طه حســـين) — : (آيات مفصلة لها مزاجها الخاص فى الإتصال والانفصال ، وفى الطول والقصر ، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف ، تتلو بعض سوره فاذا أنت مضطر فى تلاوتها الى الأناة والتمهل لأنهـــا فصلت فى ريث ومهل لأداء معان تحتـــاج الى البسط والريث ، كالتشريع مثلا ، ووصف ما كان يثار بين المسلمين والمشركين من الحروب والمواقع ،

وتتلو بعض سوره الاخرى فاذا أنت مضطر الى شيء من السرع لانها تؤدى معانى يحتاج أداؤها الى القوة والعنف ، قد فصلت آياتها قصارا ملتئمة الفواصل ، تقرؤها فكأنك تنحدر من عل، وذلك حين يخوف الله عباده ويشتد فى تخويفهم فيأخذهم من جميع أقطارهم ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج) — مرآة الاسلام ص ١٤٩ — ١٥٠ — ويحيل الدكتور طه حسين على سورتى الشعراء والقصص) لندرك ان السياق فى الثانية يميل الى كثير من الريث والهدوء والمهل ، وان السياق فى الاولى يميل الى كثير من السرع والقوة والقصر لانك فى القص محتاج الى تأمل هادىء لمفردات الواقع القصصى ، ولانك فى مجال التنظير غير محتاج الا الى ايقاعات خاطفة تعطى ايحاءها وتصير !!

ويحدق الدكتور طه حسين فى طبيعة العناصر المكونة للأسلوب الأدائى للقرآن ، ويرى أن اعجاز هذا الأسلوب الأدائى متمثل فى جمال اللفظ ، ورصانة السياق ، واحكام النظام ، وروعة الصيرورة من معنى الى معنى ومن موطن الى موطن بحيث لا يملك حتى المعاند العقلى الا أن يتطامن شعوريا أمام هذا الاعجاز فيؤمن قلبه حتى وهو كافر بلسانه .. ان هذا الاعجاز يمتد ليشمل المعرقين فى العربية والشادين بالعربية والمنبتين عن العربية .. ان أعرق الاجيال فى فهم العربية لم تملك الا الانحناء أمام روعة الاداء الاسلوبى فى القرآن ، وان أجيالا اخرى ليست على هذا المستوى المعرق فى فهم العربية لم تملك هى الاخرى غير اليقين الجازم بأن هذا الكلام ليس ككل كلام تسمعه أو تقرؤه ، انه يستقر فى أخلادهم مختلفا على نحو من الانحاء ، وأن أجيالا ليس بينها وبين العربية سبب لم تملك حين قرات وسمعت القرآن ان آمنت وأذعنت واستمتعت الى مدى بعيد : (ونحن نعلم أن أروع البيان وأبرعه وأعلاه درجة فى الحسن انما

يروع من يقرؤه أو يسمعه من أصحاب اللغة التى أنشىء فيها ، فاذا تجاوزهم الى غيرهم من الامم فقد كثيرا من روعته ، ولا كذلك القرآن حين يقرؤه أو يسمعه من لم ينشأ تنشيئا عربيا ، بل هو يحتفظ بروعته على اختلاف الازمنة والامكنة وأجيال الناس) — مرآة الاسلام ص ١٥٢ — ١٥٣ .

ويلاحظ الدكتور طه حسين بحق ان وجها من وجوه الاعجاز يتألق فى اقتدار القرآن على تحويل التاريخ وتصيير البشر .. اذ ان هذا التاريخ كان تاريخا للظلم والجهل والقهر والتخلف ، فأصبح بالقرآن تاريخا للعدالة والعلم والاخاء والتقدم ، لقد أعطى القرآن الحضارة للتاريخ !! وكان البشر — فى هذه الأمة — بشرا متناوئين متدابرين متقاطعين لا يدينون بغير السيف والدم ، فأصبحوا بالقرآن اخوة متعاطفين متضامنين لا يدينون بغير السلام والحب ، لقد أعطى القرآن الحب للعلاقات !! وهكذا يقف القرآن وحده من وراء هذا التحول التاريخى والحضارى للانسان واطاره الوجودى الذى هو الحياة !!

ويحرص الدكتور طه حسين على توثيق قضية الاعجاز من خلال دراسة هادئة حول طبيعة النص القرآنى من حيث النزول والجمع والنسخ فى المصاحف والتواتر ، فيقرر أن القرآن قد نزل منجما لانه لو نزل جملة لما اطاقه القوم ، وكان ماينزل منه يكتب فى اثر تنزيله ، ثم جمع فى أيام أبى بكر ونسخ فى المصاحف وارسل الى الامصار أيام عثمان ، وتواتر مسموعا ومكتوبا فهو فوق الشك وفوق الجدال ، ربما تختلف قراءات المسلمين له مدا وقصرا وامالة واطلاقا . ولكن سبعا من هذه القراءات تواترت وأجمعت عليها الامة ، ولابأس منها على النص لا فى لفظه ولا فى معناه : (وقد رتب القرآن — كما هو بين أيدينا — سورا منذ أيام النبى ، وقدمت فى المصحف طوال السور على أوساطها ، وأوساطها على قصارها ، ولم يراع فى هذا الترتيب نزول السور والآيات فى مكة او فى

المدينة ، ولا تاريخ نزول الآيات ، وانما وضعت الآيات حيث كان النبي يأمر ان توضع السور ، ونحن نجد البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في أول المصحف بعد الفاتحة مع انها مدنية ، ونجد الأنفال والتوبة ـ وهما مدنيتان ـ بين سور مكية ، وربما وجدنا في السورة المدنية آيات أنزلت بمكة ، وفي السورة المكية آيات أنزلت بالمدينة ، ذلك ان هذا الترتيب حسب مكان النزول وزمانه لم يراع ، وانما القرآن واحد جاء كله من عند الله وتلاه النبي على المسلمين كله كما أنزل .. وقد بين الرواة الأولون والعلماء من بعدهم أماكن نزول الآيات والسور وتاريخها ، وحاول بعض المستشرقين ان يرتب القرآن حسب تاريخ نزول السور فلم يصنعوا شيئا ، وترجم القرآن الى بعض اللغات الأجنبية أحيانا على هذا الترتيب التاريخي فكان هذا النحو من الترجمة والترتيب عبثا لا يدل على شيء ، وانما ينأى عما ألف المسلمون من الترتيب المعروف في المصحف) ـ مرآة الاسلام ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

ويلحظ الدكتور طه حسين لونا آخر من الاعجاز القرآني يتمثل في اطراد الاستنباطات العلمية غير المحدودة التي استنبطها المسلمون من القرآن : في الشريعة ، والتاريخ ، والتفسير ، واللغة ، والنحو ، والقراءات ، واللهجات ، والبلاغة ، والفلسفة .. وما تزال كنوزه العلمية قابلة لمزيد من الكشوف والاستنباطات .. أجل لقد فجر القرآن ثورة جدل علمي خارقة ، وليس بين الأجناس القولية ما نستطيع أن نزعم انه قد استقطب من اهتمامات الباحثين على كل الأصعدة بمثل ما استقطب القرآن ، وليس هناك نص يعرف له ما يعرف للقرآن من حفظ واستظهار وتأمل وشرح ، وليس في التراث الانساني كله شيء كالقرآن يقوم الألسنة العربية حين تلتوي بها اللهجات العامية المختلفة ، والأجنبية حين تلتوي بلغاتها المتباينة !

ويستطرد الدكتور طه حسين ليلمس قضية الاعجاز من وجهة أخرى ، هى قيام القرآن بالحفاظ التاريخى الذى لا ينتهى على اللغة العربية التى نزل بها ، والتى استهدفت لحملات ضارية وما تزال تستهدف لاضرى من هذه الحملات ، ومع ذلك فهى باقية بقاء الطود الأشم فى مواجهة كل الاعاصير : (والقرآن بعد هذا كله هو الذى حفظ اللغة العربية أن تذوب فى اللغات الأجنبية التى تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة فى عصور كثيرة وظروف مختلفة ، فقد تفرقت كلمة المسلمين فى السياسة وانحلت الخلافة العربية القديمة وخضع العرب لاستعمار الأعاجم ، حكمهم الفرس فى دار الخلافة نفسها أولا ، وحكمهم الترك بعد ذلك قرونا متصلة ، وجاء العصر الحديث فخضع العرب لسلطان الأجنبى الأوربى يقهرهم بالاستعمار والحكم المباشر لهم ، ويقهرهم مرة أخرى بالتفوق فى الحضارة المادية والمعنوية جميعا ويضطرهم الى أن يتعلموا اللغات الأوروبية ارضاء لحكامهم من الاوروبيين والتماسا لما فى هذه اللغات من علم وادب، وفلسفة وفن ، وكان هذا كله جديرا ان يمحق اللغة العربية محقا ، ويذهب شخصية الشعوب العربية ، ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع ، وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها ، حرص العرب على القرآن لانه يحفظ عليهم دينهم ، ولانه قوام حياتهم . فقرأه عامتهم وخاصتهم وحفظوا منه القليل والكثير ، ودرسه علماؤهم فى المساجد والمدارس ، واختلف اليهم ألوف كثيرة من الطلاب على تباعد الأمكنة والازمنة . واضطروا من أجل فهم القرآن ودرسه فى نعمق ان يدرسوا اللغة التى أنزل بها .. وأكثر من ذلك أن بعض الامم الاسلامية التى خضعت لسلطان العرب فى وقت مضى طوت قلوبها على بغض العرب والعروبة وأذتهم حين استطاعت ايذاء شديدا ، ولكنها على رغمها احتفظت بالقرآن لمكان الاسلام منها أو لمكانها من الاسلام فدرست القرآن ، ودرست لغته العربية ـ مرآة الاسلام ص ١٦٠ ـ ١٦١ ..

ثم يشير الدكتور طه حسين الى ان اختلاف مذاهب القول في القرآن دليل قوى من دلائل الاعجاز ، فللقرآن وحدته من حيث هو يدعو دائما الى أصول معينة ، فلا غرابة فى أن تختلف مذاهب القوم باختلاف ما تنحنى عليه هذه الاصول من مفردات يذهب كل قوم فى تفسيرها وتأويلها مذاهب شتى ، بينما تقف الاصول العامة بمنأى من هذا التخالف مشعة بوميضها الهائل فى دياجير كل العصور !!

وهكذا يتكامل الجانب التنظيرى فى فكر طه حسين حول قضية الاعجاز القرآنى ، ولكنه لا يقف بالقضية عند هذا المستوى التنظيرى فحسب ، وانما يتخطى هذا المستوى الى مستوى آخر هو المستوى التطبيقى ، وقد أعطى هنا كما أعطى هناك شيئا يستحق معاناة البحث والمقارنة والاستقصاء!!

- ٣ -

حين يستطرد الدكتور طه حسين من منطلقات حديثه عن الجانب التنظيرى فى قضية الاعجاز الى منطلقات حديثه عن الجانب التطبيقى فى هذه القضية ، نحس على الفور أنه ينتقل من شاطىء التأمل الموضوعى الى شاطىء التأمل الذاتى ، وان كنا نضع هنا نفس الاحتراز الذى نصر على ان نضعه دائما فى مثل هذا الصدد من ضرورة عدم الفصل الحاسم بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى لان النوعين يعملان معا ويتقارضان بعض الرقعة التى يتحركان على مساحتها فى رحلة البحث رجدلية الحوار !!

يعرض الدكتور طه حسين لقضية الاعجاز على المستوى التطبيقى من خلال قصة نوح فى سورتى « هود » و « الشعراء » ، ليبين انها

في سورة هود : (قد فصلت تفصيلا كاملا في غير تزيد ولا اسراف وأديت معانيها في آيات ليست بالطوال ولا بالقصار ، ولكنها تؤدى المعاني في دعة وهدوء ، يكون فيها الاطناب حين يحتاج المقام الى الاطناب ، ويكون فيها الايجاز حين يكون الايجاز أخذ للقلب وادل على ما أريدت الدلالة عليه من الهول الذى يصوره الايجاز أكثر مما يصوره الاطناب ، ومن الأمر الذى يصدر فينفذ أثر صدوره في غير تردد أو ابطاء) - مرآة الاسلام ص ١٦٣ - : (فأنت تقرؤها مفكرا فيها ، معتبرا في أحداثها ، لا يعجلك عن ذلك شيء ، وأنت معجب بانبساط الحديث ومضى القصة في أناة تؤدى المعاني مستوية ، ويأتي الايجاز حين يجب ان يأتي فلا يضيع عليك شيئا من تمهلك ولا يعجلك عن التأمل والتدبر) - مرآة الاسلام ص ١٧٢ ·

وينتقل الدكتور طه حسين الى سورة الشعراء ليتأمل نفس القصة التي تأخذ وضعا مغايرا ، فهى هنا قافزة سريعة : (وسورة الشعراء كلها تروع وتبهر بقصر آياتها وانسجامها في هذا القصر وفي انساق الفواصل في الآيات كلها) - مرآة الاسلام ص ١٧٢ : (وقصة نوح هنا موجزة أشد الايجاز ، لا يذكر فيها تفصيل العذاب الذى أخذ الله به الظالمين من قوم نوح ، وانما يكتفى بذكر اغراق الله لهم ، ولا يذكر فيها صنع الفلك وحمل من حمل نوع فيه ، ولا وصف الموج الذى جرت فيه السفينة ، ولا قصة ما أصاب ابن نوح من العذاب ، ولا الحديث بين نوح وربه ·· لا يذكر من هذا كله شيء ، وانما يقص الحوار بين نوح وقومه ، وأعراض قومه عن دعوته ، وانذارهم نوحا بالرجم ان لم ينته عن دعوته ودعاء الله نوحا ان ينجيه ، وما كان من نجاته في الفلك المشحون ونجاة من آمن معه واغراق الظالمين ، فقد اختصرت القصة هنا لان ما قصد اليه من القصص كلها في هذه السورة انما أريد به الى تذكير المشركين بآيات

الله فيمن سبقهم من الأمم ، وتخويفهم ان يصيبهم مثل ما أصاب تلك الامم ، واظهارهم على بطش الله بالظالمين ، وعلى الآيات الكبرى التى آتاها الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم .. ومن أجل هذا اكتفى بما يؤدى هذه الاغراض فى قوة وعنف يملكان على السامعين والقارئين أمرهم كله ، ومن أجل هذا أيضا أديت هذه الاغراض فى هذه الآيات القصار المتتابعة فى نسق واحد كأنها السيل المندفع الذى يغمر كل ما يلقاه ، أو كأنها الريح العاصفة التى لا تدع شيئا تأتى عليه الا دمرته تدميرا) ـ مرآة الاسلام ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

ويوغل الدكتور طه حسين أكثر فى الاتجاه التطبيقى الماثل هنا الى كثير من تعقيل الاحاسيس الذاتية والتأثرية ، فيقف مع اسلوب التكرار فى القرآن وقفة دارس فاحص ليلاحظ ان هذا التكرار (ملتزما) قد يجىء للانتقال من حديث الى حديث كما فى سورة « الصافات » وسورة « القمر » ... وقد يجىء هذا التكرار (غير ملتزم) وانما يرسل نظام الآيات ارسالا مع اتحاد الفواصل كما فى سور كثيرة من المفصل .. وفى القرآن اسلوب آخر من التكرار للتخويف حينا وللتعجيز حينا آخر كما فى سورة (المرسلات) من ختام الآيات دائما بقول الله عز وجل « ويل يومئذ للمكذبين » : (وأسلوب آخر فى القرآن تتسق فيه فواصل الآيات ويتلزم فيها أو فى أكثرها نسق بعينه كالذى تراه فى سورة « مريم من ختام » الآيات أو أكثرها بكلمات تنتهى بالياء المشددة المفتوحة ـ مرآة الاسلام ص ١٧٦ ـ : (وأسلوب آخر من الفواصل لا يلتزم فيه حرف بعينه كما التزمت الياء فى مريم ، أو حرفان كما التزمت الياء والنون فى الشعراء مثلا ، وانما تلتزم حركة بعينها هى الفتحة ، وان اختلفت الحروف فى أواخر الكلمات ، كالذى تراه فى سورة الكهف من التزام الكلمات المنصوبة أو المفتوحة الآخر) ـ مرآة الاسلام ص ١٧٧ .

ويضع الدكتور طه حسين ملاحظاته التى لا نشك فى انها تأثرية وذاتية يفصح عنها قوله الدائم : (وأكبر الظن ‥) و (يوشك ان ‥) الى آخر هذه الكلمات الملتصقة بقضية الذات أكثر من التصاقها بقضية الموضوع ، ولكن ملاحظاته التى يضعها على هذا النحو تشكل مع ذلك لونا من النفاذ العقلى الثاقب الذى لا يكف عن محاولة الاقتحام ‥ ان حديث الفواصل يثير فيها نزوعا الى تخصيص دراسة كاملة عنه لأنه أكثر تنوعا من ان يوجز فى فصل من كتاب : (وما نجده فيها من التنوع ان دل على شىء فانما يدل على ان القرآن قد أنزل ليتلى ، ويتلى فى صـوت يسمع ، ذلك يظهر تنوع الآيات فى خواتيمها وفواصلها ، ويظهر الوانا مختلفة تروع باختلافها من الموسيقى ، فاذا أضيف ذلك الى عذوبة الالفاظ واتساق النظم واختلاف الاسلوب باختلاف المقامات شدة ولينا وترغيبا وترهيبا وتبشيرا وانذارا ، لم يشك سامع أو قارىء فى ان فنون الاعجاز فى القرآن أكثر وأروع من ان تحصى أو يحاط بهـا) ــ مرآة الاسلام ص ١٧٩ .

وقريبا من هـذا النحو يضع الدكتـور طه حسين ملاحظات أخرى حول قضية الفواصل المتسقة وطبيعة ورودها فى القرآن ، فهى ليست عشوائية تساق هكذا عفوا : (وأكبر الظن ان التزام هذه الفواصل المتسقة انما يكون حين يتحد موضوع السورة أو يأتلف ائتلافا شديدا ، فسورة الشعراء مثلا قد اختلفت فيهـا قصص الامم التى كذبت رسلها ولكن موضوعها واحد هو التخويف والارهاب وانذار قريش وغيرها من مشركى العرب بان ما أصاب تلك الامم التى أصرت على تكذيب الرسل قد يصيبهم ان اصروا على تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم ‥ وسورة طه توشـك قصة موسى ان تستغرقها ‥ وفى سـورة مريم تمجيد للانبيـاء وتخويف للجاحدين ‥) مرآة الاسلام ص ١٧٩ .

وغير بعيد من هذا المنطلق يضع الدكتور طه حسين ملاحظات أخرى ذات صلة بالعلاقة الحميمة بين التزام هذه الفواصل من جهة ، وبين وحدة السورة من جهة أخرى : (وأكبر الظن أيضا ان الفواصل حين تلتزم على هذا النحو يدل التزامها على ان السورة أنزلت مرة واحدة ولم تنجم آياتها كما تكون الحال فى سورة أخرى لم تلتزم فيها الفواصل على هذا النحو ولم يتحد موضوعها أو يشتد الائتلاف بين موضوعاتها ان تعددت ، واتحاد الموضوع نفسه وشدة ائتلاف الموضوعات حين تتعدد قد يشعر بأن السورة أنزلت جملة واحدة وان لم يلتزم فى فواصلها ما نراه قد التزم فى السور التى اشرنا اليهـا • فسورة يوسف مثلا قد اتحـد موضوعها اتحادا لا شك فيه ، قد قصرت على قصة يوسف ، وما أرى الا انها أنزلت جملة • وقل مثل ذلك فى سورة هود ، أو فيما اشتمل عليها أكثرها من قصص الأمم التى كذبت رسلها) ــ مرآة الاسـلام ص ١٨٠ ــ (وكذلك سـور أخرى فى القرآن تكثر موضوعاتها وتتباعد الصلة بين هذه الموضـوعات ولا يلتزم فى فواصلها ولا فى اسلوبهـا نسـق بعينه منذ تبدأ الى ان تنتهى ، فسورة البقرة مثلا كثرت فيها الموضوعات وتباينت فدل هذا على ان السورة لم تنزل مرة واحدة وانمـا نجمت تنجيما) ــ مرآة الاسلام ص ١٨٣ ــ (وقل مثل هذا فى سائر سور القرآن الكريم، فكل سورة يتحد موضوعها أو تتداعى موضوعاتها تداعيا شديدا ويلتزم فيها نسق بعينه فيرجع انها نزلت جملة •• وكل سورة تختلف موضوعاتها وتتباعد ولا تتداعى ولا يلتزم فى آياتها نسق بعينه فيرجع انها نزلت منجمة) ــ مرآة الاسلام ص ١٨٩ •

يخيل الى ــ بعد هذه الرحلة الهائلة العطاء ــ اننا نستطيع ان نؤكد ان دراسة من هذه النوعية الفاهمة المستقصية قد تجاوزت بالفعل مناطق البوح الذاتى فى اعجابه المسطح ، وانه بمثل هـذا

الشمول النافذ قد استطاع الدكتور طه حسين أن يتأمل قضية الاعجاز من منظورين متكاملين ، فهو فى الجانب التنظيرى قد اعطى أسسا شارك فى بعضها وأضاف بعضها الآخر ، وهو فى الجانب التطبيقى قد أعطى انطباعات وافق فى شيء منها وخالف فى بعض من الأشياء ، ولكنه هنا وهناك قد اثبت بما لا يدع مجالا للشك بان الفكر المعاصر حين يتسلح بالوعى والاستبصار والدرس والأناة يستطيع ان يعطى لحركة الابداع اضافات يمكن ان تثرى وتخصب ، وهذا هو ما نهض به على مستوى من الفذاذة غير منكور !!

يبقى ان نؤكد فى نهاية الرحلة بان قضية الاعجاز فى القرآن ستظل شلالا هادرا بآلاف المعطيات ، وستبقى سماء منحنيه على ما لا يحد من الفضاءات والارتفاعات ، وفى وسع الفكر المعاصر أن يغامر وأن يقتحم وأن يعود بكنوز من الحقائق العلمية والفكرية والفنية ، فقط على هذا الفكر المعاصر حين يبدأ رحلة المغامرة والاقتحام أن يتوضأ بماء المحدودية والتواضع ، فان أبعاد عالم الكشف كلمات المبدع الأول التى هى : (القرآن) !!

حوار .. حول قضية قرآنية !!

لا أزعم اني فى هذه السطور سأستبدل قضية فى الفهم القرآنى بقضية أخرى .. فان التطوح وراء هذا الوهم الكبير مغامرة لا استطيع ان أحمل وزرها هكذا فى غرور .. كل الذى أستطيع أن أزعمه .. ان هذه المحاولة بكل ما تنحنى عليه من اخلاص للنص القرآنى .. يمكن ان تطرح فهما قد يكون جانحا .. وقد يكون سديدا .. ولكنه على أية حال .. نابع من منطلق ايمانى .. وصائر فيما يخيل الى .. الى غائية ايمانية كذلك .. والقرآن بعد .. مناط لا ينتهى لاجتهادات العقول المدربة على كل المسارات !! ... لقد يجوز ان نتفق حول فهمنا « الانسانى » للقرآن الكريم أو نختلف .. ولكن الذى لا يجوز بحق هو ان نغلق فى وجه كل المحاولات كل النوافذ .. أو ان نصادر فهما فى القرآن لا يلهث على دروب مهدها السابقون .. مهما كان انتماؤنا المجذر لهم .. واعتزازنا بهم .. ان معنى ذلك لو حدث .. اننا نلغى تواتر الزمن .. وتهادر العصور .. ان معناه ان حركة الفكر الاسلامى صائرة الى الجمود والبوار .. ان معناه ان المعاصرة

ارتداد ‥ والمخاطرة دوران ‥ والتطور خرافة ٠ وليس منطقا محكوما بالقوانين !!

لقد تسعف الباحث عشرات الأمثلة ‥ على أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى لم يحتكر الفهم لطائفة معينة ‥ وان أساس تحركه « المجموع » لا « المفرد » وان حرية الفكر ‥ والفهم ‥ والتوافق ‥ والتخالف ‥ والالتحام ‥ والانشقاق ‥ كل أولئك كان بعض صيحاته الأولى التى ما تزال حتى اليوم عاملة فى مناطق الفكر ‥ جالبة « للاسلام » وليس « على الاسلام » أروع قضايا التأييد العادل ‥ والراشد ‥ والغائص فى حقائق الأشياء !! صحيح أن الاسلام بما هو دين شمولى ‥ يضع شروطا لأهلية الفهم والاستيعاب من جهة ‥ وأهلية المنح والعطاء « الفكرى » من جهة أخرى ‥ ولا يترك العطاء ‥ والمنح ‥ والاستيعاب ‥ والفهم ‥ حديقة مفتوحة الأبواب لكل الجائلين ان الشروط التى يضعها الاسلام « للاجتهاد » مثلا ‥ هى من نوع ما يمكن ان يسمى « بالحوافز البنائية » لأن بناء الفكر القادر على الفهم معادلة تحتاج الى مساحات زمنية ‥ وثقافية ‥ وسلوكية ‥ وايمانية ‥ بلا حدود ‥ ان الشروط هنا لا تشكل نوعا من العبء الباهظ المقعد ‥ بقدر ما تشكل لونا من ألوان التحدى لذاكرة المجموع البشرى ‥ يشحذ ولا يثبط ‥ يعمق ولا يسطح ‥ ان الشروط هنا تكاد تكون شروطا تاريخية لأزمة لتدفق تيار التاريخ فى الزمن ‥ والزمن فى التاريخ !!

القضية التى أطرحها من خلال هذه السطور يمكن ان تعايش قضايا أخرى ‥ ويمكن ان تستفيد من كل القضايا ‥ وأيضا يمكن ان تعطى فائدة من لون ما لهذه القضايا جميعا ‥ وهى كما قلت ‥ قضية « فهم » وليست قضية « اعتقاد » ولئن لم يجز لنا أن نختلف حول عقائديات وصلنا معها الى درجة اليقين ‥ فقد

يجوز لنا ان تختلف حول مفاهيم ٠٠ قابلة بالضرورة لمزيد من الحركة ٠٠ ومزيد من الحوار !!

القضية التى أطرحها الآن ٠٠ هى قضـية « الترهيب ٠٠ والترغيب » فى القرآن الكريم ٠٠ لا أعنى « الترهيب » فى شكله العام ٠٠ ولا أعنى « الترغيب » فى شكله العام كذلك ٠٠ فان دينا من الأديان ٠٠ أو حتى اطـارا من الأطر الاجتماعيـة البحتة ٠٠ لا يمكن أن يسقط من حسـابه قضية الترهيب والترغيب ٠٠ الا اذا أسقط من حسابه أساسا رغبته المشروعة فى البقاء ٠٠ وحفاظه الأكيد على ان يظل فى مناطق التحقق والحلول ٠٠ اننى أعنى على وجه التحديد قضـية الترهيب والترغيب فى مخاطبـة الفطرة بالعقيدة ٠٠ ان خطاب القرآن « للذين آمنوا » بترهيب مرة ٠٠ وترغيب مرة أخرى ٠٠ مبرر « انسانيا » على كل المستويات ٠٠ لأن التزام المؤمن بايمانه يجب ان يظل دائما فى مناطق الضوء ٠٠ يجب أن يظل دائما فى حراسة النمط التشريعى ٠٠ ولكن خطاب القرآن الكريم « للناس » عامة ٠٠ بترهيب مرة ٠٠ وترغيب مرة أخرى ٠٠ هو الذى يثير هذا التساؤل ، وبالضرورة يستدعى هذه الاجابة التى نطرحها من خلال هذه السطور ٠٠٠

التساؤل الذى يثار هنا ٠٠ هو : لماذا لم يطرح القرآن الكريم قضاياه العقائدية ٠٠ والسلوكية « للذين لم يؤمنوا بعد » طرحا موضوعيا محايدا دون رهبوت ما ٠٠ ودون رغبوت ما كذلك ٠٠ حتى تتحقق للناس عناصر المحربة الاولى فى التلقى أو الطرح ؟؟ فى القبول او الرفض ؟؟ ان قضية عقائدية تسـاق فى حـراسة مدججة من الوعيد والوعد ٠٠ معناه أن ايمان المتلقى يكون خاضعا بالضرورة لسيف ملوح ٠٠ أو جنة موعودة ٠٠ معناه كذلك أن

قضية « الايمان » اذا طرحت على هـــذا النحو ٠٠ أو اعتنقت على هذا المستوى .. تكون قضية بلا فهم .. بما هى خاضـــعة فى اساسها لسيف الخوف .. أو اغراء الخلود !! معناه أن «الحرية» هنا مصفودة .. وأن «الطوع» هنا مفروض !! اذن لماذا يطرح القرآن القضية هكذا فى آيات من سورة البقرة : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون .. الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من الســماء ماء فأخــرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعــلوا لله أندادا وأنتم تعلمون .. وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ٠٠ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .. وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمــرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون . » ؟؟

لماذا تساق القضية على هذا النحو ... فى هــذه الصــيغة المتوعدة مرة ... والمؤملة مرة أخرى ؟ اليس فى هذا قسرا للحرية؟ اليس فيه كسرا لارادات القبول والرفض فى الانسان ؟؟

باستقراء ــ غير شامل بالطبع ــ لما قاله المفسرون ٠٠ وعلماء الكلام .. وفلاسفة المسلمين فى هــذا الصدد ... نســتطيع أن نستخلص جوهر ماقالوه اجابة على هذا التساؤل .. يقولون ان هذا الاسلوب «الترهيبى ... الترغيبى» معا .. مما يزع النفس الامارة بالسوء .. ومما يغرس فيها وجدانها الحى الذى يرتعش امام زواجر التهديد .. ويتفتح للوعد برحلة فى النعيم ... ولانه هكذا ملائم لطبــائع الخلق ومخلوقية المخلوقين .. فهــو أروع

أساليب التربية وأقمنها جميعا بروعة الديمومة .. والانتماء لمصادر الخلود !!

هكذا يقولون وهو قول حقيقي اذا كان المراد من التساؤل أن نقف على نوعية التربية فى القرآن الكريم .. ولكن ما هكذا كان التساؤل حول هذه القضية .. ان الحوار المتفجر هنا ليس دائرا حول صوابية هذا المنهج «التربوى» فى القرآن انحسارا أو مدا .. فللقرآن دائما صيغته الراشدة فى هذا الصدد .. وانما هو دائر أساسا حول موضوعية العرض القرآنى .. أو انحسار هذه الموضوعية من خلال الترهيب والترغيب فى المتلقى الذى ينبغى أن نصون له حرية القبول والرفض فى لحظات بدء المخاطبة .. كما يجلجل بذلك القرآن الكريم نفسه .. وكما تؤكده كل تفاسير الرائعين من أسلافنا الكبار .. « فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر .. » !! «ليهلك من هلك عن بينة .. ويحيا من حى عن بينة» !! أى ان عرض القضايا فى القرآن كان ينبغى أن يكون موضوعيا بحتا .. بلا تلويح بثواب .. أو تعريض بعقاب !! أو هكذا يقولون !!

هنا لابد من معايشة حقيقية لمنطلق الفهم فى القرآن الكريم فان ذلك وحده هو القادر على أن يعطينا اجابة مغايرة تماما .. أو قل .. هو القادر على أن يعطينا اجابة صميمية على هذا التساؤل .. وليس اجابة عن شيء لايثور من حوله الحوار .. فلو أن القرآن الكريم — وذلك من منطق جدلى مفترض — ساق تعاليمه كما يقال فى «موضوعية» بحتة .. دون ترهيب وترغيب .. لأمكن وقتها أن يقال : ان الله متكيء هنا على مفردات الطاعة المركوزة «خلقيا» فى طبائع البشر .. بمعنى انه خلق فيهم فطرة الاستجابة .. وجعلهم أسرى هذه الفطرة .. فهو يخاطبهم فى موضوعية بحتة وهو عالم تماما أنهم لابد مستجيبون له .. لانهم

واقعون بالضرورة فى منطقة « القبول » الفطرى المركوز فيهم حتى من قبل لحظة الميلاد !! اذن .. فالقرآن حين يهدد تارة .. ويؤمل تارة أخرى .. فكأنه يفترض فى الانسان ابتداء حرية أن يقول «نعم» وحرية أن يقول «لا» .. والا لما تهدد الرافض .. وتودد المريد .. انه يعطى الانسان شهادة حريته فى نفس اللحظة التى قال الله له فيها «كن» .. «فكان» !! ثم يخاطب فيه هذه الحرية وهذه الارادة .. فى محاولة حادبة بالفعل الى ترشيد ارادته الحرة .. وحرياته الارادية اذا شئنا ان نقول .. وكم فى القرآن العظيم من كنوز !!

اذن .. فقضية الترهيب والترغيب فى هذا الضوء لايمكن أن تكون خروجا على «موضوعية» منشودة .. بقدر ماهى تأصيل لمفهوم «الموضوعية» فى أروع أنساقها جميعا .. ولايمكن أن تكون كذلك افتياتا على حرية المتلقى الانسان .. بقدر ماهى ترسيخ لحقائق هذه الحرية .. وحقائق وضعية الانسان ازاء هذه الحرية بالذات !!

ان قضية الترغيب والترغيب الى جوار كونها اسلوبا فى التربية .. وصيغة فى ترشيد العلاقات الكونية .. كما لاحظ بحق أسلافنا الكبار .. تشكل فى النهاية تأكيدات جذرية لحرية الانسان على الارض .. وامتلاكه الواعى لمصائره وأقداره .. وبالتالى لأهليته المطلقة لقضية الحساب .. والثواب .. والعقاب .. انك فى حاجة الى تهديد الانسان القابض على حريته حتى تظفر منه بولاء مراد .. وانت فى حاجة كذلك الى ترضيته للظفر منه بكل الولاءات .. انك حين تهدد أو تسترضى انما تخاطب فيه حريته .. حريته القادرة فى كل اللحظات أن ترفض دائما .. أو تقبل بلا حدود !! ولكنك لست فى حاجة الى تهديد او مناشدة الانسان فيما هو مركوز فيه بالطبيعة .. انت لاتناشده حركة

الفكر .. فان الفكر مزروع فيه منذ البدء .. حتى وهو يرفض أن يفكر .. فانه من خلال ذلك يفكر فى انه يرفض أن يفكر !! انت لاتهدد أو تناشد الانسان أن يأكل .. فان الجوع حركة كيانية غير قابلة لصيغة من صيغ المساومات .. مهما كان محتواها .. فوقيا .. أو تحتيا !!

ترى .. هل أولحت فى الافصاع عما أريد أن أقوله ؟ ان اللاغطين بقضايا العصر من «موضوعية» الى «حيادية» الى «حرية القبول والرفض» يجب أن نجرى معهم دائما مزيدا من الحوار .. لا أن نغلق دونهم آذاننا حتى الصمم .. ان ارتباط «الموضوعية» بتعريتها تماما من الزجر والاغراء يلغى فطرة الحرية فى المتلقى .. أو يوشك أن يكون .. أما ان أعرض القضية عرضا « موضوعيا » فى بادىء الأمر .. ثم أردف هذا العرض بترهيب معين أو ترغيب معين .. فمعنى ذلك بلا حدود اننى أفترض فى المتلقى حرية بلا حدود كذلك .. وهذا مافعلته الآيات الكريمة من سورة البقرة فى خطابها «للناس» لقد أهابت بكل الجموع أن تعبد ربها الواحد .. بما هى مخلوقة له أولا .. ثم بما هى عائشة على أرضه وتحت سمائه وفى أحضان آلائه ثانيا .. ثم انتقلت الآيات الكريمة الى لون من الجدل العقلى الرشيد .. متحدية كل ملكات الابداع فى المعارضين .. حتى اذا احسسنا مع الآيات بوجوم المعارضة .. وتعطيلها المطلق لكل امكانيات الفعل .. وتخريبها الغبى لكل طاقات الايجاب .. كان تقبلنا الطبيعى لقعقعة النذير فى هذا السياق : «فان لم تفعلوا .. ولن تفعلوا .. فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » !!

ان افتراض حرية المتلقى هنا موجود بلا جدال .. ولكن القرآن الكريم يعلمنا أن الحرية ليست تعطيلا مطلقا .. وليست

رفضا بلا سبب .،. والا كان معنى ذلك أن نعفى كل الوجود من كل الفكر .. ليستحيل بدءا بلا هدف ..، وصيرورة بلا غاية .. وانتهاء الى خواء عبثى على الاطلاق !!

ان التساؤل الذى طرح تساؤل جاد من غير شك..ولا ينبغى أن ندينه على أى مستوى من المستويات ،.. فالفكر الاسلامى أرحب من أن ينغلق على نفسه .. وأثرى من أن يشهر افلاسه أمام تساؤل معاصر مهما كان لون هذا التساؤل ... ومن أى مآتى جاء .. ان الثقافة الوافدة تحمل الينا أعاصيرها بغير حد .. ولن يفلح اسلوب الكبت .،. أو اللامبالاة فىمعالجة عقابيلها فى وجدانات شبابنا الطالعمهما قيل من مبررات .. انالحوار الفاهم المتصدى وحده ..، هو الذى يمكن أن يصوب .. أو يخطىء .. يهدى ،.. أو يضل .. يقف الانسان المعاصر امام قدره «مع» أو «ضد» كل الأشياء ، ان هذه المعية ..أو هذه الضدية هى العاصم اليوم من طوفان اللامبالاة .. انالمعية تضيف الى الصف الملتزم مقاتلين .،. كما أن الضدية تبرز من بين الصفوف الملتزمة مقاتلين .. فالفكر الدينى هو المنتصر فى كل من هذه الجولات !!

ولست أزعم كما قلت فى مطالع هذه السطور أن هذا الفهم لقضية من قضايا قرآننا العظيم يمكن أن يستبدل شيئا بشىء .. بقدر ماهو محاولة لاضافة شىء الى شىء ،.. وبقدر ماهو فى النهاية محاولة لفتح جبهات الحوار مع الفكر العالمى المعاصر .. المسلح ــ شئنا أو أبينا ــ بفلسفات مقتحمة غائرة العمق ..، مما يهيب بكل الطلائع على أرضنا المسلمة أن تنهض الى دورها الريادى .. وأن تفتح صدورها جيدا للرصاص والحوار .. غير عابئة بشىء .،. الا بما يتضرب داخلها من روافد العطاء .. وما يجيش فى أطوائها من توافق مع الكون ..، انسانه .. وأشيائه .. وقيمه الرائعة !!

ومخطئا قد أكون !!

ومقتحما قد أبدو !!

ولكنى فى نهاية الامر .. هادف الى ترشيد وعيى العقائدى بلا مبالاة من سيف .. بلا انتظار لهدايا من مطـر السـماء .. فالسـماء كمـا علمنا « ابن الخطاب » لا تمطر ذهبا ٠٠ ولا تمطر فضـة !!

من مناهج التربية فى القرآن

اذا كان لكل دعوة كتابها القائد ، وأسلوبها القاصد ، ومنهجها السوى فى استقطاب ومعالجة الطبائع البشرية ، فان القرآن العظيم هو كتاب الدعوة الاسلامية ، واسلوبها ومنهج حياتها جميعا ، وأروع ما فى هذا القرآن الالهى المعجز انه لا يقف فى معـــالجة الطبائع البشرية عند حافة جامدة لا يتعداها الى غيرها من مناطق . وانما هو على النقيض من ذلك تماما .. انه يتخطى فى محاولاته لاستنقاذ الطبائع الجانحة من اسلوب الى اسلوب ، ومن منهج الى منهج ، باذلا من اكتناره الذاتي بالعطاء لكل قضية جانحة ما يلائم طبيعة تكوينها البدنى ، وطبيعة مسارها الحياتى ، وطبيعة تشكلها الأخير فى أى من الأنماط ..ان ما يوائم قطاعا من الطبائع البشرية قد لا يوائم قطاعا آخر ، ومن هنا .. فان تعدد أساليب الحوار مع شتى أنماط هذه الطبائع يلوح فى نهاية الأمر ضرورة حتمية بما هو حركة على صعيد الواقع المتحرك الحى ، وليس ضربة لازب جمدت نفسها على مستوى واحد من مستويات فهمها لتيارات دافقة بلا حدود !!

قد يخاطب القرآن نمطا من أنماط الطبائع البشرية مرتفقا فى ذلك نوعا من « الترهيب » أو نوعا من « الترغيب » ·· مؤكدا فى قضية هذا الارتفاق قضية حرية الانسان ، لان نمطا من أنماط التشريع الالهى يخاطب البشر واعدا مرة ، ومتوعدا أخرى انما يوحى بالضرورة معنى انه أعطى الانسان منذ البدء حرية ان يقول « لا » وحرية ان يقول « نعم » ·· لان القابض على حريته هو وحده القادر على حركة القبول أو حركة الرفض· وهو وحده بالضرورة كذلك مناط الوعد أو مناط الوعيد ·· ان الانسان فى منطقة انتفاء حريته القابلة أو الرافضة ليس مناط وعد أو وعيد ، بما هو صائر بالضرورة الى حتمية الطوع هكذا كما تكون حركة الانحدار الساذجة من ليل الى نهار ، ومن نهار الى ليل ·· ولكنه فى منطقة احتيازه لحريته ·· أعنى فى منطقة اندفاعه الى معاقرة الجنوح ، أو امكان ارتفاعه الى معانقة الصـــواب ، يكون بالضرورة منـــاط الحدب من الجانب التشريعى ، فمرة يلوح له التشريع بفداحة العقاب ومرة يلوح له بالخلود !!

وقد يخاطب القرآن نمطا من أنماط الطبائع البشرية مرتفقا فى ذلك أسلوبا بين بين ــ وهو ما نريد أن نتأمل محاور فلسفته فى هذا اللقاء ــ وأعنى بذلك الأسلوب أن يبدأ القرآن العظيم من منطلق موضوعى ، فهو يعرض القضية فى حيادية من غير تحريض ·· كما فى قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » وان كنا تستطيع أن نستشف من خلال هـــذا السياق فى العرض انحياز المنطق القرآنى مع « الحسنة » وضد « السيئة » · الا ان هـــذه الضدية أو المعية جميعا لا تنفى قضية الحياد فى العرض، لأن منطق طبائع الأشياء يرفض استواء الجانب الأشرق « الحسنة » والجانب الأحلك « السيئة » فاذا جاء المنطق القرآنى بتقرير هـــذا الواقع الموضوعى فان ذلك لا يطعن فى قضية حياديته ، ولا يعطى عرض

القضية على هذا المستوى غير معناها الحيادى المنصف الغائر فى طبائع الأشياء !!

ثم يترقى القرآن العظيم فى قضية العرض من مستوى الحيادية الصارمة الى مستوى التعاطف مع الجانب الأشرق : « ادفع بالتى هى أحسن » ٠٠ لأن القرآن ليس نصا من النصوص البلاغية الجامدة التى لا يهمها فى حركة التعبير الا أن تجىء ذروة فى تقنية الحركة ، وقمة فى اعجاز السياق ، ثم لا شىء !! ان هذا المنزع الجمالى البحت يعرى القرآن العظيم من أروع ملامح ذاته الفذة ، انه ليس كتابا لاثارة النشوة الفنية فى قارىء مسترخ على وسائد الفهم الساذج لحقائق الكون أو حقائق التاريخ ٠٠ انه كتاب لاشعال الحرائق فى كل شىء ٠٠ فى الفكر المسطح ٠٠ والكون اللزج ٠٠ وطواطم التاريخ منذ البدء وحتى نهاية الرحلة ٠٠ وبما هو كذلك بالدرجة الأولى فان همومه الأساسية هى هموم انسان هذا الكون ، ان شقاء الانسان الكادح على الأرض بعض من ضرورة التنزيل ، ومن هنا ٠٠ فان تعاطفه البدئى مع الجانب الاشرق فى كل شىء ، وهو هنا « الحسنة » يبدو منطقا متوازن الحركة ، متساوق الايقاع ، مشدودا الى جذور طبيعته كنص الهى يجىء لمساندة الخطى الحائرة لانسان هذا العصر ، وما قبل هذا العصر ، وما بعد هذا العصر ٠٠ أعنى انسان كل العصور !!

ثم يترقى القرآن العظيم فى قضية العرض من مستوى التعاطف مع الجانب الاشرق الى مستوى تتويج القضية بمحصلة مقدماتها جميعا ٠٠ «فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» ٠٠ وفى هذه المحصلة أو قل هذه النتيجة يتأكد احتواء القرآن فى حركة مده الوجودى على انسان هذه الأرض ، بكل عذاباته الراعفة ، وبكل معاناته اليقظى فى رحلة القرار على شاطىء مأمون ان طرح القضية على مستوى موضوعى منذ لحظة البدء ٠٠ ثم الانحياز

الراشد المسئول الى جانب القضية الاشرق ٠٠ ثم التهدى من خلال ذلك كله الى نتيجة واعية ومنطقية لهذه القضية ، انما كان من أجل شيء صميمي ، وليس من أجل لا شيء ٠٠ ان صفاء العلاقة بين الانسان والانسان على هذه الأرض ٠٠ وترشيد حواس البشر في قضية هذه العلاقة ٠٠ وتصويب منطق الدفع والمدافعة ٠٠ والصداقة والعدائية ٠٠ حتى الحسنة والسيئة ٠٠ ان كل ذلك وأشياء من وراء ذلك كله، انما هو فى نهاية الامر بعض مآرب الرحلة القرآنية الخاطفة فى هذه الآية الواحدة المليئة بآلاف الكنوز !!

بدأ القرآن ـ من خلال هذه الآية ـ بعرض القضية على مستوى موضوعى ٠٠ ثم ترقى الى التعاطف مع جانب القضية الاشرق ٠٠ ثم أعطى ذروة الفعل فى نتيجة القضية ٠٠ وهذا ما قصدت اليه حين قلت فى مطالع هذا اللقاء ٠ ان للقرآن مناهجه الفذة فى معالجة الطبائع البشرية ومواءمة هذه الطبائع بما يتوافق معها من أساليب التربية ، وانماط الحوارات !!

هذا وجه القضية فى شكله الموضوعى ـ أقول هذا خضوعا لمنطق فهمنا القاصر فى حركة التصدى لما هو بالضرورة اثرى من مناطق العطاء فى أفهامنا جميعا ـ !! ولكن للقضية وجهها الآخر الذى نستطيع أن نسميه : وجهها التطبيقى ٠٠ ففى أى شيء لا تستوى الحسنة ولا السيئة ؟

وفى أى المواجهات ندفع أو ندافع بالتى هى أحسن ؟

وما القيمة الحقيقية لولاءات العدو حين يستحيل من خلال تعامل ما الى حميم ؟

ان معانقة المنطق الصوابى فى وجه القضية التطبيقى يفضى فى النهاية الى تكامل المنهج القرآنى فى التربية ، أو قل الى تكامل فهمنا لمنطق المنهج القرآنى فى التربية فذلك اهدى وأصدق ٠٠

حقيقى ان صيحة القرآن العظيم : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » انما تعبر عن حقيقة كونية راسخة ، فلا استواء بين السيئة والحسنة في قيمتهما الموضوعية ، من حيث كون الحسنة منطق الخير فى الطبيعة ، ومنطق العدل فى العلائق ، ومنطق الضوء فى ظلمات الدروب !!! ولا استواء بين الحسنة والسيئة فى قيمتهما الاجتماعية من حيث كون الحسنة اقدر على الفعل ، وأهدى فى الحركة ، وأكثر قابلية لمعايشة البشر على أرض زاخرة بالتناقضات !!! ولا استواء بين السيئة والحسنة في قيمتهما الصراعية ، من حيث كون الحسنة فى نهاية الأمر هى مناط الغلبة ، أو مناط الانتصار بما هى منطق الايجاب فى مواجهة منطق السـلب ·· وبما هى شريعة الحب فى مواجهة شرائع التدمير !!

وحقيقى ·· ان صيحة القرآن العظيم : « ادفع بالتى هى أحسن » ، انما نعبر عن فلسفة كونية أرسخ رسوخا ، لان الدفع هنا ليس مواجهة الشر الكاسح بالخير المسالم كما قد يظن ، ان دفع الشر بالشر قد يكون مضمون « التى هى أحسن » حين يستحيل الشر الى قوة هاجمة لا ضمير لها ولا منطق !!! فى البـــدء ·· لابد من معالجة الشر بالخير ، والسيئة بالحسنة ، والوبال بمزيد من الكمال فاذا لم يفطن الشر الى منطق الخير فى هذه المدافعة العاقلة ، انتضى الخير كل اسلحته ورمى بها فى صدور الشر من كل اتجاه ، وفى كل اتجاه ،! وليس الدفع بالتى هى أحسن قضية موقف واحد قتالى قد يكون··ان له محاور غير محدودة يدور في مستوياتها جميعا··فقد يكون الدفع فى المجال الخلقى بالتسامح والصفح··وقد يكون فى المجال النفسى بالتعاطف والحب ·· وقد يكون فى المجال الحياتى بشرف الكلمة وطهارة السلوك ·· وقد يكون فى المجال الانسانى بمزيد من الزمالة والسلام ·· وقد يكون فى المجال الفكرى بتأصيل قضية الفهم وتفتيح نوافذ الحوار·· وقد يكون فى المجال العقائدى بفدائية الحركة

وايمانية الاصرار ٠٠ الى آخر ما يمكن أن نؤصل له فى هذا المنطلق من منادح الرؤية وآفاق لتنظير ٠٠.

وحقيقى فى نهاية الامر ان صيحة القرآن العظيم : « فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ٠٠ انما تعبر عن هموم الدعوة والداعية ، وتختصر فلسفة موقف القرآن من كادح هذه الأرض « الانسان » !!! ان العداء المخرب لسوء العلاقة الانسانية هنا قد يكون عداء عقائديا يجب ان يتحرك المسلم لبتره أو تعديله بما هو مناط الفهم العقائدى الحافز على حركة التواصل وليس على جبرية الانفصال !! وقد يكون عداء طبقيا يجب ان يتحرك المسلم لبتره او تعديله بما هو مناط التعاطف الكـونى الذى يدنى طبقة من طبقة وانسانا من انسان ، بكل ما خطط «الاسلام» له الى ذلك الهدف من طرائق، وبكل ما اشترع له الى ذلك من وسائل وغايات!! وقد يكون اجتماعيا دائرا فى مستوى «الشىء» لمن هو ؟ والى من هو ؟ الى آخر ما يطرح فى هذا المجال من أسئلة تافهة القرار ٠٠ ان وضعية المسلم بما هو مناط التوازن الوضعى فى كونه توجب عليه ان يتحرك لبتر هذا العداء أو تعديله ، ليس بمجرد مزيد من الشعارات أو مزيد من غلبة الرأى ، وانما باحقاق قضية الحق ، وتدمير قناطر الباطل ، ليتيح بذلك للجمال الالهى ان ينقل خطواته على الأرض ناشرا اجنحته على الناس !!

ان ذلك المنهج السوى فى فهم صيحات قرآننا العظيم الثلاث : ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ٠٠ « ادفع بالتى هى أحسن ٠٠ فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ٠٠ انما يغطينا أسلحة انتصارنا الحتمى فى كل معارك النضال على كل مستوياته الآنية وغير الآنية ونستطيع نحن بمزيد من تأمل النص ، والحوار الراشد مع منطق الآيات ، ان نفجر فيها شلالات بغير حدود من المعانى والقضايا، وآفاقا من الفكر لا تنتهى الى حدود !!

وحتى لا نفقد ضوء عيوننا فى نهار الألق ، فقد يتحتم أن تعود الى المحاور الصميمية لهذه الرحلة ، لنستبين بعضا من مناهج التربية فى القرآن العظيم ، أو قل بعضا من مناهج القرآن العظيم فى التربية وهى ربما على وجه مقارب : عرض القضية فى موضوعية هادئة وبلا ضجيج ٠٠ ثم الانحياز الفاهم الى الجانب الاشرق من هذه القضية ٠٠ ثم تجلية الغائية التى يمكن أن نحتازها فى نهاية الرحلة ٠٠ والقرآن العظيم فى كل أولئك جميعا لا يعطى للقضية وجهها الأكاديمى أو الميتافيزيقى وحده ، وانما هو يؤكد على طول المسار حتمية انتماء الشعار للواقع ، وحتمية انتماء كل القضايا الى وجودية الانسان ، ولعل هـذا المنطلق المزاوج بالضرورة بين الشعار والواقع ، وبين حركة الفكر وحركة الساعد ، وبين تراب هذه الأرض وضوء المصابيح فى السماء ٠٠ لعل هـذا المنطلق هو ما يميز الاسـلام فى معترك الشرائع ، وهو ما يعطيه امكانية أن يحيا على الأرض ٠٠ فاعلا أبدا ٠٠ قائدا دائما ٠٠ قابلا للعطاء هكذا بلا جمود !!

فليكن قرآننا العظيم محور الحركة فى وجودنا الحى ٠٠

وليكن فهمنا نافذة مفتوحة على كل المنادح ٠٠

ولنكن نحن طلائع الزحف المقدس ٠٠ الى تخوم رائعة بلا تخوم !!!

هذا الزحف.. من يتصدى له ؟؟

هذا الزحف .. من يتصدى له ؟؟

- ١ -

الصمت لا يجدى .. وليس يجدى كذلك أن نتجاهل الواقع الآتى الذى يدوس بغلاظة فاحشة على ما كان واقعا آنيا فى مرحلة من مراحل تاريخنا المفدوح!!

الصمت لا يجدى .. لان جدلا عقائديا يصمت أحد طرفيه ، ينتهى فى نهاية الأمر الى غلبة الجانب الصائت على الجانب الصامت، وينتهى كذلك الى عزلة باردة يقبع فى دياجيرها ذلك اللائذ بصمته، الهارب من حركة الجدل الى سكونية الغباء !!

وليس يجدى كذلك تجاهل الواقع..لان الواقع الموضوعى لا يستحيل خرافة اذا نحن - كجيل - تجاهلناه ، وربما كان النقيض هو الحقيقى ، أعنى أن تجاهلنا البليد لواقع موضـــوعى مدجج بآلاف الأسلحة .. هو وحده الذى يتيح لهذا الواقع أن يعزز مواقعه ، وأن يكتشف من خلال التجريب والتخريب جميعـا أروع وسائل زحفه ، وأرحب امكانيات انتصاره !!

فلنكسر كل قضبان صمتنا الفاجع !!

ولنحرك طاقاتنا فى اتجــاه المبالاة وليس فى اتجــاه اللامبالاة !!

ولتكن عيوننا مفتــوحة .. فان الخــدر الذى يسرى فى أوصالنا بلا حدود يكتف من تراكمات الصدأ الحضارى الذى نعانى من غبائه الوبيل !!

أدرى أننى بدأت هجــوميا بلا تحفظ ، عدوانيــا أكاد أن أكون ، وعن عمد فعلت .. لان مسلمة باهظة عشش في أخلاد هذا الجيل توشك أن تفرض منطقها الهابط على كل العقول ، وهى ان عقائديتها ليست فى حاجة الى من يناضل عنها ، وليست فى حاجة الى من يدعــو لها ، لان هــذه العقائدية تملك من قدراتها الذاتية على الاشعاع والتوصيل ما يغنيها عن معاناة الدعاة ، وكدح الراشدين !!

ان هذه المسلمة الباهظة غبية من جانبين :

أولهما : ان دينــا من الأديان لا يمــكن أن يكون قادرا « بذاته » على الفتح ، أو حتى على الدفاع !! لابد من « رسول » لكل رسالة .. من « نبى » لكل دين .. من « دعاة » على مستوى الفهم والاصرار والاستعداد كل يوم للشهادة لكل عقائدية تريد لدورها أن يؤدى ، ولضوئها أن ينساح فى آفاق البقاء !!

وثانيهما : ان امكانيــة الخلود فى دين من الأديان تكمن بالضرورة فى كونه قابلا لمزيد من الكشف ، ولمزيد من العطاءات، بما هو بالضرورة كذلك أكبر من أن يحتويه عصر ، وأرحب من أن يحتازه جيل ، وأثرى من أن يجف فيه الخصب بعــد أول قطاف !!

والاسلام واحد من الأديان السماوية الخالدة التى لم تنزل من السماء الى الأرض هكذا فى ليونة ونعومة وانسياب ‧‧ لقد عانده من عاند ، وكفر به من كفر ، وسل عليه السيف غير جيل وغير قبيل ، ولم يقف مناط وحيه العظيم «محمد» موقف اللامبالاة والاتكال ‧‧ لقد أشعل فى قلب العالم وعقله جميعا ثورة جدل فكرى وحضارى ما تزال قابضة على أعناق هذا العالم حتى اليوم ‧‧ ولقد رفض ـ غير مرة ـ أن يخلع « لامته » حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه !! ان الثائر فى محمد لم يمت ولا ينبغى له أن يموت ، ولست أعنى بالثائر هنا مجرد القابض على سيفه ‧‧ ولكنى أعنى به كذلك الثائر على بلادة الفكر ، والثائر على نضوب الوجدان ، والثائر على بتر التواصل الكونى بين انسان هذا الكون وخالقه المحرك لكل قوانين النبض فى الأشياء !!

هذه مقدمة كان لابد منها ‧‧ لنخلص بعد الى ما نحن بصدد الحديث عنه ، والحوار من حوله ، فقد حرجت الصدور من طول معاناتها بلا حدود !!

القضية ‧‧ ليست أن نختار هنا أو لا نختار ، ولكنها على المستوى الفكرى والعقائدى جميعا أن نكون أو لا نكون !! ولست أدعو من خلال هذه السطور الى مصادرة القضية النقيض ‧‧ فان أبعد الأشياء عن تصورى أن يستحيل الفكر فى يدنا الى جلاد يهزم بالسوط معارضيه ‧‧ ان الفكر لا يمكن أن يكون الا بطلا شريفا ، الحرف بالحرف ، والقضية بالقضية ، والحوار بمزيد من الحوار ‧‧ وثقوا معى ان الفكر المعارض يعطى القضية أكثر مما يعطيها الفكر الدعائى ‧‧ ان الفكر المعارض يكسبها جلادة فى العراك ، ومراسا فى المنافحة ، وبصيرة فى أصالة الادراك ‧‧ فى الوقت الذى لا تجنى القضية فيه من الفكر الدعائى سوى المرور الأبله الساذج بسطوح القضايا ومشارف الأشياء !!

القضـية اذن فى حاجة الى فهم عاقل متفتح ، وليست فى حاجة الى تشنج من أى لون مهما كانت مبرراته العجفاء !!

ولنبدأ معا : ان الفـكر الملحد يقتات كل يوم بجموع هائلة من شبابنا القارىء شئنا أن نعترف بهذه الحقيقة أو لم نشأ ٠٠ ولعل انعكاسات هذه الحقيقة لا تخفى على أحد ممن يحاول أن يمر على حقولنا الفكرية الشابة ، فينظر فى ابداعاتها الفنية ٠٠ مسرحا ٠٠ أو قصة ٠٠ أو رواية ٠٠ أو شعرا ٠٠ ان هذه الحقول الابداعية الشابة طافحة بمرارة العبث ، ولزوجة اللا جدوى ، وثورة الرفض، وقساوة الانكار ٠٠٠ واذا كان كل شيء قائما على كل شيء ٠٠ اذا كانت كل نتيجة ثمرة طبيعية لكل مقدماتها بلا تخلف ، فان هذا الابداع الرافض الشاك انما هو محصلة طبيعية لروافد قرائية هى ثقافة هذا المبدع الشاب ، لقد استطاع هذا الفكر المعبأ ضد كل ما هو مستقر فى حقول الفكر والدين أن يحتل مواقعة فى صفوف الشباب ٠ بما استحدث لنفسه من وسائل التوصيل والاشعاع ، وكان أخطر هذه الوسائل المسرح ٠٠ والقصـة ٠٠ والرواية ٠٠ والشعر ٠٠ ولست أستطيع هنا أن أقوم بمسح شامل وكلى لكل هذه القطاعات والأنماط ٠٠ ولكننى أستطيع ان استطعت أن أقف عند كل ظاهرة منها وقفة خاصة ، ربما تكشف عن جوانب العرامة فيها بلا أقنعة ، وهذا هو ما أريد أن أقوله الآن ٠٠٠ اننى لا أقدم اجابات على الأسئلة المطروحة فى هذه الأعمال ٠٠ لان ذلك وحده يحتاج الى تعبئـة حاشدة من كل قوى النضال الفكرى المسلح بايمانه العقائدى ، وليس تبعة واحد من الأفراد٠٠٠ان كل ما أطمح اليه من خلال هذه الكلمات هو أن أدق الأجراس ، وأرفع الراية ، وللمقاتلين المدربين بعد أن ينفروا الى ساحة المعركة ، مزودين بثقة قد لا أملكها ، وبثقافة قد لا أحتازها ، وبجسارة قد تعوزنى كما تعوز آلافا بلا حدود !!!

- ٢ -

في المسرح ٠٠ يجند الفكر الهاجم كل تكنيك العمل المسرحي في محاولات الوصول ، وهو ينجح في عديد من محاولاته ٠٠ ان ذكاءه الخارق لا يوقعه على الاطلاق في ما نقع فيه نحن من خطابية قد تصرف القارىء عن العمل ٠٠ لا يوقعه فيما نقع فيه نحن من افتراض أن المتلقي مؤمن بكل شيء ، وبقداسة كل شيء ، وهو لا يحتاج منا الا الى تكريس ايمانه ، ومباركة تقديسه الوهلى ٠ ان كاتبا مسرحيا مثل «جان بول سارتر» ٠٠ أو مثل «البير كامى» ٠٠ أو مثل «صمويل بيكيت» ٠٠ أو مثل «يونيسكو» ٠٠ لا يمكن آن يقع في خطيئة اتكائه على افتراض القداسة في المتلقي لأى شيء ٠٠ وهو ان وقع في هذه الخطيئة يقع فيها بنية اشعال الحرائق في هذه القداسات وليس على نية تقبيلها والطواف حول محورها الدائخ من كثرة معاناة الطواف !آ

وهذه نقول من مسرحيات ترجمت الى العربية ، وفي كل قطر من أقطارنا يلتهمها الشباب المثقف القارىء ، لتصبح من بعد خلفيته الفكرية ، ولتشكل في النهاية نوعية رؤيته للكون ، ونوعية عطائه في مجال الأدب والفن على السواء ٠٠ لن يجدينا كما قلت في مطالع هذه السطور أن نصمت حيالها كظاهرة ، فالصمت لايجدى ٠٠ ولن يطامن من زحفها الكاسح أن نتجاهل وجودها الحي ، فالتجاهل لا يحيل القضايا الى خرافات ٠٠ ان النعامة لم تهزم الصائد حين في رمال اليأس دفنت رأسها أبدا ، ولكنها هزمت امكانية أن تحيا في نفس اللحظة التى دفنت فيها رأسها في الرمال !!

في مسرحية « الشيطان والرحمن » لجان بول سارتر ٠٠ يدير المؤلف الحوار على هذا النحو :

جويتز : مات الله !!

هيلدا : مات أو عاش ·· لا يهمنى · انقضى زمن طـــويل وأنا لا أهتم به !!

جويتز : قلت لك : مات الله .. (يأخذها بين ذراعيه) لم يعـــد عندنا شاهد .. سأرى وحدى شعرك وجبينك .. لكم أنت حقيقة منذ عرفت انه غير موجود !!

وفى نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

جويتز : هاينريش .. سأطلعك على سر خطــير .. ان الله غــير موجود .. غير موجود .. افرح .. ابك من الفرح .. أيها المجنون .. اننى أخلصك .. لا سماء بعد اليوم ، لاجحيم، لاشىء سوى الارض !!

وفى نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

جويتز : ان الله يســـمعنى ·· وأنا أقطع الآذان نكاية فى الله ·· وهذا يكفينى .. انه عدوى الوحيد المساوى لى .. لايوجد الا الله .. وانا .. وأشباح الناس .. وسأصلب الليلة الله (١) !!

وفى مسرحية «الذباب» لسارتر كذلك نقرأ هذا الحوار :

أورست : ماذا يهمنى جويتز ! العدالة هى قضية بشرية ·· ولست بحاجة الى اله ليعلمنى اياها (٢) !!

---

(١) الشيطان والرحمن : جان بول سارتر ·· ترجمة عبد المنعم الحفنى

(٢) الذباب : جان بول سارتر ·· ترجمة دسهيل ادريس ·

وفى مسرحية «كاليجولا» لألبير كامى .. نقرأ هذا الحوار :

سيزوينا : كلا .. لن يقتلوك .. والا نزلت عليهم صاعقة من السماء فأهلكتهم قبل أن يمسوك .

كاليجولا : من السماء !! ليست هناك سماء ايتها المسكينة !!

وفى نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

كاليجولا : اننى أمارس سلطانا محموما فى التخريب ، بحيث أن سلطان الخالق يبدو بالقياس الى سلطانى تقليدا فاشلا .

وفى نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

كاليجولا : لقد أدركت انه لاتوجد سوى وسيلة واحدة لنكون فى مصاف الآلهه ..

يكفى أن نكون قساة مثلهم (١) !!

وفى مسرحية «سوء تفاهم» لكامى أيضا نقرأ هذا الحوار :

الأم : اننى أصرخ ولا أبكى ، لكن ألمى هو ألم الاحساس بالحب وهو يولد من جديد فى قلبى .. ورغم ذلك فهو ألم فظيع ، وأعرف انه غير معقول ، لكن العالم نفسه غير معقول ، ومن حقى ان علن انه غير معقول بعد ان خبرته كله .. من لحظة الميلاد الى لحظة الفناء (٢) !!

---

(١) كاليجولا ـ البيركامى ـ ترجمة رمسيس يونان .

(٢) سوء تفاهم ـ البيركامى ـ ترجمة عبد المنعم الحفنى .

وفى مسرحية « العادلون » لكامى أيضا نقرأ هذا الحوار :

كالياييف : سنصبح كلنا أخوة ٠٠ وستجعل العدالة قلوبنا شفافة ٠٠ هل تعرف عن أى شيء أتحدث ؟

فوكا : نعم ٠٠ مملكة الله ٠

الحارس : اخفض صوتك

كالياييف : لاتقل هذا الكلام ٠٠ الله ٠٠ لايستطيع شيئا !!

وفى نفس المسرحية نقرأ هذا الحوار :

الدوقة الكبيرة : ان الدم يفصل بيننا ، ولكنك تستطيع ان تجعل فكرة الله تجمع بيننا فى نفس الفاجعة ٠٠ صل على الأقل معى ٠

كالياييف : انى أرفض ٠٠ لم أعد أعتمد على موعدى مع الله (١) !!

وفى مسرحية « محطم الأطباق » لارمان سالاكرو ٠٠ نقرأ هذا الحوار :

الشاب : اذن ٠٠ فاننى قدمت فعلا

محطم الأطباق : كلا

الشاب : وهل أنا قريب من أحد الآلهة ؟

محطم الأطباق : نعـــم

الشـــاب : اذن هناك آلهة كثيرة

محطم الأطباق : اننى اله الأطباق

الشـــاب : اله الأطباق ؟ انت تحطم وتقول انك اله ـ أو ليس عمل الله ان يخلق ولا يحطم ؟

---

(١) العادلون البيركامى ـ ترجمة بسيم محرم وريمون فرنسيس

محطم الأطباق : (تاركا ثلاثة أطبـــاق تسقط على الأرض) : اننى أخلق قطعا من الأطباق •

الشـــاب : ولكنك ان كنت الها فلا شك انك تعلم لغز هذا العالم

محطم الأطباق : نعـــم

الشـــاب : لقد سهرت ليـالى بأكملها وعينى مركزة فى أنبوبة من البلور ينعكس عليها ضوء شمعة •• وأعتقدت انه يمكننى ان أتبين الله بين ألوان الطيف جميعا •

محطم الأطباق : هذا ممكن

الشـــاب : ولكننى لم أستطع ذلك •• وهل تلهو بالأطباق كما يلهو الله بالدنيا والأكوان كلها ؟

محطم الأطباق : واحطم الأطباق كما يحطمك الله

الشاب : لماذا ؟

محطم الأطباق : بحكم المهنة (١) !؟

وفى مسرحيـــة « أليس الصغيرة » لادوارد آلبى ، نقرأ هذا الحوار :

جوليان : آه •• لقد فقدت ايمانى بالله

بتلر : آه •• (ثم نظرة تساؤل)

جوليان : هل هناك شىء آخر ؟

بتلر : هل هناك شىء آخر ؟

جوليان : حسن •• لاشىء ذو أهمية ، لقد انحدرت ، تقوقعت داخل

---

(١) المسرح الفرنسى المعاصر ــ دكتور لطفى فام •

نفسى ٠٠ هبطت تحت قبة زجاجية ٠٠ فى هـذا الشـك ٠٠
كنت بعيدا ٠٠ لا يصلنى ٠٠ وأخيرا لا أصل الى شئ (١) !!
وفى مسرحية « الأفواه اللامجـدية » لسيمون دى بوفوار ،
نقرأ هذا الحوار :

عجوز : يا الهى ٠٠ الطف بنا ٠٠ يا الهى ٠٠ ارحمنا !!

امرأة : لن يرحمنا أحد ٠٠ لقد « انطرش » الله (٢) !!

بديهى ٠٠ ان هذه النقول قطرة من محيط لا ســاحل له ، وليست هذه أول مرة تطالعها جماهيرنا من خلال هذه السطور ، فاننى ازعم انها حصاد كل يوم ، وقراءة كل لحظة من لحظات أجيالنـا العربية ، **أولا :** بما هى مترجمة وممثلة ومتداولة على مستوى العالم العربى تقريبا ٠٠ **وثانيا :** بما هى كل ما لديه أو أعمق ما لديه على مستوى حضارى وتكنيكى ٠٠ وثالثا : لأن الجانب الآخر ٠٠ اعنى جانب الفن العقائدى ٠٠ ما يزال على مستوى البـداوة أو قل على مستوى البوار !!

ان طلائع كتـاب العبث ٠٠ واللامعقول ٠٠ والرفض ٠٠ لم ينزلوا أرض المعركة بلا تخطيط مسبق ، ولم يضربوا ضربانهـم هكذا خبط عشواء ، ان كل حركة من حركاتهـم محسوبة جيدا ، ومصممة بلا تفريط ، انهم يعرفون بلا مبالغة كيف يحركون الصمت الى جوارهم ، كيف يستفيدون حتى من الفوضى والجمود ، ان الانطباع الأخير لدى المتلقى هو ما يعنيهم ، وهم يركضون الى هذه الغاية على كل الجياد !!

« فى خطاب كتبه يونيسكو الى المخرج » سيلفين دوم « أول من قدم مسرحيـة » الكراسى يقول : لما كانت الفكرة المحـورية فى هذه

---

(١) البس الصغيرة ــ ادوارد آلبى ــ ترجمة دكتور عبد العزيز حموده ٠
(٢) الأفواه اللامجدية ــ سيمون دى بوفوار ــ ترجمة عبد المنعم الحفنى ٠

المسرحية هو « الخواء » الانطولوجى ٠٠ أو « الغياب » فاننى أعتقد ان اللحظة الاخيرة ، اللحظة الحاسمة فى المسرحية يجب ان تعبر عن هذا « اللاحضور » ولذلك فانه يجدر ان يسدل الستار على أثر خروج الخطيب العاجز عن النطق بالرسالة بعد نزوله من على المنصة وتحيته للامبراطور ، فعندئذ سيعاين الجمهور ـ تحت ضوء صار ذابلا معتما كما كان فى البداية ـ الكراسى الخالية فى ديكور خاو تزينه أشرطة وأوراق مزركشة وهو ما سيعطى الاحساس بالتعاسة التى يخلفها مرأى قاعة حفل بعد انفضاض الحفل ، وبذلك يكون كل شىء وقد وجد بلا معنى ٠٠ هذا الاحساس الذى يتعدى المنطق هو الذى نسعى اليه ويجب ان نحصل عليه » (١) ٠

وقد لا يواجهون قضية الانكار والرفض هكذا وجها لوجه ٠٠ ربما لأنهم يدركون جيدا ان حالة من العنـاد والتصميم تجتاح المتلقى اذا أحس ان الفنان يريد أن يقسره على شىء ٠٠ ومن هنا ٠٠ فهم يواجهون المواجهة مرة لأحداث نوع من الدهشة تذيب صـدأ العادة والبلادة فى ذهن المتلقى أو القارىء ٠٠ وهم يهربون من هذه المواجهة مرة أخرى عبورا الى مناطق التلقى فى فطانة وذكاء !!

« صحيح ان «أنوى» لايتعرض لفكرة وجود الله بطريقة مباشرة كما يفعل «سالاكرو» مثلا ٠٠ ولكنه لا يكف عن طرق فكرة المطلق، مع التسليم الضمنى بعدم وجود الله » (٢) ٠

وقد يلجأون الى طرح قضيتهم عن طريق المعادل الموضوعى ، أى عن طريق خلق صور موضوعية تعدى المتلقى بنفس مايريدون له من انطباعات ، انهم هنـا لا يواجهون ولا يهربون من المواجهـة ، ولكنهم يخلقون عالما بديلا أو قل عالما « معادلا » ٠٠ يستطيعون من

---

(١) مسرح العبث ـ دكتور نعيم عطية ٠
(٢) المسرح الفرنسى المعاصر ـ دكتور لطفى فام ٠

خلال تصالبه الفنى مع العالم المعاش ان يقولوا لجماهيرهم ما يريدون، بلا حركة استعداء ٠٠ وبلا انسحاب الى مناطق الصمت !!

يقول « روبير دولوبيه » في معرض حديثه عن مسرحية « سوء تفاهم » لألبير كامي : « ٠٠ في مورافيا ٠٠ أم وابنتها » مارتا « تديران فندقا منعزلا فى الريف ٠ ويأتى « زبون » غنى ٠ فتضعان له فى طعامه منوما وتسلبانه ماله ثم ترميانه في النهر ، وذات يوم يطرق الباب فيكون القادم « جان » الابن الذى غادر القرية منذ عشرين عاما فلا تعرفه المرأتان (ذلك انه قد أخفى هويته) ويكون مصيره أن يلحق بالآخرين فى النهر ٠

« هذا المكان المنعزل الذى يعمره المجرمون انما هو عالمنا العبثى اللامعقول وان جان القريب الذى يطرق الباب هو السؤال المطروح ٠٠ اما الجواب ٠٠ فهو الجثة التى تنتن عند سد النهر (١) » ٠

ان رصد ملامح التكنيك المسرحى فى أعمال هؤلاء الرافضين ليس ترفا نتلهى بالتحديق فى عينيه ، ولكنه ضرورة حياتية الى جانب كونه ضرورة فنية بما هو سلاح قتالنا فى المعركة ، وبدونه تبقى أسلحتنا هجومية بلا هجوم !! ولكن مثل هذه الدراسة العجلى لا يمكن أن تنكفىء على رصد هــذه الملامح ، فكل همومها ان تدق أجراســا ، وتقرع طبــولا ، وترفع رايات ، وللقادرين من بعد أن ينكفئوا على هذه الدراسة الأكاديمية البحتة ٠ من أين هذا المسرح ؟ والى أين هذا المسرح ؟ وما مقوماته الجمالية والتكنيكية والحضارية ؟ الى آخر ما يطرح فى هذا المجال من أسئلة بلا حدود !!

وقد أود ان ألقى بقفازى فى وجه المسرح العربى الحديث ٠٠ فقطاع منه يتلهى بالتسكع الفاشل على ضفاف فكرة الزمن !! وقطاع

(١) كامو والتمرد ــ روبير دولوبيه ــ ترجمة سهيل ادريس ٠

منه يتغنى بانتصاراتنا التى أجهضها الواقع الضاغط حتى من قبل مواعيد ميلادها الطبيعى !! وقطاع منه يتلكأ على صــدر مومس عجوز تبيع الحب فى طرقات المدينة !! وقطـاع منه يتهاوى تحت معاول عجزه الذاتى فلا يقوى حتى على مجرد أن يقول !!

ان مضمون المسرح العربى الحديث لم يتحدد بعد ، لم يتشكل حتى هذه اللحظات ، لم يعرف وجه قضـيته الحقيقية . وهو وحده المتهم والقاتل فى قضية انتماء كثير من شبابنا الى غير هذه الأرض ، ونضالهم أن ناضلوا كل طواحين الهواء !!

وليكن واضحا اننى لا أريد من وراء هذه الكلمات أن اصـادر ثقـافة وافدة ، أو أغلق نافذة مفتـوحة على فكر حديث ، مهما كان لون هذه الثقافة أو لون هــذا الفكر .. اننى أكون جارما بلا حدود أن فعلت !! اننى أنفى نفسى من العصر الذى أعيش فيه أن حاولت أن أفعل !!

ان كل ما أريد هو ألا يكون صوت واحد صارخ فى البرية .. لابد من تعدد الأصوات ، لابد أن نقول كلماتنا نحن كما نبيح للآخرين أن يقولوا كلماتهم أبدا ، لابد أن نجد صيغة ما لمضمون حضارى ما يشكل فى نهاية الأمر رؤيتنا للكون ، وموقفنا من الله ، والتزامنا نحو الآخرين .. اما أن يستحيل فكرنا الى ملامسة .. وأدبنا الى منادمة .. وفننا الى استهواء غرائزى رخيص .. فهذا ما نرفضه .. وعلى جبينه الداعر ندوس .. وندوس !!

ان التبعة هنا ذات شـــقين .. فواجب المثقفين العقائديين ان يناقشوا جذور هذه الفلســفات على مستوى فكرى بلا حماســيات مبحوحة جوفاء .. وواجب الفنانين العقائديين ان يبدعـوا فنـا بلا جلجلة ، فنا يستوحى هذا التراب ، ويســتلهم هذه الأرض .

ويعطى من اكتنازه الذاتى بآلاف المواعيد !! هذا هو الطريق ٠٠ الطريق القاصد بلا شعاب !!

٠٠ ان التصدى لهذا الفكر ليس تبعة الفنان العقائدى وحده ولكنه تبعة كل المبدعين ٠٠ ان مقالاتنا ، وبحوثنـــا ، وجرائدنا ، ومجلاتنا ٠٠ يجب أن تتصدى لهذا الفكر ٠٠ فى محاولة للاستيعاب من البدء ، ومحاولة أخرى للعطاء من بعد ٠٠ اما ان ننكفىء فوق ما تهرأ من طول ماكتبنا حوله ، ومن طول ما أثرنا فيه من حوارات ، فليس قضية العصر . وليس التزام أى من المبدعين الشرفاء !!

اننى واحد من الذين يقرأون دوريات العالم العربى — أو قل جانبا منها — ويصيبهم من ذلك دوار بلا حدود ٠٠ ان شهوة النشر ، واكتناز الرصيد ، وايثار السلام ، هى ما يحــرك قطاعا هائلا من الذين يلطخون وجه الورق الأبيض بمزيد من الحبر الأسود ٠٠ وليس أبدا الغيرة على راية سقطت فى أوحال عصر كل ما فيه شاهد زور !!

فلنتحرك من منطلق العقائدية وليس من منطلق الوثــوب الاستفزازى !! ولنضرب بسيف الحق لا بسيوف الأنانيات !! ولنقل كلماتنا المثقفة وليس كلمات من ماتوا بلا دفاع !! ولتسقط كل الأقنعة عن كل وجوه الكاذبين !!

هذا الزحف .. من يتصدى له ؟؟

- ٢ -

حين نشرت الدراسة السابقة (هذا الزحف من يتصدى له ؟) في عدد شوال ١٣٩١ هـ ١٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧١ م على صفحات مجلة الوعى الاسلامى ، محاولا من خلالها أن أعبىء لثورة عقائدية فى الفن تصالب ثورة الالحاد فى الفن على كل العقائد والموروث الدينى هنا وهناك ، كنت أطمح الى اشتجار جدل حقيقى حول هذه الدعوة الى التعبئة ، وليس الى تثاؤب مرضى يسحب عليه غطاءه وينام !!

وفي عدد (صفر) ١٣٩٢ هـ من الوعى الاسلامى قرأت أول أصداء هذه الدعوة . بحثا بحجم ثقافة عصرية واعية ، كتبه الصديق الشاعر يوسف حسن نوفل المدرس بالكويت تحت عنوان (هؤلاء المتصدون من يدعمهم ؟) !!

وبدءا .. نحن لم نختلف حول محاور الدعوة الصميمية ، وان كنا قد اختلفنا بعض الشيء فى منظوراتنا حول تطبيقية المقولات

.. اننى لا أكتب الآن رداً على الصـديق الباحث الشاعر ، ولكننى أكتب استدراكا ، أو قل اننى أرفع يدى لمجرد الاستفسار عن أشياء !!

وقبل أن أستطرد .. فقد يكون من المفيد أن أوجز رؤيتى للقضية ، وان أوجز كذلك رؤية الصديق للقضية، ثم أرفع فىنهاية الرحلة يدى متسائلا . وللصديق ان يمنح جوعى الحقيقى قرى اجاباته على كل ما أثير من تساؤلات :

قلت وأقول : اننا على مستوى العـالم الاسلامى ــ نواجه كل القضايا الصميمية بمزيد من لزوجة الصمت ومزيـد من لزوجـة اللامبالاة ، فى نفس اللحظة التى يتحرك فيها الآخرون بمزيد من بنادق الوعى ، ومزيد من رايات الاستبصار !!

وقلت وأقول : ان فننا العقائدى يتكىء فى تحركه ــ ان تحرك ــ على فرضيتين : أولاهما أن العقائديات ليست فى حاجـة الى من يناضل عنها .. وثانيتهما ان هذه العقائديات تملك من قدراتها الذاتية على الاشعاع والتوصيل ما يغنيها عن معاناة الدعاة وكدح الراشدين!! وهذه فيما يخيل الى مقولات باهظة غبيـة تطفىء احـداق الدعوة واحداق الدعاة على السواء !!

وقلت وأقول : اننى لا أصادر الفكر النقيض ، ولا يمكن ان أدعو الى مصادرته ، لأن معنى ذلك اذا حدث اننى أنفى نفسى من العصر الذى أحياه من جهة ، واننى أصادر رافد الخصب الحقيقى ــ وان كان نقيضا لايهم ــ فى حقول فكرنا العقائدى وفننا العقائدى جميعا من جهة أخرى، وتلك جريمة لايتصدى للعمل في رهجها الا المهرجون!!

وقلت وأقول : ان ما يقرؤه شبابنا فى هذه المرحلة لايعدو ان يكون واحدا من اثنين :

١ ــ فكر بلا فن ، وفن بلا فكر ، هذا على الشاطىء العقائدى !!

٢ ــ فكر مبطن بالفن · وفن مائج بحركة الفكر ، هذا على الشاطىء اللاعقائدى !!

وحتى لا أتهم بتسطيح قضية من أخطر قضايا فكرنا المعاصر بلا تحفظ حددت لنفسى محاور من خلالها قلت ما قلت ·· قلت ان فى المسرح الغربى ، والرواية الغربية ، والشعر الغربى ، نزوعا الى مصادرة مقولة (الله) ربما تبدأ بخلخلة الجذور ، وربما تنتهى الى اقتلاع الشجرة ، مرورا بالأكباب على بتر شروشها مرة ، وعلى اجهاض ثمارها مرة أخرى ، هكذا بلا توقف وبلا مبالاة!! وقلت ــ من خلال احصاء مقارب استشهادى ــ ان نمطا من أنماط هذا الابداع الفنى المكرس لهذه الغاية وهو (المسرح) قد ضرب فى هذا الصدد ضرباته الفاجعة ، مؤسسا كل خطوة من خطواته على اقتدار فنى ، وعلى استبصار ثقافى بطبيعة المرحلة ، وطبيعة العصر ، وطبيعة الشخوص الذين تتعامل معهم هذه الكلمات !! وقد حاولت ان استكنه ملامح هذه الحركة الفنية القاصدة الى خلخلة ايماننا بكل شىء ، مستنهضا ملكات وأقلام أدبائنا وفنانينا ونقادنا جميعا على طريق التصدى لهذا الزحف المسلح بكل امكانيات عصره الخلاق !!

قلت وأقول : أن مسرحنا العربى فى مواجهة هذا الزحف ــ واحزن معى ان شئت ــ ما يزال قطاع منه يتلهى بالتسكع الفاشل على ضفاف فكرة الزمن ، وقطاع منه يتغنى بانتصاراتنا الوهمية التى أجهضها الواقع الضاغط من أول لقاءاته معها ، وقطاع منه يتلكأ على صدر مومس عجوز تبيع الحب فى طرقات المدينة ، وقطاع منه يتهاوى تحت معاول عجزه الذاتى فلا يقوى حتى على مجرد أن يقول !!

هذه محصلة مقولاتى التى حملها مقالى الأول ، واعتقد ان لقاء المقال أجدى بكثير من القناعة بمجرد المرور المسطح على حروف هذه المحصلة مهما كانت قدرتها على حمل ملامح هذا المقال ·

وقبل ان أدير نقاشا من أى لون ، فلأغامر بتحديد ملامح مقال الصديق يوسف حسن نوفل (هؤلاء المتصدون من يدعمهم ؟) ، وعذرا من لحظة البداية اذا كبوت على طريق فهمى الجاد لمقولات مقاله الممتع ، وآمل ان تجنبنى المعاناة مرارة العثار على هذا الطريق !!

يقول الصديق الباحث : ان انسان الثلث الأخير من القرن العشرين قد تعرض لهزات عقائدية فادحة مهد لها التطور الحضارى بانجازه المادى من جهة ، وببروز عمالقته الملحدين من جهة أخرى ، وبتدفق الحس المأساوى القلق المصاحب لتطور أدوات الحرب من جهة ثالثة ٠٠ وقد زكى هذا الصدع الفاجع انشطار العالم الى شرق وغرب ، وايمانه الأعمى بمنطق القوة المغرورة بلا حدود ٠

ويحيل الصديق الباحث الى هذه الأسباب والدوافع التى أسلف بروز تيارات الالحاد المعاصر مرتبا فيما يشبه الحتمية هذه النتيجة على هذه المقدمات !! ثم يمهد لقضية (الفن العقائدى) ـ التى من أجلها يدور هذا الحوار ـ باستعراض آراء (تشارلتون) الذى يرى ان الفن ينبغى ان يكون (تصويرا للواقع كما هو) ـ ولا أدرى كيف ؟ ـ (وتولستوى) الذى يرى ان الفن المعبر عن الدين فن جيد ، وما عداه فهو فن ردىء !! ويسوق الصديق نماذج من كتابات أدبائنا ـ فى مجال القصة ـ يستوحون فيها تراثنا العقائدى ، على مستوى الارتباط الميكانيكى مرة ، ثم على مستوى التحرك من خلال اطار عام مرة أخرى ، ثم على مستوى الاهتمام بالأولياء وكراماتهم واحتفالهم ومواسمهم وعاداتهم آخر الأمر !!

ويستطرد الصديق الى رصد نتائج اجتماع اليونسكو عام ١٩٦٩ وخروجهم بنتيجة ان الثقافة العربية المعاصرة لا تحتل المكان اللائق بها فى عالم اليوم !! ثم ينعى فى نهاية مقاله الممتع بحق على نقادنا تنطعهم اللامحدود فى انغاض رءوسهم عن كل فن له محتوى عقائدى ، بلا تبرير لهذه الحركة العدوانية الصنماء !!

هذه محصلة المقولات الصميمة التى يمكن ان يكون مقال الصديق الباحث قد دار في محاورها ربما على وجه اليقين ٠٠ وآمل ان أكون قد وفقت في نشدان هذا القطع اليقيني ٠

فهل يأذن الصديق لى الآن بأن أرفع يدى فى محاولة مخلصة للتساؤل المتشوف الى مزيد من اطلالات ضوء على هذا الطريق ؟؟

كان مقالى صيحة احتجاج على عشوائية الخلق في فننا المسرحي، ولم أكن بعد قد خطوت خطواتى على طريق التأمل فى ملامح القضية الروائية والقصصية فى أدبنا العربى ، وهى القضية التى استقطبها مقال الصديق الباحث ربما امتدادا وليس معارضة لمقالي الاول ٠ ولكننا على الرغم من كل ذلك نختلف هنا فى عديد من الأساسيات !!

أولها : انني ـ ودع الجانب التاريخي في مقال الصديق ـ لا أوافق على ان نتناول القضية على مستوى فنى وعقائدى معا من هذا المنطلق ، فحين تحركت بهذه القضية من مخاضها الفكرى الى واقعها الحلولى لم أكن أريد بها هذا اللون من ألوان اللقاء (مصادفة) مع الفكر العقائدى ، فما أكثر هذه اللقاءات اللقيطة فى أدبنا المعاصر ، وانما أردت لها ان تكون قضية وجود كونى مقاتل على كل الجبهات فى آن ، اعنى انني اردت لهذه القضية ان تستحيل في أدبنا العربى الى ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح (الخلفية الفلسفية) ينزع عنها الفنان نزوعه عن نبضات الوعى فى شرايينه ، أعنى أن تكون هذه الخلفية العقائدية خبزه وهواءه ، لايتحرك الا من خلالها ، ولا يصدر الا عنها ، ولا يتيح للجدل الجانبى أن يصرف وجهه عنها بما هى أساسا حركة حلوله الجوانى فى الكون وحركة جدله البرانى مع ظواهر هذا الكون اذا استعرنا بعضا من هذه المصطلحات !

ان نجيب محفوظ ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وعلى أحمد

باكثير ، وعبد الحميد جوده السحار ، أولئك الذين استشهد بهم الصديق الباحث في مقاله لايمـــكن ان يكونوا نموذج هذا الفنان العقائدى الذى ينزع عن خلفية فلسفية عقائدية ، وبالتالى لايمكن حتى ان يكونوا قلعة صمود على الأقل ، حين لم يستطيعوا ان يكونوا جبهة فتح وانتصار ·· ان الوجودية بمضمونها الملحد عند واحد كجان بول سارتر تشكل خلفية كل أعماله على السواء · الفكرية ، والفنية ، والأكاديمية جميعا ، فهـل نستطيع ان نقف واحـدا من هؤلاء الأدباء العرب مع سارتر على هذا المستوى الصميمى؟ أوشك ان أصرخ : ألف لا ·· ولا !! فمثلا نستطيع فى أدب واحد كنجيب محفوظ ـ على روعته وقيمة اضافاته ـ ان نعثر ليس على قضية محور تستقطب أبعاد تحركه الفنى من شتى الاتجاهات ، وانما نعثر بلا تردد على امشاج هائلة من البنى الفكرية · والرؤى العقائدية ، والتجاريب الروحية ، وليت كل ذلك كان صميم المجرى الفنى للكاتب المبدع يعمقه من مستوى الى مستوى جديد ، ان الواقع الفنى لكاتب مثل نجيب محفوظ يؤكد بالضرورة صيرورته المستمرة ، من الكاتب الملامس للاشياء ، الى الكاتب المتأمل للاشياء ، الى الكاتب الحائر فى مواجهة كل الأشياء ·· ان الموت اللامبرر ، والعشوائى ، والغاشم ، يظل كواحد من المصائر اللازبة لأبطال هذا الكاتب ، ان الأسئلة الطفلة عن الحب ، والموت ، والله ، لا تجد فى مساحات الواقع الفنى لروايا تالكاتب العربى وقصصه اجابة واحـــدة مقنعة ، وهى ان وجدت اجابة ايجابية مرة ، فسوف تواجه اجابات قلقة غير واحدة من المرات !! فهل نستطيع مع هذا الكاتب أن نقول : انه كاتب عقائدى ؟؟ هل نستطيع مثلا فى رواية (أولاد حارتنا) أن نبايع نجيب محفوظ حتى بمجرد الادعاء العقائدى على النحو الذى ندير من حوله هذا الحوار !!

ان نجيب محفوظ ثروة قوميـــة وأممية على مســـتوى فنى لا أجادل فى ذلك على الاطـــلاق ، ولكنه على مستوى عقائدى واحد

من ملايين الراكضين على سفوح القلق الوجودى بلا قرار ، وربما كان هذا القلق واحدا من العناصر الهائلة التى تعطى ابداعه مذاقه الخاص!! ولكنى لست عن كل أولئك أبحث ـ اننى باحث عن الفنان العقائدى الذى ينزع فى تحركه الفنى عن خلفية فلسفية عقائدية صامدة ، لا أعنى نزوعا جامدا يبدأ من حيث ينتهى ، وينتهى من حيث يبدأ بلا ملال ·· وانما أعنى نزوعا متخلقا متناميا متسقا ، يكتشف من خلال تجاريبه ذاته وأبعاده ، ويطور من خلال مغامراته رؤيته الصميمية ، لله ـ والكون ـ والانسان ·· الشرط التاريخى الوحيد الذى أضعه هنا هو ان يكون مؤمنا أساسا بهذه العمد الثلاثة : (الله ·· والكون ·· والانسان) !! وتستطيع ان تقول فى أدب عبد الحليم عبد الله ، وعلى أحمد باكثير ·· وعبد الحميد جودة السحار ·· وغيرهم وغيرهم ·· نحوا من هذا الذى قلت فى أدب كاتبنا الرائع نجيب محفوظ !!

ثانيها : اننى أرفض أن يكون الوعظ من جهة ، والخرافة من جهة أخرى ، طريقنا الى محاولة الترشيد العقائدى ، وما أشك فى ان الصديق الباحث يوافقنى على ان مجرد ذكر الاسلام فى قصة أو رواية لا يعنى بالضرورة ان هذه القصة أو هذه الرواية يمكن ان تكون خلقا عقائديا مسلما على الاطلاق ، وما أشك فى انه يوافقنى كذلك على أن احتواء الخرافة التى تستشرى فى ريفنا العربى حتى وان كان محورها دينيا لا يعنى على الاطلاق احتواء ظل من الحس العقائدى خاصة على المستوى الاسلامى الذى يرفض منذ البدء منطق الخرافة ، ومنطق التدين الأبله الساذج المتسكع فى دروب الهلوسات !!

ان الصديق الباحث ـ وهو بصدد اعداد رسالة الدكتوراه عن الفن القصصى ـ يعلم أكثر مما أعلم ان روائع الادب العالمى التى لامست قضية الدين كانت تحمل هموما أكبر من مجرد الوعظ ، وأعمق من مجرد الهروب فى مستودع الخرافة ·· ان أعمالا من

أمثال : (الاخوة كرامازوف • لديستويفسكى) • (والأخوة الأعداء • لكازانتزاكس) • (والغثيان • لجان بول سارتر) (والطاعون • لالبيركامى) • (والقصر ، والمحاكمة • لكافكا) • وعشرات غيرها كثيرة ، لم تتلكأ على أرصفة التناول الهش لقضية من أخطر قضايا الفكر العالمى ، وانما واجهت قضيتها — رفضا وقبولا — بحس المسئولية وهيبة الفن ، فأتاحت بذلك لنفسها سيرورة مجذرة فى تربة كل العصور !! فهل نجم فى أدبنا العربى حتى اليوم عمل واحد فنى يسامت واحدا من هذه الاعمال !! ان عينى على العصر الذى نحياه ، على احباطنا الحضارى ، على وقوعنا فى المضايق ، على الحصار الوضعى الذى نعانى من كبوله وسيوله !! ولكننى مع كل أولئك لا أستطيع ان أغفل قضية اننا نتنفس من خلال قرون ومواريث كان من الممكن ان تشكل فى وجداننا الفنى رافدا متنامى العطاء يقفنا فى النهاية على مستوى الندية الصميمة لأولئك الأغيار ، وهذا ما لم تلح له ايماضة واحدة ، حتى ايماضة واحدة على أفق حياتنا المركوم بظلام الظلام !!

ثالثها : ان طموحى يمتد الى ملاقاة فنان عقائدى مثقف بثقافة عصره وكل العصور ، أعنى ان رعيلا هائلا من فنانينا المبدعين قد يكون مثقفا بثقافة العصر ، ولكنه مجدب تماما فى قضية احتوائه للتراث ، تراثه هو ، وهذا واحد من العوامل الصميمة فى حركة عجز هذا الفنان عن استيعاب تجربته العقائدية ، وبالتالى عجزه عن استقطابها فنا رائعا فى مسيرة ابداعه الكمى والكيفى ، وأذكر اننى كتبت فى هذا الصدد على صفحات (الوعى الاسلامى) تحت عنوان : (دعوة الى أدب اسلامى) • ومرة أخرى وأخيرة ، آمل ان لاتفهم هذه الدعوة على انها تقوقع داخل جغرافية ثقافية أو حتى روحية مغلقة . ان معنى ذلك لو حدث ان يستحيل الفكر العقائدى ، والفن العقائدى جميعا

الى استحلاب ذاتى مريض يرفض شمس العالم وهواءه ، ثم ينتحر فى غرفه المغلقة غير تارك وراءه سوى قدر البوار !!

ان نوعية الثقافة التى ادعو الى احتوائها هنا هى (الانسانية) أحجاما وأغوارا ، ثم التحرك بهذه الثقافة الانسانية الشـاملة فى اتجـاه تأصـيل عقائدى بمنهج (الفن) ومنطقة ، وليس بمنهج الدعاية والخرافة من جهة .. وليس كذلك بلا منهج على الاطلاق !

هذا هى المحاور الاساسية الثلاثة فى قضيتى بلا هروب من قدر المواجهة .. المحور الاول هو ان منحى القضية الصميمى ان يولد على خريطة الوطن الاسلامى هذا الفنان العقائدى الذى ينزع فى تحركه الفنى عن خلفية فلسفية مكتملة أو متنامية ، بلا جنوح للتخبط فى دياجير التناقض أو احتطاب امشـاج الحلول !! والمحور الثانى هو ان يكون طريق هذا الفنان الى ابداعه العقائدى ليس الوعظ الدعائى بما هو مقولة مرفوضة فى منطق الفن ، وليس الخرافة المسطحة بما هى حركة ممرورة لا تستطيع ان تواجه شمس الحقيقة الكونية !! والمحور الثالث هو ان تكون هموم هذا الفنان الأمل ان يحرك فى اتجاهه ثقافة عصره وكل العصور ، قابضا فى حركة ابداعه على قيمة وضعيته العقائدية ، غير هارب فى اردية التوافق الجمـاهيرى من هويته الذاتيـة التى قد يوصـم معها بالجمودية ، والرجعية ، والورائية . الى آخر ما فى جعبة الاغرار من شعارات فارغة جوفاء متآكلة الجبين !!

فهل – فى أدبنا العربى المعاصر اليوم – حتى ما يوحى بميلاد مثل هذا الفنان المبدع الخالق ؟؟

وهل – فى أدبنا العربى المعاصر اليوم – حتى ما يومىء الى ميلاد مثل هذا الفن المغامر المدجج القابض على أمل الخلاص ؟؟

أترك الاجابة للذين يستطيعون !!

الفن العقائد ٠٠ بين الزحف ٠٠ والتصدى ٠٠ وتساؤلات خرى

- ٣ -

فى كل قضايا الفكر ، يبدو الحوار أروع طريق الى تكامل المقولات ، وخاصة حين يكون أطراف هذا الحوار مسلحين ببراءة الداخل ونظافة القلم ٠٠

ان المعارك الفكرية التى نشبت منذ مطالع القرن العشرين : بين العامية والفصحى من جهة ، وبين القديم والجديد من جهة أخرى ، وبين الأدب بما هو مقالة ومقامة والأدب بما هو قصة ورواية وملحمة وشعر تمثيلى من جهة ثالثة ، وبين الفن القائد والفن الصدى من جهة رابعة ٠٠ ان المعارك الفكرية التى نشبت حول هذه القضايا الصميمة كان يمكن ان تكون أكثر جدوى لو ان حملة القلم الذين خاضوا غمارها كانوا على درجة أعلى من التزام المنهج الموضوعى ، أو قل لو أنهم كانوا يهدفون الى تأصيل قيمة فكرية أو فنية ولا يهدفون الى تهديم بعضهم بعضا فى نفوس جماهير القارئين ٠٠٠ وربما كانت الحزبية الوبيلة ، والنعرات الطائفية النابحة ، والهوس العرقى

الفادح ، بعض بواعث هذا الجنوح الخابط فى هذه المعارك الهائلة مع الاعتراف البدئي بأن هذه المعارك كانت نقطة انعطاف فى تاريخنا الفكرى المعاصر ، ولكنها كان يمكن ان تكون أكثر صميمية وجدوى لو انها كرست كل طاقات أقلامها للابداع لا للاقذاع .. وللحوار لا للشجار !!

من الذى يصدق ان قامات فى مثل قامات لطفى السيد وطه حسين والعقاد وهيكل والمازنى والرافعى وقاسم أمين وأحمد أمين وزكى مبارك وأمين الخولى ومحمد مندور ، كانت بعض أطراف الحوارات المندلعة فى أدبنا العربى منذ مطالع هذا القرن حتى أواسط الستينات ولا يكون من هذه المعارك الفكرية رصيد (موضوعى) يمكن ان يكون أساسا لنهضة فكرية وفنية شاملة تضع أدبنا العربى على مستوى الندية الكاملة لما عداه من الآداب العالمية الكبرى التى استقطبت هموم الانسان الروحية والمادية وعاشت بها هتافا فى كل شفة قارئة ، ووعيا فى كل خلد مفكر أو فنان ؟؟

ان غياب المنطق الموضوعى يقف من وراء هذه الرجعة الفاجعة ، ويشكل واحدا من أفدح العوامل الوراثية فى قضية فكرنا العربى المعاصر الضائع فى مفارق الظلمات !!

توقفت عند هذه المقدمة لأدلل على شىء .. ان قضية (الفن العقائدى) يمكن أن تكون قضية نأتلف من حولها ونختلف ، .. ولكنها لا يمكن أن تكون قضية الائتلاف وحده ، أو قضية الاختلاف وحده ، انها قضية كل الأطراف . الفكر المكرس والفكر النقيض ، لأن غياب ضلع ضوئى واحد يعنى غياب (الكل) فى المنشور الضوئى بلا محاولات للتجزىء ..

الذى يحمل راية الدعوة الى (فن عقائدى) هو والذى يحمل

المعول فى وجهه مصححا أغلاطه صديقان ‥ وصديقـــان (للفن العقائدى) بالدرجة الأولى ‥‥

ومن هنا ‥ كان احتضانى لكل حروف الكلمات فى مقـال الصديق الشـــاعر يوسف حسن نوفل : (هـؤلاء المتصدون من يدعمهم) (١) و (قبل الزحف والتصدى ما موقفنا الحضارى) (٢) امتدادا لمقالين لى : (هذا الزحف من يتصدى له (٣) و (بل هذا الزحف من يتصدى له) (٤) ‥‥

ان براءة الداخل ونظافة القلم ، يتوهجان فى كل حروف كلمات الصديق ، وأعرف اننى عند كل كلمة أقنص ثراء لى ، أمتد فى مسافات الفكرة أبعد وأعمق ، أتعرف على نوعية ناضجة من الحوار الراشد المثقف ‥ وهكذا يتغير وجه القضية ، فيحتل الابداع موقع الاقذاع ‥ وينحى الحوار شياطين الشجار !!

لقد كانت قضيتى (وما تزال) أن الصمت فى مواقع الفكر والفن لا يجدى وان تجاهل الواقع الآتى لا يشجب القضايا النقيضية بقدر ما يرسخها ، وان أيا من العقائديات لا يمكن ان تدافع دفاعا ذاتيا عن مقولاتها (لابد من أنسنة هذا الدفاع ــ أى اناطته بانسان) وأننا ــ على المستوى الفكرى والعقائدى ــ نواجه حتمية أن نكون أو لا نكون ، وأن فكرنا لا يمكن بغير الابداع أن يحيا ، لا يمكن أن يكون جلادا يهزم بالسوط معارضيه ، وان فكرا مسلحا بكل تقنيات عصره يهاجم هذه المنطقة بلا حدود ، وان ابداعات شبابنا فى هذه المرحلة أخذت تطفح بمرارة العبث والرفض (وهذه محصلة لروافد قرائية

---

(١) عدد صفر ١٣٩٢ هـ من مجلة الوعى الاسلامى .

(٢) عدد صفر ١٣٩٣ هـ من المجلة .

(٣) عدد شوال ١٣٩١ هـ من المجلة .

(٤) عدد جماد الأولى ١٣٩٢ هـ من المجلة .

احتلت مواقعها في المسرح والقصة والرواية والشعر) ، وان الفكر الهاجم لا يقع فيما نقع نحن فيه من افتراض أن المتلقى مؤمن بكل شيء (ومن هنا نلامس سطوح الأشياء ولا نصل الى زلزلة قيعانها الكاسدة) ، وان مفكرين من أمثال سارتر فى : (الشيطان والرحمن) وألبير كامى فى : (كاليجولا) و (العادلون) وسالاكرو فى (محطم الأطباق) وسيمون دى بوفوار فى (الافواه اللامجدية) وآخرين ·· وآخرين·· لا ينزعون فى أعمالهم الفنية عن نثر قناعات ممزوقة تطل مرة من هنا ، وتغيب مرات هناك ·· ان خلفية فلسفية تملي على أقلامهم كل ما يقولون ·· ان (الوجودية) هى الخلفية الفلسفية لكاتب مثل جان بول سارتر وهو فى كل ابداعه الفكرى ، والفنى ، والفلسفى لا يكف عن اثراء هذه القناعة ، وتأصيل هذه الفرضية ، انه لايصادف (الوجودية) من خلال عمله المسرحى وحده فحسب ، انه ينزع الى التعبير عنها من خلال معطياتـه المسرحية والقصصية والروائية والفلسفية ، (وهذا ما أسميه بالفن العقائدى) !! وأتساءل فى نهاية الرحلة : هل فى أدبنا العربى مثل هذا الفنان ؟ هل فيه مثل هذا الفيلسوف ؟ وأجيب بالقطع : لا !! وأزعم اننى غير جاهل بنبضات الوعى العقائدى ـ من خلال الفن ـ فى أبعاض شاحبة من ثمار عقلنا العربى المعاصر ، ولكننى ـ كما كررت ـ لست عن هذا أبحث ، وليست هذه قضيتى ·· ان قضيتى ان يكون الفنان العربى محتقبا لمنظور فلسفى كامل ، لنظرية عقائدية تفرض حلولها الوجودى من خلال الفن ، لرؤيا كونية متخلقة أو متنامية تندلع من جذوة اننا من هنا لا من هناك ، واننا قادرون على التصدى لما يمكن ان يكون نظرية فى الفن ، فنحن وارثوا أجيال من ثقافات العالم أو هكذا ينبغى لنا ان نكون ···

ان الفاجع ـ بالضرورة هو ان تظل المنطقة العربية ـ عـلى المستوى الفنى ـ حتى الآن بلا محتوى عقائدى · مع مسلمة ان هذه

المنطقة نفسها هى من صدر الى العـالم القديم والمعاصر كل قيمه العقائدية ٠

فليقل لى الصديق يوسف حسن نوفل ٠٠٠ هل استطاعت المنطقة العربية (على المستوى الفنى العربى المعاصر) أن تعطى هذا النموذج العقائدى ، مع التسليم البدئى بأن هذه المنطقة العربيـة يمكن ان تكون أقدر من غيرها على اعطاء هـذا النموذج العقائدى الفنان ؟؟

يقول الصديق ٠٠ ان المعاناة الحضارية التى حاصرت المنطقة تحت وابل من الاستعمار والتبشير وتخييم التخلف هى المسئولة عن ذلك ٠٠٠

ومن هنا ـ يقول الصديق ـ (فانى لا ألقى بما أحمل من هموم فوق رأس الأديب العربى فأغرقه من شعره الى أخمص قدميه ، وأطلب منه موقفا فنيا عقائديا وفلسفة حضارية ، بل أكاد أبرىء موقف الأديب ـ أقول أكاد ـ لأن الأديب نتاج بيئته ومجتمعه بما يحمله هذا المجتمع من مثالب ومحامد ، فاذا كان مجتمعنا فى حيرة من أمره ازاء اصـطخاب عالمه بغزوات متعددة متلاحقة متناقضـة متضاربة ، أفلا يكون شيئا حتميا ان يحار الأديب ويضطرب ؟) أ ٠ هـ ٠٠

وأود هنا أن أوافق الصديق الباحث ، ولكنى ـ أكاد ـ أن أخالفه ، فالمنطقة العربية تحمل من المعاناة أرتالا هائلة ، ولكنهـا كذلك تحمل من التمدد فى أعراق التاريخ ما لا يحمله غيرها ؛ هذا شىء ٠٠٠ والشىء الآخر ان هذه المعاناة كان يمكن أن تكون محورا لتفجر فنى بلا حدود ٠٠ كان يمكن ان تكون تجربة مأساوية للاحم وليست لملحمة واحدة ، والشىء الثالث هو ان انفتاحنا على الثقافة الغربية ـ فيما أعتقد ـ بلغ من عمره الآن قرابة قرن ونصف القرن

أو يزيد ، أفلم يكن من المستطاع أن يولد على أرض هـذه المنطقة خلال هذه المرحلة الهائلة فنانون عقائديون يتحسسون أعماقهم وتراثهم وتجاريبهم المأساوية فيما يعكسون من فن . وفيما يحطون من ابداع ؟

ألا يوافقنى الصديق على أن أدبنا العربى بفنونه المتشعبة كان يمكن ان يكون أقرب الى التكامل المذهبى لو انه صادف فنانه الحقيقى ، الذى ينزع عن فكر فلسفى متكامل أو متنام على الأقل ، ولكن فى اتجاهه الصاعد وليس فى كل اتجاه ؟؟

ان التصور الأول لمقال الصديق عن التخلف الحضارى كان يمكن ان يكون نقطة تحسس لمواقع خطواتنا على الطريق ، وليس نقطة احباط ديمومي بلا فكاك !!

ان التصور الثانى لمقال الصديق عن النماذج التىأشار اليها في أدبنا العربىليس بحاجة الى مناقشته ، لأن الصديق ـ كما يقول ـ (لم يقصد به النموذج الأمثل لانتاج عقائدى) ولكن اشارته الى نجيب محفوظ ، والى دراسة أحد الباحثين عن (الاسلام والروحية فيأدب نجيب محفوظ) بهدف تنصيب نجيب محفوظ فنانا عقائديا لمجرد انه قال فى رسالة الى المؤلف انه لم يجد تناقضا بين أحكامه عليه وبين نبض قلبه الخاص . فلا أدرى ماذا فى هذه الكلمـات يمكن أن يدعم دعوى ان نجيب محفوظ فنان عقـائدى .. وهى دعوى لا يعطيها على الاطلاق أدب كاتبنا العربى الكبير ، وربما كان البحث الدائب عن مجرد (اقتناع ذاتى) فى مجال العقائديات هو أكبر هموم كاتبنا على الاطلاق ... بمعنى انه ما يزال ـ وعفوا لنجيب محفوظ ـ فى طور الانفعال القابل ، ولم يصل بعد الى طور الفعل القادر على تحريك الآخرين فى اتجاهه المحتوى بلا هروب !!

ان التصدى الثالث لمقال الصديق عن عجز أدبائنا ومفكرينا عن استقطاب المذاهب الفنية والاتجاهات الأدبية العالمية للخروج منها بمذهب خاص يؤيد ما ذهبت اليه ولا يناقضه ، ولكنني أختلف معه في تصور أن دعوتي تبدأ من هنا أو تنتهي الى هناك ٠٠ انني ما قصدت أن أشايع أحدا دعا الى لون من هذه الألوان ٠٠٠ فهم يتحدثون عن مدارس الفن من كلاسيكية الى رومانتيكية الى رمزية الى سريالية الى لا معقولية بهدف استيعاب هذه المدارس أو التحرك من خلالها ٠٠ وأنا أتحدث عن فن عقائدى يؤمن بنظرية كاملة في الكون ، بفلسفة خاصة في الوجود ، ثم يصدر عن كل ذلك في ابداعه لا يهم أن يكون في شكل كلاسيكي ، أو في شكل رومانتيكي أو في شكل رمزى أو في شكل سريالي أو في شكل اللامعقول ٠٠ لأن كل واحد من هذه المذاهب الأدبية وجد فنانه الذى يهاجم تحت رايته فكرة (الله) ولعل الصديق يذكر أكثر مما أذكر أنا ، ان مسرحية يونسكو اللامعقولة (في انتظار جودو) تنتهي الى تأكيد أن انتظارنا لمجيء الله خرافة بلا طائل وبلا مضمون !!

أريد أن يجيء الفنان العقائدى الذى يؤكد قناعته النهائية بوجود الله من خلال أى شكل ٠٠ من خلال كل الاطارات ٠٠ وهذا فرق ما بيني وبين الداعين الى هذا الاتجاه !! انني باحث عن قضية في اطار وهم باحثون عن مجرد اطار !!

ان التصور الرابع لمقال الصديق عن أزمة الثقة بين الفنان وجماهيره يوشك أن يكون معى بلا اختلافات ٠٠ فلو أن فنانا عقائديا انبعث من ضمير هذا الكم الحضارى الذى ينتمي اليه ، لما وجدت أزمة الثقة هذه التي يشكو منها صديقي الفنان ٠ ان السلبية واللا مبالاة لا يمكن أن تكون بعض سمات هذا الفن العقائدى ، ان (التسيب) هو سمة هذا التخبط الذى يعاني منه الحرف العربي في هذه المرحلة المثقلة بآلاف الجراحات !!

ان التصور الخامس والأخير لمقال الصديق عن أهمية اللقـاء العقائدى. تصور صائب بلا حدود ..

ومن هنا .. أمد يدى الى الصـديق الباحث يوسف حسن نوفل ، فسطوره المكتنزة تعطى قضيتى أبعادا جديدة ، تلهنى رباطة الجأش في حراسة كل ما هو فكر وحرية ، تقتل فى فمى الصمت .. هذا الدثار الذى احتمى به من ثلوج أن أكون غير ما أنا كائن فى عالم لا يكف عن الدوار !! .

قراءة فى فكر الإسلاميين المعاصرين

على هامش السيرة ٠٠ من الوجهة النقدية

- ١ -

حين كتب الدكتور طه حسين كتابه الرائع : « على هامش السيرة » حاول فى مقدمته لهذا الكتاب أن يطرح عديدا من القضايا السالبة ، وعديدا من القضايا الموجبة ـ ان صح ان يقال ـ ويخيل الى أن هذه القضـــايا جميعا على مستوى الايجاب والسلب لا تهم الدراسة النقدية الا من وجه واحد هو التعرف على فكر الكاتب فيما أبدع من فن ، أو قل على محاولته الرد المسبق على ما يمكن أن يتعرض له عمله الابداعى من نقد وملاحظات ٠٠٠٠ أما ما يهم الدراســـة النقدية بالفعل فهو العمل الفنى نفسه ، بكل أبعاده وقضاياه ، وهو صيرورة الكاتب من قارىء مستوعب للتاريخ الى فنان متحرك بالفعل الابداعى فى مجال التاريخ ٠٠ هذا ـ فيما يخيل الى ـ هو ما يهم دراسة من هذا اللون ٠٠ وان كنا لا نستطيع فى الوقت نفسه ان نتخطى فكر الكاتب فيما ابدع من عمل ، أو شروطه الفنية فيمـا أعطى من نتاج ٠٠ كل ما هناك ٠٠ ان تكون الأولوية المطلقة للعمل الفنى بما هو مناط البحث ٠ ومناط الحوار !!

في مقدمة الكتاب يؤكد الدكتور طه حسين انه لا يتوجه بهذه الصفحات الى العلماء ولا الى المؤرخين ، لأنه لم يرد بها الى العلم ، ولم يقصد بها الى التاريخ .. وانما هي محاولة لرد الناس الى الأدب العربي القديم القادر – ككل أدب حقيقي – على العطاء في كل جيل مهما تقادمت به العصور ، وهو يستشهد في ذلك بخلود الالياذة التي ما تزال – على الرغم من كل المسافات التاريخية – قادرة على الالهام والايحاء والعطاء ..

وفي هذه المقولات يستبين الوجه الحقيقي لاتجاه الكاتب منذ البدء اتجاها فنيا لا هو علم ولا هو تاريخ .. وتتأكد قيمة المنحى الذي أحاول أن اؤكده دائما من ضرورة التفريق بين التاريخ ، والسيرة ، والترجمة .. ان التاريخ هنا مستبعد .. وكذلك السيرة المحققة .. أما الترجمة بما هي معنى رحلة في الحياة فقد تفتح ذراعيها وسع الانفتاح لهذا اللون من الكتابة الفنية ، لأن التاريخ ليس هدفها وان كان هو الأرض الحقيقية التي تتحرك عليها .. ولأن السيرة ليست هي ما ترمي اليه ، وان كانت تستفيد من حقائق هذه السيرة وترفض في نفس الوقت أن تستقصي مثلما تستقصي ، وان ترتب مرحلة على مرحلة مثلما تفعل .. يقول الدكتور طه حسين : (ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب ، فاني لم أفكر فيه تفكيرا ، ولا قدرته تقديرا ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون ، انما دفعت الى ذلك دفعا ، وأكرهت عليه اكراها ، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلىء بها نفسي ، ويفيض بها قلبي . وينطلق بها لساني) (١) ... هذا منحى رجل لا يكتب بالفعل تاريخا ، ولا يكتب بالفعل سيرة من السير . وانما هو منحى رجل يكتب ترجمة لبطل استجاشه وحركه . وملأ وجدانه

(١) على هامش السيرة – ص – ط

يقظة واخضرارا ٠٠ فأحب لا أن يعكس حياته بما هي رحلة بادئة من هنا ومنتهية الى هناك ، ولكنه أحب أن يعكس « معنى هـــذه الحياة ــ الرحلة » أو « معنى هذه الرحلة ــ الحياة » ٠٠ وانتهى الى قناعة ان هذا الاطار الفني هو ما يتيح له ان يعكس نبض الاعجاب ببطله على هذا النحو ، فأملى أو كتب هذه الفصول ٠٠٠ يؤكد هذا الذى أذهب اليه ان الدكتور طه حسين ينظر الى عمله في هذا الكتاب على انه ليس « سيرة » وليس « تاريخا » وانما هو ترجمة تغرى بقراءة السيرة في شكلها الموثق ، وتدفع الى قراءة التاريخ في مناطه الأساسي ٠٠ يقول الدكتور طه حسين : (فاذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب الى الشباب قراءة كتب الســيرة خاصة ، وكتب الأدب العربى القديم عامة ، والتماس المتاع الفنى فى صحفها الخصبة ، فأنا سعيد حقا ، موفق حقا لأحب الأشياء الى ، وآثرها عندى) (١) ٠

ويكاد الذين يضـــعون « على هامش السيرة » تحت جنـــاح الرواية التعليمية (٢) ، ظنا منهم ان وضعها هكذا يزرى بقيمتهـــا الفنية من جهة ، ويزرى بقيمة الرواية التعليمية من جهـــة أخرى يخطئون أبشع الخطأ ٠٠ فلست أدرى أية زراية يمكن ان تكون فى ان يتوجه الفنان الى جماهيره القارئة « بشيء » ٠٠٠ فى أن يعطى من خلال عمله « قيمة اخلاقية » ٠٠٠ فى أن يضع من منظور فنى نموذجا أو مثلا ؟؟ الذى أفهمه ان الرواية التعليمية حين تجنح الى المباشرة ، أو الوعظ ، أو الخطب الطويلة الجوفاء ٠٠ يمكن ان تكون فى هذه اللحظة ليست خارجة من دائرة الفن وحده ، وانما تصبح خارجة من دائرة المعقولية بما هى اعتساف هابط لشيء لا يحتمل الاعتساف !! وعلى الرغم من أن الدكتور طه حسين يتوجه بعمله

---

(٢) على هامش السيره ــ ص ــ ط

(٣) انظر : فاروق خورشيد ــ محمد فى الأدب المعاصر ــ ص ٦٩

الى الشباب عسى ان يحبب اليهم الحياة العربية الأولى فى يسرها وسذاجتها .. والى الشباب عسى ان يجد فى هذه الحياة موضوعا للانتاج العلمى فى التاريخ والأدب الوصـــفى والأدب الانشائى كذلك .. والى الشباب عسى ان يفهم أن القديم والجديد وجهان لشىء واحد هو استقطاب النفع منهما معا ... على الرغم من أن الدكتور طه حسين يتوجه بعمله الى أولئك الشباب على هذا النحو . فلست أعتقد أنه وقف ـ من خلال عمله كله ـ خطيبا يحرض أو يعظ أو يلقى بمقولات مباشرة ممجوجة ومرفوضة .. لقد أعطى كل ما يريد من خلال تقنية روائية فاهمة ، ولقد سبر أغوارا كثيرة ، وحدد ملامح وجوه كثيرة ، وركز على بطله أوشـــك أن أقول من جوانب أكثر .. ولكنه فى كل أولئك لم يجنح الى المباشرة ، ولم يجنح الى التعليمية الباردة ، والتلقين البليد ... ولم يكن الهدف الاخلاقى المتضمن فى عمله ليتحيف على الاطلاق من قيمة العمل الفنى .. وهذا ما نقصد الى تأكيده وتعميقه !!

ويرفض الدكتور طه حسين ان يتكىء على العقل وحده فى هذا العمل ، ويعطى نفسه حرية أن يوسع على نفسه فى القصص ، وأن يمنحها من الحرية فى رواية الاخبار واختراع الحديث ما لم يجد به بأسا ، الا حين يتصل الحديث والخبر بشخص النبى (صلعم) أو بنحو من أنحـــاء الدين ، فانه لم يبح لنفسه فى ذلك حرية ولا سعة ، وانمــا التزم ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين (١) .

هنا تلوح الترجمة أوضح وأبرز ، ويلوح اللغط الشاغب حول اختراع الأحاديث والاخبار ساقطا متهاويــا ، لأن بطل الترجمة بحياته ، وأقواله ، وأعماله ، وما يتصل به من كل أولئك الأشياء

(١) انظر : على هامش السيرة ـ ص ٠ ك ٠

يبقى بعيدا عن التحريف والتزيد .. فاذا اخترع الكاتب بعيدا عن ذلك موقفا ليجلى به فكرة ، أو يفسر به ظاهرة ، أو يكشف به عن اتجاه نفسى .. فليس ذلك كله الا « تجسيدا » لحقائق يراد التعبير عنها ، ووسيلة ايضـــاح لتوصـيل شيء معين عن طريق التجسيد والتمثيل .. وقد يعترض هنا على أن الذى كبل من حرية الكاتب هو شخصية البطل بما هو نبى لا ينبغى أن نحمل عليه ما لم يقل ، أو نفترى على تاريخه ما لم يحدث . واذا وجب ذلك مع بطل نبى ، فقد يتجوز فيه مع بطل عادى من الناس ، فيحمله الكاتب ما لا يحتمل ، ويضـــيف الى تاريخه ما يجعل منه مجرد خيالات وأساطير ...

ولكن هذا الاعتراض ينسى منـذ البدء أن التراجم ليست مصادر تاريخية بقدر ما هى مصادر استبطانية ، أى اننا لا نلجأ اليها لكى نفيد من تاريخ البطل بما هو وقائع وأحداث ، وانما نلجأ اليها لكى نفيـد من تاريخ هذا البطل بما هو معنى وقائع ومعنى أحداث ومعنى أن نطل على شخصية بطلة على جانب هائل من البروز !! وهكذا تستقيم الموازين !!

وحتى لا نفقد احساسنا بصميمية هذا العمل وتاريخيته ، يحدد الدكتور طه حسين مصادر كتابه القديمة المحددة : سيرة ابن هشام .. وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبرى ، ويردف على الفور : (وليس فى هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث الا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد فى كتاب من هذه الكتب ، فاذا اتصل الخبر بشخص النبى فانى أرده الى مصدره ليستطيع من شاء ان يرجع اليه ، لا احتمل فى ذلك تبعة خاصة ، لانى لا أذهب

فيه مذهبا خاصـــا ، الا ان يكون تبسيطا فى الشرح والتفسير واستنباط العبرة والوصول بها الى قلوب الناس) (١) ٠

اذا انتهينا من تأمل مقدمة هذا العمل الفنى الرائع بحق ، وجدنا أنفسنا فى حيرة حقيقية أمام مواجهة العمل الفنى نفسه ٠٠ ان « تلخيص » العمل الروائى خطأ منهجى فادح بلا شك ، لأن قيمة العمل الروائى تكمن فى التفصيلات الهـــائلة ، والاستطرادات الشارحة ، واللمحات الموهوبة ، وفتات الواقع الحى حتى وان تناهى فى الصغر ٠٠٠ هذا وجه !! ولكن الدارس الذى لا يضع العمل الفنى أو قل صورة العمل الفنى تحت عينيه وعينى قرائه يواجه معضلة الدوران فى فراغ ، وتأمل وجه غائب تماما بلا جدوى ٠٠٠ هذا وجه آخر !! فماذا نفعل ؟؟

يخيل الى ان سلوك منهج وسطى فى هذا الصدد يمكن ان يكون أهدى وأوفق ٠٠ فلن نقدم على تلخيص العمل الروائى من جهة ، ولن ندور فى فراغ ذاهل من جهة أخرى ، وانما سنحدد أبرز قضايا هذه الترجمة الروائيه ، لنجرى معها حوارنا الذى قد يطول وقد يقصر ، فنكون بذلك السلوك الوسطى قد تنائينا عن اعتساف الخطأ المنهجى ٠٠ وتنائينا فى نفس اللحظة عن اعتساف العمل الاكاديمى فى فراغ لا يجدى أن ندور فيه ٠٠ وربما كان عرض هذا العمل على ما ارتضيناه ملامح صميمة للتراجم الروائية القصصية يبرز فى شكل نهائى ما نهدف الى تحقيقه وتأكيده من استظهار أبرز قضايا هذه الترجمة الفنية واجراء ما ننشد معهـــا من حوار نرجو فى نهاية الرحلة ان يكون على مستوى صوابى !!

---

(١) على هامش السيرة ـ ص : ك ، ب ، ل ٠

- ٢ -

لقد أدار الدكتور طه حسين ترجمته فى (على هامش السيرة) حول الحياة المادية والمعنوية لشخص النبى ، وغصت الرواية بشخوص آخرين .. الا انهم جميعا كانوا يمثلون روافد جانبية تتدفق فى هذا المصب العظيم .

فحديثه عن عبد المطلب ، وحديثه عن عبد الله ، وحديثه عن آمنه ، وحديثه عن شيوخ قريش وفتيانها ، وحديثه عن الرهبان والاحبار والقسس ، وحديثه عن أصحاب محمد وأعدائهم جميعا .. كل ذلك يشكل ليس حديثا فرعيا ، أو جملا معترضة ـ كما فهم بعض الباحثين (١) ـ وانما يشكل روافد جانبية تثرى الرافد الأعظم ، ويعطى نوعيات متعددة من الشخوص كان يتعامل معها محمد بكل ما أوتى من عظمة النفس ، ورحابة العقل ، وتفتح الوجدان ، فاذا هذه الشخوص بطبائعها الخيرة أو المعتمة ، دلالات انسانية حية تبرز تعدد جوانب هذه الشخصية ، وايماضها فى كل اتجاه ..

ان كل هذه الفصول التى تلوح جملا معترضة فى طريق السياق تشكل الاطار الحى لبطل هذه الترجمة الرائعة . فالنبض الحضارى فى العالم المعاصر ، والمعتقد السائد فى كل دولة ، والمستوى الفكرى لدى كل شعب ، وطبيعة تعامل النوع البشرى مع الاشياء والاحياء هنا وهناك ، وتأثير الوسط الاقتصادى على الوسط النفسى والاجتماعى ، واتجاه السياسات على تخالفها الى ضرب الفكر والعقل وتحفز الجماهير .. ان كل أولئك يشكل بالفعل نوعية الاطار الحى الذى استدعى دعوة ، واستقبل هذه الدعوة ، ويشكل آخر الأمر « عالمية » هذه الدعوة بما هى بالضرورة « مطلب

---

(١) فاروق خورشيد ـ « محمد فى الأدب المعاصر » ص : ٨٤ .

عالمى » موجه الى ضرب فساد كل الحياة فى اطارها الشمولى ، ليقيمها على طبيعة الحق والخير والجمال .

وربما ذهب الدكتور طه حسين فى ذلك الى أبعد من التزام التركيز على البيئة الانسانية الحية التى كان يتعامل معها محمد .. الى التركيز على نوعيات من البيئات المادية الأخرى التى ربما تلوح فى حديثه عن يثرب ، ومكة ، والطائف ، واليمن ، وروما ، وغير ذلك من البيئات ..

وربما ذهب أبعد فأبعد الى التركيز على نوعيات من البيئات الفكرية والعقائدية والنفسية الاخرى التى مهدت لظهور محمد أو عاصرته كحديثه عن أشواق زيد بن عمرو ، وعن حواريات كلكراتيس وأندروكليس ، وحاكم المدينة ، والراهب الشيخ .. وهكذا تتكاتف الشخوص والبيئات بأنواعها على رسم صورة معمقة لمحمد قبل الرسالة وبعدها على السواء !!

وقد استطاع الدكتور طه حسين – عبر كل صفحات الكتاب – أن يوهم بالواقع وان يرتفع عنه فى نفس اللحظة .. فحديثه – مثلا – عن عبد المطلب أو عن مصعب بن عمير ، مع ما بين الشخصيتين من تفاوت هائل – يوحى بان حياة عبد المطلب ليست شيئا سوى هذه الهموم الروحية التائقة للمثل الاعلى ، والباحثة عن التزام قيم معينة حتى ولو ضحى فى سبيلها بابنه الأثير ... وهى توحى كذلك بأن حياة مصعب بن عمير ليست شيئا سوى هذا الانعطاف الحاد من ليونة الحياة الى معاناة شظفها الهائل ... ولكننا لا نخرج من الحديث عن هذين الرجلين بحيث نستقر بهما على هذا الافق التجريدى المثالى .. وانما نرى فيهما مع ذلك الى رجلين من عامة الناس يعيشان حياتهما ، ويستمتعان بخفضها متى أتيح لهما من ذلك نصيب ... وهكذا يركز الدكتور طه حسين على هذين الايقاعين معتنقين فيتيح لنا نوعا من الكشف التاريخى عن

الشخصية المحور ونوعا من التحليق معها في فضاء مثالي نابع من طينة هذه الارض وترابها · والأمثلة أكثر من أن نقف عندها عبر كل صفحات الكتاب !!

وقد عرف الدكتور طه حسين كيف ينفخ الروح فى المرحلة الزمانية التى عاشها محمد ـ انسانا ونبيا ـ ربما بانتخاب نوع من الحوادث التاريخية التى يمكن ان تكون لها صـــــفة الديمومة والشمول ـ كما نرى فى الصراع بين السلطة والجماهير ـ وكما نرى في تململ القطيع وثورة الفقراء ـ وربما بتحريك الحوادث التاريخية من منظور معاصر يعطى لها منطق التساوق مع اطارها الزمني من جهة ، ومنطق امكانية الاسقاط على ما نعيشه من واقع مادى وروحى من جهة أخرى ·· مثلا نستطيع من خلال حديث الدكتور طه حسين عن حب خديجة لمحمد وهيامها به ·· ان نرى آلافا من الوجوه الشريفة المعاصرة التى تكن مثل هذا الحب ، وتهيم مثل هذا الهيام ··· ونحن نستطيع ان نرى كذلك قيصر روما بكل بطشه وارهابه وجبروته فى كل القياصرة المعاصرين بلا فوارق تذكر فى هذا المجال ··· ولكن الدكتور طه حسين كان حريصا دائما على ان يعطى الحدث منطقه الطبيعى الذى لا ينبو به عن عصره ، ولا يخرج به عن مجال الآن الزمانى الذى عاشه وعاناه ·

وقد سار الدكتور طه حسين في كتابه على أساسية بارزة ، هو انه لم يحشد كل النقول التاريخية المتعلقة بحياة محمد وجهاده وانتصاراته ·· وانما ركز على مجموعة من النقول التى تعطى ترجمة حياة ، وصاغها صياغة قصصية وروائية ، وضرب صفحا عن عشرات من الاخبار والنقول التى ربما لا تضيف الى عمله ، أو التى ربما لا تساوق طبيعة المنهج الفنى الذى ارتضاه شكلا لهذه الترجمة التى أرادها على هذا النحو ان تكون ·· وربما لو أخذنا أى كتاب

من كتب السيرة القديمة ، أو أى كتاب من كتب التاريخ القديم لوجدنا فيه أضعاف ما نجد فى كتاب الدكتور طه حسين « على هامش السيرة » من الانباء والاخبار والنقول ... اننا لا نصادف محمدا « نبيا » فى « على هامش السيرة » الا من خلال شخوص ثانويين ، فأين صراعه المأساوى مع كل القوى المناوئة ؟ وأين وقوفه البطل فى وجه كل التيارات ؟ وأين حياته الشخصية ، وتقلبه بين الرضا والغضب ، والاتصال والانفصال ، والكد والراحة ، والدموع والابتسام ؟؟ ان أى كتاب يصادفنا أو نصادفه من كتب السيرة أو التاريخ ربما يعطينا حشدا من الأخبار نتسقط بعضه فى هذا العمل الفنى فلا نراه .. ان كل ما نجد هنا هو استقطاب النفس البشرية من حيث هى ذات مائجة بعوالم من الاحاسيس والنزعات .. ان الجزء الثانى من « على هامش السيرة » ينتهى ببدء بعثة النبى .. ليسلمنا فى الجزء الثالث الى أحاديث عن « عمرو ابن هشام » و « حمزة بن عبد المطلب » و « جعفر بن أبى طالب » و « عداس » و « مصعب بن عمير » و « ابن الأقلح » و « وحشى » و « ابن مخيريق » و « صفوان ابن أمية » و « زيد بن حارثة » و « حنظلة بن عمير الخزاعى » ... وينتهى الكتاب !!

أين اذن بداية الملحمة الحقيقية ؟ أين الصراع الخارق بين محمد وأعدائه ؟ ربما نجد أطرافا من هذا الصراع فى قصة كل واحد من أولئك الذين يبدو أن الحديث موجه اليهم وصادر عنهم ، الا أننا فى النهاية نكتشف ان كل قصة من هذه القصص تنتهى الى التركيز الدرامى على جانب من جوانب شخصية النبى .. ولكن هذه القصص مجتمعة أو مفرقة لا تعطى فى النهاية كل الكم التاريخى المرصود فى كتب السيرة القديمة أو فى كتب التاريخ ... وهذا هو معنى الانتقاء !!

وقد استطاع الدكتور طه حسين فى « على هامش السيرة »

ان يعيد تشكيل حياة بطله ، ليس بمعنى ان يعالج هذه الترجمة الفنية من منظوره المعاصر المثقف القادر على الانتخاب والرفض ، والتقديم والتأخير ، والالتزام والحرية فحسب ·· (ولكن التشكيل الجديد هنا يمتد الى دقائق البناء نفسه ، وما يستتبعه الاطار الروائي من تكامل فني ((١) ·· (وأنت تحس ان الكاتب قد راح يبحث في كتب السيرة بروح الفنان ، يقف عند الاحداث التي تهز من الفنان مشاعره ، ويختار من الشخصيات ما يلذ الفنان ان يصور انفعالاتها وعواطفها ، وهو يؤمن بما يقرأ ايمان الفنان ، ويصدق ما ترويه كتب السيرة تصديق الفنان الذي يخرج من الحدث المعجز بأدق ما فيه من معاني الانسانية ، وبأجمل ما يصوره من تشوف الانسان وتطلعه ، ومن عجز الانسان وقصوره ، وهو آخر الامر يلمس بريشته أدق ما في نفس الناس من نوازع تبدو مهما طال الزمن وكأنها بنت اليوم ووليدة الحاضر) (٢) ··

وقد لا يخطيء المتأمل ان يرى في « على هامش السيرة » تشكيلا جديدا لحياة النبي ·· أبرز ملامحه : **الرؤية الروائية للحياة** ·· والتركيز على أعمق جوانب الشخصية البطلة من خلال الزمان، والمكان ، والانسان ، وما يحرك كل أولئك من تيارات بادية ومستترة ·

وقد نرى في « على هامش السيرة » ايقاعا تاريخيا لا يختلف ، ولكنه « ايقاع » تاريخي بلا مزيد ·· فحفر زمزم ، والتحكيم ، والفداء ، وبشائر الميلاد ، والبعثة ، وكل الصراعات الفاجعة بين محمد وقريش ·· أحداث تاريخية حقيقية ، ولكنها هنا في كتاب الدكتور طه حسين تستحيل من مجرد أحداث تاريخية

---

(١) د· ماهر حسن فهمي ــ السيرة تاريخ وفن ــ ص ١٣٨ ــ ١٣٩ ·

(٢) فاروق خورشيد ــ محمد في الأدب المعاصر ــ ص ٧٥ ·

صلبة الى ايقاع تاريخي نابض بحركة الفن ، متدفق وفق تيار مسيرة الشخوص !!

ونرى الدكتور طه حسين ينوع في استعمال الضمائر والافعال عبر كتابه كله ، فبينما يبدأ الفصل الاول بالفعل الماضي : (كان عبد المطلب سمح الطبع ، رضي النفس ، سخي اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث) (١) ٠٠ لا يلبث يجنح الى الفعل المضارع بعد ذلك بقليل : (ثم يقبل الليل ويأوى الفتى الى مضجعه) (٢) ٠٠ ثم لا يلبث كذلك حتى يعطف الى فعل الامر : (أقبل أيها الصبح أسرع في الخطو ، ارفق بهذه النفس الحائرة ، هلم الى سوطك المشرق المضيء فبدد به هذه الاشخاص الماثلة ٠ فرق به هذه الظلال المضطربة من حولي) (٣) ٠٠ وهو حين يستعمل ضمير المتكلم : (ما رأيت كاليوم دعاء ولا اغراء) (٤) لا يلبث حتى يستعمل ضمير الغائب : (هي متمردة على العقل لانها أقوى منه ، وهو متمرد عليها لان الغرور قد أفسد عليه أمره) (٥) ثم هو لا يلبث أن يعطف الى ضمير المخاطب : (لك ان تلقاني بما أحببت من رفق وغلظة ، ولك ان تحدثني بما شئت من لين القول وعنيفه ، فقد وطنت نفسي على أن أحتملك كما أنت لان كل شيء فيك يروقني ويعجبني) (٦) ٠

وهكذا تتشابك الانحاء ، وتتكامل الابعاد ، من خلال تقلب الكاتب بوعي شمولي في مناحي البناء والحس التاريخي ، والتهديف المتواصل الى احتياز قيمة الفن الى جانب قيمة التاريخ !!

---

(١) على هامش السيرة ــ جـ ١ ص ١ ٠
(٢) على هامش السيرة ــ جـ ١ ص ٣ ٠
(٣) على هامش السيرة ــ جـ ١ ص ٦ ٠
(٤) على هامش السيرة ــ جـ ١ ص ٣٨ ٠
(٥) على هامش السيرة جـ ٢ ص ٦٧ ٠
(٦) على هامش السيرة ــ جـ ٣ ص ٦٤ ٠

- ٣ -

يلاحظ ان الدكتور طه حسين قد أدار حديثه فى كتـــابه : « على هامش السيرة » من خلال أشخاص كانوا من صـــــناع هذه الاحداث التى نراها فى هذا الــكتاب ٠٠ وهو يزاوج دائما بين الحديث عن الشخوص الابطـال والحـــوادث التاريخيه ، على غير ما يذهب اليه علماء التاريخ ٠ أو كتاب السير ٠٠ فعلماء التاريخ لا يعنيهم كثيرا ان يتحدثوا عن الشخوص الذين صنعوا هذا التاريخ بقدر ما يعنيهم ان يتحدثوا عن التاريخ نفسه ٠٠ وكتاب السير لا يعنيهم ان يتحدثوا عن الشخوص المجاورين للبطل بقدر ما يعنيهم الحديث عن البطل نفسه كأنه وحده صـــــانع الاحداث ومحرك التاريخ ٠٠٠ ولكن الدكتور طه حسين لا يعنى فقط بالحديث عن الشخوص الى جانب عنايته بالحديث عن التاريخ الذى صنعوه ٠٠ وانما هو يتحدث عن التاريخ من خلال أولئك الشخوص ، تواؤما مع المنهج الفنى فى كتابة التراجم الروائية أو القصصية جميعا ٠ اننا نواجه أول ما نواجه عبد المطلب ٠٠ ثم نفرا من قريش ٠٠ ثم زوجاته وأبناءه ٠٠ ثم تبعا وحسانا ، ثم أقيال اليمن وأذواءها ٠٠ ثم حاكم المدينة وكلكراتيس وأندروكليس والراهب كلينيوس ٠٠ ثم بحيرا وعمرو بن هشام وزيد بن عمرو ٠٠ ثم حمـــزة وجعفرا ومصعب بن عمير ٠٠ وغير هؤلاء وهؤلاء ٠٠ عشرات من الاسماء المحركة لحوادث التاريخ ، تصب كلها فى نهر هذا العمل الروائى العظيم ٠٠٠ ولست أعنى ان هؤلاء الشخوص من ابداع كاتبنا ٠٠ فهم أولا وأخيرا شخوص نابعون من مجرى التاريخ الصميمى ٠٠ ولكنى أعنى ان تحريكهم وتحريك الحوادث بهم يأتى على جانب من التزام التركيز عليهم كمحركين للاحداث فى هذا العمل ٠٠ بينما يلوحون فى التاريخ والسير كأنما تحركهم الأحداث وتستبد بهم طبائع الاشياء فى مسيرتها اللازمة ، اذا استثنينا فى السير بطلها وحده من هذا التعميم !!

وقد حرص الدكتور طه حسين على ان يقول كثيرا من اراءئه عبر هذا الكتاب .. آراءه فى السلطة .. وآراءه فى العدالة .. وآراءه فى الثروة ، وآراءه فى الفقر .. وآراءه فى الحرية .. وآراءه فى الاستعباد .. ولكنه لم يقل كل هذه الآراء فى شكل مباشر او وعظى ، ولكنه قالها من خلال شخوصه مرة كما فعل فى حديثه عن حاكم المدينة وكلكراتيس واندروكليس .. وقالها مرة أخرى من خلال الحوادث الفاجعة كما فعل فى حديثه عن العبيد الذين وكل باستعبادهم عمرو بن هشام ووكل بتحريرهم ابو بكر .. وقالها مرة ثالثة من خلال عديد من المفارقات كما فعل فى حديثه عن مصعب بن عمير بين جاهليته المترفة واسلامه الصابر المناضل الفقير !

ولنأخذ لذلك مثلا حديثه عن طغيان قيصر الذى هو طغيان كل القياصرة فى كل العصور : (قال حاكم المدينة : بل انا مشفق من جواسيس قيصر الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم ، والذين يندسون فى كل بيئة ، وينسلون الى كل مكان ، ويتلطفون حتى يعرفوا أسرار البيوت ، ويظهروا على دخائل النفوس) (١) ..

ومثلا آخر حديثه عن الحرية : (من الذى فرض لكم على الناس هذا السلطان ؟ ومن الذى أباح لكم ان تنفذوا الى نفوس الناس وضمائرهم ولا تسألوهم عما يعملون حتى تسألوهم عما يرون ؟ وما ينبغى لكم مع ذلك أن تسيطروا من أعمال الناس على شىء ما لم يبدو لكم صفحتهم أو يظهروا لكم مقاومة وعصيانا . فكيف بسؤالهم عن رأى العقل وحديث الضمير !) (٢) .

---

(١) على هامش السيرة ـ جـ ٢ ص ١٢ .

(٢) على هامش السيرة ـ جـ ٢ ص ١٤ .

وما أكثر الاقنعة التاريخية التي تحدث من خلالها الدكتور طه حسين عبر كتابه : « على هامش السيرة » عن اشـــواقه وأحــزانه وتمــرد فكره على مواضعات كثــيرة .. (وأنا أريد أن أزعم ان الدكتور طه حسين كان فى كل ما صور انما يصدر عن شىء حقيقى حى يجـــده فى عصره وأيامه ، ذلك القلق ، وتلك الحيرة ، وهذا اللون المتناقض من الشخصيات ، والبحث الجاد عن الايمان ، والاضطراب والقلق يغمر النفوس ويقض مضاجعها ، بل اريد أن أزعم ان هذا انصدق فى التعبير انما هو وليد معاناة وتجربة قد تكون تجربة روحية فنية خالصة ، وقد تكون تجربة معاشة بالفعل ، استحدثت الثوب القديم لتختفى وراءه واستعانت بالشخصيات التاريخية لتستخفى بعض الشىء) (١) .

وقد امتلأ كتاب : « على هامش السيرة » بالحوار الحقيقى التاريخى ، وبالحوار المستلهم من طبيعة المرحلة وطبيعةالاحداث وطبيعة الشخوص .. ان الجزء الثانى من هذا العمل يوشك أن يكون حوارا دائما .. وفى الجــزء الأول والثــالث كذلك ربما لا تخلو صفحة من حوار ، فاذا لم يجد الكاتب حوارا قائما بين شخوص عمله الروائى أقام هو حوارا « بينه وبين محدثه » .. أو « بينه وبين الذات فى محاولة لاستجلاء نجواها » أو « بينـــه وبين الطيف العابر » الى آخر ما هنـــاك من حواريات ! ولست أستطيع بالطبع نقل هذا الحوار كله أو بعضه .. فان صفحات مثل هذه الدراسة تضيق عن ذلك بلا حدود !

وقد استطاع الدكتــور طه حســين بحق لا ان يوفق الى صياغة أسلوبية فنية فحسب.. بل الى صياغة اسلوبية موائمة لطبيعة المرحلة وطبيعة الاحداث وطبيعة الشخوص .. فهو قد

---

(١) فاروق خورشيد ــ محمد فى الأدب المعاصر ــ ص ٨٨ .

وفق أولا الى صياغة أسلوبية فنية من حيث القص ، ورسم الشخصيات ، وتنامي الحدث ، وتشابكه ، والمزج الرائع بين الواقع والخيال ، وتعميق حس المتلقي بالزمان والمكان ، والقدرة على الايهام بالواقع والايهام بالارتفاع عنه فى نفس الوقت .. الى آخر عناصر هذه الصياغة الاسلوبية .. وهو قد وفق ثانيا الى صياغة أسلوبية موائمة لطبيعة المرحلة وطبيعة الاحداث وطبيعة الشخوص من حيث اعطاء الجو التاريخى ، وانطاق الشخوص بمقولات تتفق مع واقع هذا الجو التاريخى ، والتغلغل فى أحشاء الحركة المادية للمكان على نفس مستوى التغلغل فى أحشاء الحركة الروحية للزمان ، والاتكاء على نوعية من الاسلوب الابداعى يمكن أن تكون على لسان الشخوص القريبين من النبى مستعينة بالجملة القرآنية والأسلوب القرآنى كقوله : « فظلت منه فى شك مريب » (١) .. وقوله : « ان كانت لتأوى الى فراشها فيأخذها نوم هادىء رفيق» (٢) وقوله : «والا فليأذنوا بحرب تسحقهم سحقا » (٣) ، وقوله : «ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا وسمعوا، ولكن الله قد جعل لكل شىء قدرا»(٤) وقوله : «ويمضون لا يلوون على شىء حتى يبلغوا بيت آمنة ، فاذا دخل الشيخ ورأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينة (٥) » .. فاذا فارق الكاتب الحديث عن أولئك الشخوص الى الحديث عن شخوص آخرين كأولئك الذين نشأوا على الفكر اليونانى والثقافة اليونانية رأيته يعطى على الفور نوعية أخرى من الاسلوب الموائم لطبائع أولئك الشخوص .

---

(١) على هامش السيرة — ج ١ ص ٥٩ .

(٢) على هامش السيرة — ج ١ ص ٦١ .

(٣) على هامش السيرة — ج ١ ص ١٤١ .

(٤) على هامش السيرة — ج ١ ص ١٥٣ .

(٥) على هامش السيرة — ج ١ ص ١٥٤ .

وقد ذهب الدكتور طه حسين فى احتواء عنصر الخيــال الى آماد بعيدة ، وضرب بخياله فى اعماق النفوس ، وفى شعاب الطبيعة ، وفى منادح الفكر والثقافات ، وفى أجــواء الديانات الغابرة بكل آفاقها المتراحبة ..

نستطيع أن نرى ايغاله فى اســتبطان الذوات من خــلال أحزان عبد المطلب عقب رحيل ابنه عبــد الله(١) ، ومن خــلال هواجس آمنة بعد انفلات زوجهــا الى رحلة الغروب(٢) ، ومن خلال رحلة كيمون الى مالا يدرى من الآفاق (٣) ..

ونستطيع أن نرى تحليقه فى سماوات الطبيعة من خــلال حديثه عن الصحراء ، والليل ، والفجر ، والصمت ، واحزان الأشياء فى جلالها الابدى ، وقد نشير هنا الى مطالع حديثه عن جعفر بن أبى طالب (٤) ، فهو شعر متوجه به الى الطبيعة محلق الى آفاق عالية من الخيال الموهوب .

ونستطيع أن نرى جولانه فى منادح الفكر والثقــافات من خلال فصول رائعة بكاملها تدير ألوانا من الحوار بين اندروكليس اللاهى فى حيــاته بكل شىء .. وكلكراتيس البــاحث فى ديمومة لا تنقطع عن كل شىء .. وحاكم المدينة الرومانى المضطرب بين الصمود والانهيار .. والراهب الشــيخ الذى يضــع يده على أفواه (٥) الجروح !!

---

(١) على هامش السيرة — ج ١ ص ٥٦ وما بعدها .

(٢) على هامش السيرة — ج ١ ص ٥٨ وما بعدها .

(٣) على هامش السيرة — ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها .

(٤) على هامش السيرة — ج ٣ ص ١٢٧ .

(٥) أنظر : الجزء الثانى من « على هامش السيرة » .

ونستطيع ان نرى حواره الصميمي مع كل الديانات الغابرة من خلال حديثه عن المسيحية ، وعن اليهودية (١) .. ومن خلال حديثه عن الوثنية فى بلاد العرب (٢) .

وقد حاول الدكتور طه حسين ان يستثير التعاطف مع ابطاله غير مرة فى كتابه الممتع .. فهو قد استثارنا الى التعاطف مع عبد المطلب فى كفاحه الدائب ، وفى بحثه عن المجهول ، وفى التلقى الغامض عن المجهول ، وفى وفائه ينذره القاتل ، وفى حديث نفسه بعد رحيل ابنه عبد الله ، وفى تلقى نبأ الهول ، وفى استقباله لحفيده وايثاره له .. وهو قد استثارنا الى التعاطف مع عبدالله المنذور للفداء فى كل مراحل محنته .. ومع آمنة العروس التى رحل عنها زوجها وما يزال خضاب العرس مرتقا فى يديها الصغيرتين .. ومع محمد طفلا يتيما ، وشابا جائعا لاحتضان الارض والسماء ، ورجلا حاملا راية الفتح فى ممالك السقوط .. وهو قد استثارنا الى التعاطف مع كل من تحدث عنه من أولئك الرائعين الذين ناصروا محمدا ، وحملوا الى جواره عبء الرسالة وتبعات النضال !

وقد حاول الدكتور طه حسين أن يفرق بين ما هو تاريخ وما هو سيرة وما هو ترجمة ، الا اننا نستطيع أن نزعم ان الدكتور طه حسين طبق مقولات هذه التفرقة دون أن يؤصل لها أو يفطن على نحو علمي جازم لحدودها القاطعة والحاسمة .. فقد كتب الرجل عن محمد ليس تاريخا مستقصيا جامدا ، وليس سيرة مستوعبة مرتبة ، وانما كتب ترجمة تعنى برحلة المعنى فى الحياة ، بمعنى رحلة الحياة معا ، وان كان لم يضع شروط هذه الالوان تحت عينيه أو عينى قرائه على السواء .

---

(١) أنظر : الجزء الأول من « على هامش السيرة » ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر « على هامش السيرة » الأجزاء .

- ٤ -

اذا فرغنا من هـذا العمل الابداعى العظيم « على هامش السيرة » الذى كتبه الدكتور طه حسين من واقع الحب والفن فاننا لا نستطيع أن نزعم على الاطلاق ان هذه الظواهر الفنية التى ركزنا عليها حتى الآن هى كل ما فى هذا العمل من ظواهر فنية .. فهناك أشياء كثيرة أخرى كالاستطراد لشرح موقف أو فكرة(١)، ورضا الكاتب عن كل ما ذكر التاريخ (٢) ، واقتناص المـواقف لشجب شىء أو تكريس شىء آخر (٣) ، واجراء مزيد من المنولوج الداخلى (٤) ، وتلوين السياق أحيانا بالمسحة الأسطورية(٥) ، واتخـاذ بعض المواقف الوعظيـة التى تتخلل السرد الروائى (٦) وابتسار المواقف أحيـانا (٧) ، وتدخـل الروايات التـاريخية بحرفيتها واسنادها كذلك فى بعض المواطن دون تمهيد لها (٨) ، وتدخلها فى بعض المواطن الاخرى من خـلال التمهيـد التاريخى المنطقى لها(٩) .. الى آخر هذه الظواهر الكثيرة الهائلة .. وربما لا نسـتطيع أن نزعم على الاطلاق كذلك ان الباحث فى مجـال التراجم الغيرية فى الأدب العربى الحديث قد يكتفى بتأمل هـذا

---

(١) أنظر ص ٧١ جـ ١ .

(٢) أنظر ص ٢٢ × جـ ١

(٣) أنظر ص ١٩٤ جـ ١

(٤) أنظر ص ١٠٥ جـ ١

(٥) أنظر ص ١٠٦ جـ ١

(٦) أنظر ص ١٦٤ جـ ١

(٧) أنظر ص ١٦٧ جـ ١

(٨) أنظر ص ١٦٨ جـ ١ وما بعدها

(٩) أنظر ص ١٧٨ جـ ١

النوع من الظواهر الفنية ، فقد يهمه أن يقف على طبيعة النص التاريخى ٠٠ وطبيعة انحناء كل الخطوط فى العمل الروائى لتلتقى بالخط الأساسى الذى يعكس حياة ومشاعر وصورة البطل ٠٠ وطبيعة المزج بين ما هو تاريخ صميمى وما هو رؤيا تاريخية مستنبطة من واقع السياق ... الى آخر ما هناك من ظواهر بنوعياتها المتغايرة !

ولكننا فى النهاية لا نستطيع ان نغفل الاشارة الى أن الدكتور طه حسين كتب فى « على هامش السيرة » ترجمة روائية لمحمد بن عبد الله ، مستخدما فى بناء هذا العمل تقنيات كثيرة متعددة ٠٠ من قص ٠٠ الى رواية ٠٠ الى خيال ٠٠ الى واقع ٠٠ الى اسقاط ٠٠ تفريق الحديث عن مواطن وشخوص ثم الانتهاء بهذه الأحاديث الى شخصية البطل الحقيقى ٠٠ الى استبطان كل رواية وكل شخصية وكل مفارقة ٠٠ الى غير ذلك من الأساليب التى أخرجت لنا فى نهاية الأمر عملا روائيا بالغ الروعة ، متوامض الأنحاء ٠

وقبل ان نطوى أوراقنا ونمضى ، فلابد لنا من تفرس ملامح هذا العمل الابداعى العظيم ٠ لنخرج بصورة مقاربة عن أبرز هذه الملامح ٠

نتوقف هنا امام دوران مثل هذا العمل الابداعى حول الحياة المادية والمعنوية لشخص واحد متعين : حتى ولو غص هذا العمل بشخوص آخرين ، لأن كل اولئك جميعا انما يشكلون فى نهاية الأمر روافد جانبيه تصب فى نهر الشخصية البطلة ،

او يعكسون بتغاير وجوههم وطباعهم واتجاهاتهم جوانب من عالم هذه الشخصية البطلة ، بحيث ننتهى مع المؤلف الى حقيقة أن بطله انسان متعدد الجوانب والزوايا .. قادر على قيادة كل الأنماط فى كل الاتجاهات ..

ونتوقف أمام قدرة هذا العمل على الايهام بالواقع والارتفاع عنه فى وقت معا ، بحيث يتاح للمتلقى نوعا من الكشف التاريخى - عن شخصية البطل أو عصره أو هما معا - ونوعا من التحليق فى فضاء مثالى نابع من طينة هذه الارض وترابها ، وهذه الظاهرة لا تشكل مطعنا موجها الى انتخاب بطل تاريخى معين فهو ليس قصدا عشوائيا ، انه انتخاب هادف الى تجلية حقيقة تاريخية ، الى جوار حقيقة انسانية ، تتيح للمتلقى فى كل العصور نوعا من التأسى والاحتذاء ، أو على الأقل الاستجاشة والاستنفار .. والا ... فعبث ضائع ان يختار الكاتب بطله من الواقع التاريخى ، بكل ما يفرضه هذا الاختيار من ضرورات وقيود هو فى غنى عنها اذا انطلق ببطله من منطلق خيالى الى مستقر خيالى .. (وليست الرواية بالضرورة غير اخلاقية ، لأن الروائى يسعى نحو فكرة مسيطرة أو هدف مسيطر (١)) .

ونتوقف أمام نفخ الروح فى الآن الزمانى الذى عاشه البطل ، وفى الأحداث التاريخية التى حركها ، أو تحرك بها ، بكل ما يتيحه العمل الفنى من اقتدار للآنات الزمنية الماضية ، والحوادث التاريخية الهامدة ، على التحرك الحى ، والصراع الوجودى بين البطل وما يحتويه من عوالم مادية وروحية وانسانية ، والافادة من تجارب التاريخ فى تجاوز الحاضر الى المستقبل .

---

(١) د.ه. لورنس - نظرية الرواية فى الأدب الانجليزى الحديث .

ونتوقف امام حق هذا العمل فى الانتقاء والاختيار ، وهو حق لا يتاح للتاريخ بمعناه العـام ، أن العمل الفنى ينتقى من سـياق الحوادث التاريخية للبطل ما يسـاوق طبيعة التشكيـل الروائى والقصصى ، وما يتيح لهذا التشكيل آمادا من تطـور الحركة ، وتنامى البناء ، ودرامية الحدث ، والا كان اختيـار هذا اللون عبثا ضـائعا بلا معنى ... وكان اللجوء الى الحقيقة التاريخية الصلبة اهدى واقمن بالاتجاه اليه .

ونتوقف أمام اعادة تشكيل حياة البطل بما تتيحه هـذه الاعادة من تقديم ، وتأخير ، واثبات ، وحـذف ، وتفسـير ، وخيال ، وواضـح هنا أن كاتب التراجم الروائية والقصصية لا يمكن أن يعمد الى كتب التاريخ الموثقة فينقل عنها حياة بطله كمـا جاءت فى هذه الكتب التاريخيـة الموثقة ، لأنه حينـذاك سيصبح مؤرخا لا فنانا ، ولن تكون جهوده سوى بتر حياة بطله من مجموع الأحداث التى تعاورت المرحلة التى عاشـها هـذا البطل .. ان عمله الحقيقى هو اعادة تشكيل هذه الحياة ، بكل ما تعنى هذه الاعادة من حرية البدء والمسار والختام جميعـا ، ومن حرية الأخذ والرفض معا ، ومن حرية النجوى والخيـال والاسقاط على السواء .. اذا اضفنا الى ذلك عامـلا جذريا صميما .. هـو البناء الروائى أو القصصى ، بكل ما تعنيه كلمة البناء من دلالات الاسلوب ، والصنعة ، والبـداية ، والنمو ، والتطوير ، والتكامل ، والحكاية ، ورسم الشخصيات ، وكل ما يسهم فى اثراء المضمون وتجديد الشكل .

ونتوقف أمام الاتكاء على العنصر التاريخى ، فان التراجم الروائية والقصصية لا يمكن أن تدور فى فراغ خيالى ، والا كانت عملا ابداعيا محضا ، ان الابداع هنا — فى التراجم الفنية — يتعلق بطريقة الانتقاء والتشـكيل والبنـاء ، ولكنـه ينأى تماما عن أن

يكون ابداعا لمسيرة حياة البطل من حيث هى وهم خيالى مقترح من الذاكرة أو من مجرد التخييل ..

ونتوقف أمام اباحة استعمال الضمائر والأفعال لكاتب التراجم الفنية بلا حدود .. فقد يجوز أن يروى أو يقص بضمير الغائب ، أو بضمير المتكلم ، أو بضمير المخاطب ... وقد يجوز أن يروى أو يقص بالفعل الماضى ، او بالفعل المضارع ، أو بفعل الأمر .. وهذا غير متساح بالطبيعة للمؤرخ أو الكاتب الا فى أضيق الحدود .

ونتوقف أمام التركيز على الاشخاص بالقدر الذى نركز به على الأحداث ، واذا كان المؤرخ لا يعنيه الا ان يركز على الاحداث بما هى النسيج الطبيعى لفكرة التاريخ ، فان كاتب التراجم الفنية يعنيه بالدرجة الأولى أن يركز على الاشخاص الذين صنعوا التاريخ ، ووقفوا وراء كل الأحداث ، وبما لأنه لا يرى فى التاريخ جبرية مطلقة تسير عشوائيا من البدايات للنهايات ، ولكنه يرى فى التاريخ عقلا انسانيا يصنع الحدث ، ويطوره ، ويعيش به فى أعمار الزمان ..

ونتوقف أمام حق كاتب التراجم الفنية فى أن يقول آراءه وأن يصوغ مقولاته فى الحدود التى لا تفسد طبيعة عمله الروائى والقصصى ، ولا تخرج بالترجمة من مجالها الى مجال القصة التاريخية ، أو الخطب الوعظية ، أو الشرح العقائدى ..

ونتوقف أمام اقتدار هذا اللون على أن يكون قناعا تاريخيا يبوح من ورائه الكاتب بكل ما يتلاطم فى صدره من عوامل الجذب والرفض والقلق والتمرد والانفجار ... بشرط أن تكون الشخصية التاريخية المترجمة من الاتساع والرحابة بحيث تتيح له هذا القدر الهائل من التحرك وبشرط أن لا يشعرنا كاتب التراجم أنه

هو الذى يفضى ، وانه هو الذى يبوح ، وانما على النقيض من ذلك ينبغى له أن يشعرنا ان هذا الحديث هو حديث شخصيته التاريخيــة ، الا اذا لفت الى انه يســتطرد من هــذه المواقف التاريخية الى التنظير لها من خــلال مــواقف اخــرى مشـــابهة تعيش فى عصره الذى يحياه .

ونتوقف امام احتواء الحوار فى التراجم الفنية .. بشرط أن يكون الحوار اما حقيقيا جرى على السنة أبطاله ، واما غير حقيقى فيوحى لنا الكاتب بطريقته الخاصة ان هــذا الحــوار مستلهم فحسب من طبيعة مقولات بطله فى الحياة ، أو من طبيعة عصره وما يمور فيه من موافقات ومخالفات .

ونتوقف أمام الصياغة الأســلوبية الخاصة من حيث دقتها ودرجة الفنية فيها .. ((وقد كان « فلوبير » واعيا لمثل هــذه القيم حين قال : انه مهما كان الشيء الذى يسعى الانسان الى التعبير عنه ، فان هناك كلمة واحدة تعبر عنه وفعلا واحدا يوحى به وصفة واحدة تحــدده ، ولهــذا كان على الكاتب ان يطيل البحث والتنقيب حتى يعثر على هذه الكلمة وذاك الفعل وتلك الصفة ، فعملية الصياغة ليست الا كفاحا متصلا مع متطلبات المعنى والاحساس)) (١) .

ونتوقف أمام اتاحة حق الخيــال لكاتب التراجم الفنية بالقدر الــذى لا يفســـد فيه طبيعة الواقع ولا منطق الأحــداث ، بمعنى أن يكون الخيال ناهضا بدور فى البناء الفعلى للترجمة ، كأن يملأ ثغرة ، أو ينهض بنجوى ، أو يتيح قدرا من الفعل الفنى الذى يلين من صــلابة المادة التاريخية ويحيلها من مجرد أحــداث

---

(١) د. ماهر حسن فهمى ــ السيرة تاريخ وفن ــ ص ٨٦ .

صماء الى شرائح حية من جسد الوجود ونبضه وايقاعه ..

ونتوقف أمام محاولة استثارة التعاطف مع بطل هذه الترجمة ، من خلال منطق محاذر تماما ، حتى لا تستحيل هذه المحاوله الى دفاع أعمى أو تعصب جاهل أو خطابية جوفاء .. أن التعاطف شيء والتعصب شيء آخر ، وهذا هو ما ينبغى أن يكون فى ذاكرة الكاتب بلا فكاك .

ونتوقف أمام التفرقة الجاسمة — فى ذهن الكاتب على الأقل — بين ما هو تاريخ ، وما هو سيرة ، وما هو ترجمة .. ان التاريخ هو مجموع هذه المادة الصلبة من الاخبار والاحداث والخطوب التى أخذت وضعها الحلولى النهائى فى مرحلة زمانية معينة بحيث لا نستطيع حيالها تغييرا ولا تحريفا .. اما السيرة فهى اقتطاع حياة خاصة لرجل خاص من هذا لمجموع التاريخى الهائل على نحو استقصائى أو مقارب على الأقل .. أما الترجمة فهى معنى رحلة خاصة لكائن خاص فى الحياة بكل ما يحمل مصطلح «معنى الرحلة» من أبعاد وأعماق ..

وفى يقينى أن هذه التفرقة الحاسمة هى وحدها التى يمكن ان تحل لنا المعادلة الصعبة — كما يقولون — فى الفكر النقدى ، حيث يضطرب هذا الفكر كثيرا أمام أعمال ابداعية مثل « على هامش السيرة » مثلا ، فيحار هل يضمها الى عالم السيرة ؟ ولكن السيرة ترتكز على واقع تاريخى بينما يذهب هذا العمل الى التطوح الهائل فى عوالم الخيال ؟؟ هل يضمها الى عالم الخلق الروائى ؟ ولكن الخلق الروائى يرتكز على واقع خيالى بينما يذهب هذا العمل الى التزام التاريخ فى مواضع شتى من جوانبه حتى لينقل عن التاريخ أحيانا نقلا حرفيا لا يتعدى الرواية الى مجرد صياغة مضمونها من جديد ؟؟ !!

ما الحل اذن ؟ ؟

فى يقينى أن الحل هو استقرارنا على فهم التراجم فهمـا غير مشتبك مع السيرة هكذا فى اعتباط .. أن فهـم التراجم تحت مصطلح « معنى الرحلة فى الحياة » يستقطب على الفور كل الاعمال التى حاولت أن تعطى تراجم من هذا اللون .. تراجم تعطى التاريخ حقه والابداع حقه كذلك لأن السيرة هنا ليست معنى رحلة فى الحياة كما نقول عن التراجم .. وانما هى الرحلة فى الحياة غير مختلطة بشىء آخر .. ولكن .. يجب هنـا أن نتيقظ دائما الى حجم الخيال ونوعيته فى التراجم حتى لا تختلط التراجم بالقصة التاريخية حين تسرف فى ذلك او تختلق فيه .. وحتى لا تختلط التراجم بالسير حين تقف عند حد الاستقصاء او تأمل الوجه الخارجى للأحداث ..

اكاد أؤكد أن هذه الملامح الفارقة هى بعض ما يميز مثل هذا العمل الابداعى عما سواه . وهذا وحده هو ما يعطى هـذه هذه السطور قيمة أن تنحنى بكل هذا الجهـد على تأمل هـذه المعطيات ، ليس ذلك فحسب ، وانما هو بالتالى ما يعطى هذه السطور مبرر وجودها البدئى على هذا النمط الدارس المتفرس بلا مبالغات .. أو التواءات !!

ملامح المنهج التحليلي في عبقريات العقاد

مقـــدمة

- ١ -

من الطبيعي في حركة فكرية تملك عافيتها تماما ان لا تستحيل بعض ظواهرهـا الصـميمة الى تكرير لبعض الظواهر الصـميمة الأخرى ، وان تندفع تياراتها في اتجاهات متباينة وأنحاء متعددة حتى لا يكون صوت صدى لصوت ، ولا وجه هو صورة من وجه !!

وقد استطاعت حركة الفكر العربي الحديث على مســـتوى الابداع في مجال التراجم مثلا ان تحتاز هذه القيمة ، وان تمتلك هذه الناصية ، وان يكون اتجاه منها الى حركة التراجم التحليلية ـ كما نرى عند العقاد في عبقرياته ـ واتجاه الى حركة التراجم الروائية ـ كما نرى عند طه حسين في على هامش السيرة ـ واتجاه الى حركة التراجم التاريخية ـ كما نرى عند محمد حسين هيكل في حياة محمد ـ واتجاه الى حركة التراجم المسرحية ـ كما نرى عند توفيق الحكيم في مسرحية محمد ـ وان يكون هذا المد قادرا بذاته على التراحب والانداح والتمدد في جهود أغيار كثيرين حتى قبل ان ينزل الستار على حيوات رواده الرائعين ، مما يؤكد ان اتجاهاتهم

الفكرية والفنية كانت تعبيرا عن روح مرحلة بكاملها ، ولم تكن مجرد ارتعاش بالكلمة على سفوح الورق .

ان قيمة أولئك الرواد تنبثق من وضعيتهم كمبدعين كما تنبثق من وضعيتهم كمقعدين .. وليست هذه الوضعية الثنائية بهينة في موازين الحكم ، وليست بضامرة فى مجال المقارنات والموازنات ..

لقد مضى العقاد بالمنهج التحليلى ابداعا وتقعيدا .. ومضى بالمنهج الروائى والقصصى طه حسين .. ومضى بالمنهج المسرحى توفيق الحكيم .. ومضى بالمنهج التاريخى هيكل وأحمد أمين .. والجدير بالتقدير فى أمر أولئك الرواد انهم بقدر ما أفادوا من الروافد الثقافية الوافدة بقدر ما استعصوا على الذوبان فى هذه الروافد مع ما صاحب قدومها من بريق وضجيج ، والعجيب ان أولئك الكبار بحق لم ينغضوا رؤسهم الى تراثنا الفكرى والحضارى وانما ظلوا على صلة واشجة به يستوحونه ويبدعون فيه . ويحاولون بكل ما أفادوا أن يطوروا مضامينه وأشكاله ، وقد أتيح لهم من ذلك أمد ليس بالضامر ولا بالهزيل ، فاذا أضفنا الى ذلك قيمة ان هذه التراجم الغيرية التى أبدعها هؤلاء الرواد على اختلافها نوعيا تمثل كثيرا من القيم الحضارية التى كانت سائدة فى مراحل ابداعها الزمنية هالنا بالفعل ما قام به هؤلاء ، وان كان هذا الفتون أو قل هذا الاعتراف بدورهم الريادى فى هذا الصدد لا يصرف أيا من الأقلام الناقدة ولا ينبغى أن يصرف أيا من الأقلام الناقدة عن التصدى الراصد هكذا وجها لوجه لكثير من المآخذ التى يمكن ان تؤخذ على هذه الأعمال !!

وقد يبدو هذا الاجمال غير منطقى فى دراسة تتصدى لرصد ملامح منهج بكامله ، وقد تلوح هنا ضرورة التفصيل والتأصيل

والتعميق ، فاذا عرفنا ان الاستجابة الفكرية لهذه الضرورة ليست هوى ذاتيا بقدر ما هى حتمية موضوعية يفرضها المسار الطبيعى لحركة الفكر فى هذا المجال ، كانت ضرورة الاستجابة لهذه الضرورة أعمق أبعادا وأبعد أعماقا بلا حدود !!

والكاتب العربى الكبير عباس محمود العقــاد يقف على رأس المنهج التحليلى فى كتابة التراجم الغيرية ، فاذا خصصنا الحديث هنا عن عبقرياته فليس لانها هى المستوى الوحيد القادر على ابراز قسماته فى هذا الصدد ، بقدر ما هى المستوى « النوعى » المتكامل الذى يعطى المثل ويتحرك فى نفس المجال ، اعنى ان العظمة الكامنة فى محمد هى العظمة السارية الى أبى بكر ·· وعمر ·· وعثمان ·· وعلى ·· أولئك الذين كتب عنهم العقاد عبقرياته الشــــامخة التى ما تزال حتى اليوم رافدا يتدفق بالضوء والعطر والجلال الفكرى ، والتى ما نزال نحن فى حاجة الى من يكتب عن عظماء تاريخنا من مثل منظورها الجاد الذى يرفض أن يجرى على مســـلمات لاكتها جماهير أقلام بلا حصر ، ولكنها أبدا لم تعكس نبضة صدق واحدة ، ولا نبضة وعى تضيف الى ملامح وجودنا الفـــكرى فى عالم لاغط بملايين الاضافات !!

ولقد نعرف ان منهج العقاد التحليلى فى كتابة التراجم الغيرية قد هوجم بلا هوادة ، وعيب عليه بلا تحفظ ، وأخذ كما تؤخذ الثغرة فى جدار يقتحم منهـــا الواغلون والدخلاء والمنطوون على حفائظ باهظة ، وضغن غبى ، ولكن كاهل العقاد كان دائما أقوى !!

لا ننفى ان فى كتابات العقاد ما يمكن ان يؤخذ عليه وأن يدار مع فكره فيه حوار ما ·· ولكن ليس معنى ذلك أبدا ان العقاد لم يفهم طبيعة منهجه ولا طبيعة كتابة التراجم الغيرية ، أو أن العقاد قد اعتسف طريقه الى هذه الكتابة اعتسافا ، فالعقاد ــ بشــــهادة

التاريخ لا بشهاداتنا نحن ـ واحد من قلائل منقفينا على الاطلاق ، وواحد من أنبغ مبدعينا في حركة الفكر العربي قديمه وحديثه .

لقد تقف عبقريات العقاد على مستوى الندية لكثير مما كتب في تاريخ التراجم الغيرية من كتابات ، خاصة على المستوى العربي ، ربما لانها تنطلق من موقف استقلال بحت حين اتجهت الى هذا اللون من ألوان التراجم التحليلية غير مبالية بما يمكن ان يكون في طريقها اليه من صبجور ومعوقات .. والواقع اننا في ظلمات جمودنا الراهن أحوج ما نكون الى هذه الفرادة وهذا التميز ، فقد غثيت نفوسنا من طول ملامسة السطوح وتقيؤ البديهات !!

واذا كان لتكوين العقاد ـ فكريا ونفسيا ـ اثر في اتجاهه هذا الاتجاه ، فان ذلك لا يغض من القيمة الحقيقية للتحول بكتابة التراجم من نسقها التاريخي السردي الى هذا النسق المتأمل المقارن الطموح ، ان قيمة الكاتب الفكرية لا تشيد على فرضيات أو مجرد أماني ، ان قيمته الحقيقية ثاوية وقافزة معـا في كل ما أنجز من فعل فكري ، وفي كل ما ابدع ـ بذهنية مستقلة ـ من مقولات .. لا يهم ان يكون تكوينه الفـكري والنفسي هو الذي قاده الى هذا السلوك . أو يكون هو الذي قاد تكوينه الفكري والنفسي الى هذا السلوك حتى ولو لم يكونا أساسـا متجهيين به ومعـه في هـذا الاتجاه !!

وبدءا .. لا نريد ان نخوض في شيء قبل ان نغامر باقتحام عالم العقاد ، كيف ترجم للنبي ؟ كيف ترجم لعمر ؟ كيف ترجم لعثمان ؟ كيف ترجم لعلي ؟ كيف ترجم لاولئك الرائعين جميعا من خلال منظوره القائم على حركة الاستبصار والتحليل معا .. فان هذا المتحى النقدي اذا شئنا ان نسميه ، هو وحده القادر على اقتحام عالم العقاد بكل ما فيه من خصوبة ، وفرادة ، واسـتقلال منهج وذات !!

ولكن لنا كلمات فى مطالع هذه الرحلة : ليست هذه الدراسة كلمة أخيرة ـ حتى بالنسبة لكاتبها ـ تقال فى هذا المجال ، وانما هى محاولة اغراء حقيقى بالدخول الى هذا العالم الفاتن ، عالم التراجم الغيرية ، عالم ان تقـــول كلمتك فيمن قال كلمته عن قائل كلمات بلا حدود ·· عالم ان ترى من الداخل كيف تحاصر العظمة أو تقدر، أو يضائل من أقدارها التافهون ·· عالم ان تضرب بالسيف وتكون الضحية هو أنت ·· وان تقول الكلمة ويكون الفارس هو أنت ·· وان تقف حتى ذاهلا ويكون الهائل بكل أحجامه هو أنت !!

ستكون الرحلة مع عبقريات العقاد ·· عن منهجه فى ابداعها ·· وعن منظوره من خلالها ·· وعن قناعاته الفكرية التى يمكن أن نرصدها ·· وعن حركة التوافق والتخالف جميعا فى حركة الفكر المبدع الذى تحرك بهذه العبقريات ومعها من زمن التأمل والاحتياز والطرح ·· الى زمن المعاناة والمخاض والتحقق ·· الى زمن استحالة كل أولئك الى بنية صميمة فى جســـد الوجود الذى هو وجود بالفعل لا بالقوة كما نعنيه ·· وسنرى ··

« فى عبقرية محمد »

- ٢ -

لا نستطيع بالطبع حتى ان نوجز هنا كتاب العقاد عن « عبقرية محمد » فان المدى يتراحب بنا حينذاك الى آفاق موغلة فى البعد وموغلة فى الاتساع ٠٠ ان قصارانا هنا ان نومىء وان نشير ، والكتاب بعد فى أيدى قرائه على امتداد العالم الاسلامى ٠

فى مقدمة الكتاب يتحدث العقاد عن بواعث تأليفه له ٠٠ وعن أرجاء انجازه الى مدى ثلاثين عاما بعد ٠٠ ويلتفت العقاد ليؤكد ان القدر وحده هو الذى تعمد هذا الارجاء ليضيف الى خبرة القلم المبدع خبرة ، والى قراءات العقل المفكر قراءات ، والى تجارب الكاتب الطموح تجارب واستلهامات من مذاهب شتى فى الفكر والفن والحياة ٠

ونحس نحن مع ايقاع هذه المقدمات بدبيب المنهج التحليلى ، فكل خاطرة منجزة أو مرجأة هى خاضعة هنا لتفرس ملامحها واستنطاق مدارها الكونى ، وليست من نوع ما يقال من خواطر عائمة لا تقع فى دائرة التحليل والتأويل والتعليل ٠٠ ان البواعث

هنا مندفعة من منطق الذود عن عقائدية مفترى عليها ، والارجاء هنا كامن في قدرية بصيرة لا عشوائية ، وكل تحرك أو سكون قابل ـ من خلال هذه الدراسة ـ للانضواء تحت معقولية قابلة هي بدورها للانضواء تحت راية المنطق التحليلي .

وبدءا .. لا يريد العقاد لكتابه ـ عبقرية محمد ـ ان يكون كتابا مضافا الى غير مناطه الطبيعي من حركة الابداع العربي في كل اتجاه ، انه يؤكد منذ مطالع السطور على ان هذا الكتاب ليس سيرة نبوية جديدة تضاف الى رصيد السير العربية والافرنجية ، لان الوقائع هنا غير مقصودة لذاتها ، وليس الكتاب شرحا للاسلام أو دفاعا عنه .. انما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذى يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى . وبالحق الذى يبث له الحب في قلب كل انسان وليس في قلب كل مسلم وكفى ..

فهل استطاع العقاد بهذه المقولات ان يجد لكتابه انتماء نوعيا معينا الى فصيلة محددة من فصائل الفكر ، أو الى لون معين من ألوان الابداع ؟؟ أوشك ان ازعم هنا ان العقاد بهذه المقولات قد أبعد القارىء عن اختراق الحائط بينه وبين نوعية كتابه ، لان هذا الكتاب بالفعل ليس سيرة تضاف الى كم السير ، ولان هذا الكتاب بالفعل تقدير لعبقرية محمد ..

فماذا هو اذن ؟ هناك اتجاه أو مذهب أو مدرسة في عالم الفكر والفن يطلق عليها اسم « مدرسة تقدير العبقريات » ؟ لا أعتقد .. ان هناك ما يسمى بالسير .. وهناك ما يسمى بالتراجم .. وهناك ما يسمى بالدراسة .. وهناك ما يسمى بالتأريخ .. وأبدا ليس هناك ما يسمى بتقدير العبقريات .

من هنا يبدو ان تمهيد العقاد أو محاولة البحث لكتابه عن انتماء لم يكن موفقا بالقدر الذى أراد له والذى كنا نريد .. وان

كانت هذه الوضعية تلقى علينا تبعة ان نبحث نحن لكتابه عن انتماء، حتى لا يبقى ضائعا في المابين ، فلا هو سـيرة ، ولا هو ترجمة ، ولا هو دراسة ، ولا هو تاريخ ..

ان الكتاب ـ في رأيي وقد أكون مخطئا ـ ترجمة لمحمـد النبي صلى الله عليه وسلم وترجمة من هذا اللون الذى ارتفق فيه العقاد عناصر المنهج التحليلي الغائر أبدا في كل ما وراء السطور والحوادث والأشـياء .. والرابط بين مقدمات كل شيء ونتائجه بلا تخلف .. والخارج من كل أولئك بنظرية ان لم يصغها قوانين ومبادىء وحيثيات فقد صاغها أسـلوب بحث ، وطريقة عرض ، ومنحى رؤية ، ومنهج تحليل .. دليلي على ذلك ان هذه الترجمة التحليلية الرائعة تسـتقطب بالفعل كل أبعاد التراجم الأخرى وتتجاوز منها مالا يلائم طبيعتها كترجمة تحليلية ..

فحياة المترجم له مرصودة في هذه الترجمة أو تكاد ..

والأطر المادية والروحية والفكرية والانسانية التي تقلب في مهادها المترجم له موجودة في هذه الترجمة أو تكاد ..

والشخوص الذين أثر فيهم المترجم له أو تأثر بهم ، وعاش معهم أو عاشوا معه ، وشـاركهم خطوب حيواتهم وأفراحهم أو شاركوه هم خطوب حياته وأفراحها موجودة في هـذه الترجمة أو تكاد ..

وتطور المنحى الحياتي للمترجم له وانحناء هذا الخط الصاعد أو اندفاعه موجود في هذه الترجمة أو يكاد ..

هذه هي استقصاءات هذا اللون من التراجم التحليلية ، الى جـانب اسـقاطها الدائم والمسـتمر من منظور تحليلي على كل ما استوعبته من وقائع على تعدد هذه الوقائع ، وأطر على تباين هذه الأطر ، وشخوص على اختلاف أولئك الشخوص ، وتطور على تغاير

هذا التطور .. ولكن هذا اللون من التراجم التحليلية تجاوز كذلك قيمة الوقوف عند الكم الكلي لوقائع الحياة .. بمعنى ان كل حادثة من الحوادث لا تعنيه الا بمقدار ما توحي وتشع وتعكس عالم الداخل للمترجم له .. لا يهم ان تكون هذه الحادثة ضخمة الحجم أو ضامرة هذا الحجم .. ان ما تشعه وحده هو الذى يستقطب اهتمام كاتب التراجم التحليلية ، وهو ما استقطب بالفعل كل اهتمام العقاد ..

فاذا انتهينا الى هذه الحقيقة النقدية .. حقيقة ان هذا اللون من ألوان الكتابة الفكرية والفنية جميعا ينتمى الى عالم « التراجم التحليلية » ولا ينتمى كما حاول العقاد أن يقول الى عالم «التقدير» أو عالم « الهيولات » التى بلا تحديد .. استطعنا بعد ان نعثر على أرضية تتحرك فوقها خطواتنا الواثقة ، وأن نسير فى اتجاه **الضوء** وليس فى مفارق كل الاتجاهات ..

انها ترجمة بما هى مستقطبة للحياة .. والأطر .. والشخوص .. والتطور ..

وهى تحليلية بما هى رافضة من كل أولئك غير الموحى والعاكس والمشع .. وبما هى محركة كل ما احتازته فى اتجاه الخضـــوع الشمولى لمنطق المقدمة والنتيجة ، أو البـــاعث والفعل ، أو الشىء ونقيضه ...

لا يهم ان تفضى المقدمة هنا الى نتيجة ايجابية أو سلبية .. لا يهم ان يفضى الباعث الى الفعل أو اللافعل .. لا يهم كذلك ان يفضى الشىء الى نقيضه أو الى أى شىء .. المهم ان هذا الجـــدل الهائل هو ما يحرك كل المقدمات والبواعث والاشـــياء ، وهو هو ما يحرك كذلك كل النتائج والافعال والنقائض .. فاذا كانت طفولة محمد ـ مثلا ـ طفولة وادعة يتيمـــة مائلة للاعتزال .. فان هذه المقدمات لا تفرض بالضرورة ان يكون محمد الرجل هاربا .. أو

خانعا ٠٠ أو خوارا ٠٠ أو مائلا للتفلسف المريض ٠٠ على النقيض ٠٠ فقد خرج محمد الرجل ليحمل سيفه وكتابه ٠٠ مقاتلا على كل ثغر ٠٠ وداعيا فى كل مناط ٠٠ وضاربا عنق الخرافة والتفلسف الكاذب بسيف من قطعة اليقينى فى مجال الرؤى والأشياء !!

ويؤكد العقاد على المنحى التحليلى حين يتحدر فى حديثه عن علامات المولد النبوى من العام الى الخاص ٠٠ فقد بدأ حديثه عن « العالم » الذى ولد فيه النبى ، ثم عن « الامة » فى هذا العالم ، ثم عن « القبيلة » فى هذه الامة ، ثم عن « البيت » فى هذه القبيلة ، ثم عن « الأب » فى هذا البيت ، ثم عن « الرجل » الحلم فى كل هذه الابعاد ٠٠ والعقاد لا يتحدث عن العالم مؤرخا ، ولا عن الامة موثقا ، ولا عن القبيلة ناسبا ، ولا عن البيت معددا ، ولا عن الأب عاطفا ، ولا عن الرجل مفتونا ٠٠٠ انه يتحدث عن كل أولئك من منطق نقدى على مستوى القبول والرفض ، على مستوى الديمومة والبراءة ، على مستوى العافية والضمور ٠٠ فالعالم كان عالما متآكلا وفاقدا لتوازنه ٠٠ والامة كانت أمة تتحسس طريقها الى الغد ٠٠ والقبيلة كانت قبيلة مائلة الى البوار ٠٠ والبيت كان بيتا جليلا وان كان فقيرا ٠٠ والأب كان رجلا من طينة الشهداء ٠٠ والرجل كان يحمل فى عينيه أحزان العالم وأفراح النبوة !!

ان هذه الاحكام التى يوردها العقاد لا يطلقها هكذا عارية من التدليل والتحليل ، انها تنهض — جميعا — على ركائز من الفهم لطبيعة العالم الموضوع كقوى متشابكة تحكمها صراعات معينة ٠٠ وللون الامة كوحدة مستقلة من ناحية ومنتمية الى هذا العالم من ناحية ثانية ٠٠ ولنوعية القبيلة من حيث هى مناط صراع الاغنياء والفقراء ٠٠ ولحقيقة البيت من حيث هو وضعية جليلة اثلتها عراقة الارومة ولم يؤثلها تراكم المال ٠٠ ولسمت الأب كواحد من الرجال الذين لهم عمر الشهب ونفاذ الشموس ٠٠ ولهوية الرجل كناقل

للتاريخ من مناطه الهابط الى مناطه الصاعد ، وكموجه لكل الكون في وجهة الاكمل والاشمل شكلا ومضمونا !! ..

ويمضي العقاد في اطار منهجه التحليلي وتحت عنوان : «بشائر الرسالة» يحلل ٠ ويعلل ٠ ويرفض الا القاطع الحاسم فليست العلامات المزعومة يوم المولد النبوى تعنيه أو تستوقفه فوقتها لم يعرف أحد مغزاها أو مؤداها ، وليس من أصاخوا الى الرسالة كانوا من شهود هذه العلامات ، وليس محمد هو الطفل الوحيد الذى ولد في هذا اليوم ، فاذا جاز لمؤمن ان ينسب خارقة من هذه الخوارق الى مولد محمد ، فقد يجوز لمكابر ان ينسبها الى مولد سواه بلا ترجيح ٠٠ ان الاتكاء الحقيقى هنا ينبغى ان يؤسس على علامتين هما من خصائص حركة الاشياء : علامة الكون ٠٠ وعلامة التاريخ !!

ونعبر فصول الكتاب عن « عبقرية الداعي » و « عبقرية محمد العسكرية » و « عبقرية محمد السياسية » و « عبقرية محمد الادارية » و « محمد البليغ » و « محمد الصديق » و « محمد الرئيس » و « محمد الزوج » و « محمد الأب » و « محمد السيد » و « محمد العابد » و « محمد الرجل » و « محمد في التاريخ » ٠٠ فلا نواجه من كل أولئك سردا أو ما يشبه السرد ٠٠ وانما نواجه منهجا تحليليا متوهجا في كل هذه الفصول ٠ لا يرضى بغير ان يؤسس عبقرية الداعي على ركائز مؤهلة لتكوين داعية بلا انداد ٠٠ أو يؤسس عبقرية السياسي على مكونات تنفى كل مظنة لامكانية مقارنته بمن سواه ٠٠ وهكذا ٠٠ وهكذا ٠٠ مما لا يمكن الاستطراد معه ، فان الاستطراد يخرج بهذه السطور عن طبيعة ما وجهت اليه ٠

واذا شئنا مزيدا من التحديد في اقتناص الملامح العامة للمنهج التحليلي في عبقرية محمد ٠٠ فقد نستطيع أن نجد هنا بعضا من

هذه الملامح ·· مما يؤكد حتمية ان هذه التراجم مجتمعة تتـــكامل وتتساند ·· وتنتمي بالضرورة الى عالم التراجم التحليلية ولا تنتمي الى سواه ··

فالاصرار على تقصي السلائق النفســـية واستقصاء الملكات الشخصية ··

والدخول الباحث الى ممالك الذات بلا فكاك ··

ورفض التعويل على الخوارق واعتماد الفعل والباعث في تعليل الظواهر ودراسة الشخصية ·

والمقارنات التي لا تكل بين المترجم له وبين انداده من الغابرين والمعاصرين ··

وتقدير العبقرية من منظور يؤكد بانها خالقة لقـــوى التطور الفاعل ··

والبحث عن مواءمة الفعل التاريخي لمنطق وطبيعة الاشياء ··

ورسم الشخصية من خلال اســـــتقصاء كل ملامحها المادية والنفســـية ثم من خـــلال رؤية الكاتب الذاتية لا من خلال رؤية الآخرين ··

كل أولئك يؤكد ان العقاد كان يعرف طريقه جيدا الى كتابة هذا اللون من التراجم التحليلية ، ويؤكد ان المنهج التحليلي ليس عشوائية ضاربة على كل مدار ، وانما هي فلسفة مسبقة يدخل بها الكاتب من منطق الوعي الى عالم الابداع ·· نازفا حبره ودمه !!

« فى عبقرية عمر »

- ٣ -

ليست عناصر الحركة فى أى منهج من المناهج يابسة أو قابلة للتحجر والجمود ، لان ديمومة الاستحالة والتطور فى كل منحى من مناحى الحياة والفن والفكر تحتم بالضرورة ان تكون عناصر الحركة فى أى منهج من المناهج قابلة للتطور والنمو حتى والانكماش ، لتصير بما هى متطورة ، أو بما هى نامية ، أو بما هى منكمشة الى شكل أعلى اذا هى وافقت خطى التطور ، أو الى شكل أسفل اذا هى لم تستطع ان توائم حركة النمو وتسير فى موازاة الصعود !!

من هنا ٠٠ فقد نرى فى عبقرية من عبقريات العقاد ملامح منهج تحليلى ٠٠ ثم نرى فى عبقرية أخرى اضافة الى هذه الملامح ، أو ضمورا فى هذه الملامح ٠٠ مما يؤكد فرضية ان أيا من المناهج ليس يجوز ان يبقى حركة فكر يابسة تقف عند قناعاتها القابضة غير قابلة للمعاطاة ايجابا وسلبا ، وان من طبيعة الأشياء أن تكون ملامح المنهج التحليلى فى عبقرية عمر انضج من ملامح المنهج التحليلى فى عبقرية محمد ، وان تكون أبعاد الرؤية المؤصلة لهـــذا المنهج فى

عمر ·· اذا صح ان الترتيب الزمنى فى ابداع هذه العبقريات كان عبقرية الصديق أرحب من أبعاد الرؤية المؤصلة لهذا المنهج فى عبقرية بادئا بعبقرية محمد ·· ومثنيا بعبقرية عمر ·· ومثلثا بعبقرية الصديق ·· ان قيمة « العنصر الزمنى » هنا لا تهدر ولا تضيع وانما تبقى فى النهاية واحدة من القيم الصميمة التى تضيف الى رؤية الكاتب وخبرته ونوعية ما يعطى من المقولات !!

كنا قد وقفنا من ملامح المنهج التحليلى فى « عبقرية محمد » عند هذه العناصر :

الاصرار على تقصى السلائق النفسية واستقصاء الملكات الشخصية ·

الدخول الباحث الى ممالك الذات بلا فكاك ·

رفض التعويل على الخوارق واعتماد الفعل والباعث فى تعليل الظواهر ودراسة الشخصية ·

المقارنات التى لا تكل بين المترجم له وبين أنداده من الغابرين والمعاصرين ·

تقدير العبقرية من منظور يؤكد بأنها خالقة لقوى التطور الفاعل ·

البحث عن مواءمة الفعل التاريخى لمنطق وطبيعة الاشياء ·

رســـم الشخصية من خلال استقصـــاء كل ملامحها المادية والنفسية ٠٠ ثم من خـلال رؤية الكاتب الذاتية لا من خلال رؤية الآخرين ٠

هذه هي عناصر المنهج التحليلي كما بدت في « عبقرية محمد » فهل انداحت هذه العناصر في « عبقرية عمر » وتراحبت آمادها المادية والفكرية ؟ هل انكمشت هـذه العناصر وتراجع كاتبها عن عديد من مقولاتها تبين له خطلها أو تجاوز العصر لها ؟؟

هذا هو ما نهدف الى استكناه حقائقه من خلال هذا الاستقصاء النقدي ٠٠ وهو منشـود هائل في موازين الحـكم والتقدير بكل المقاييس :

في عبقرية عمر ٠٠ يومىء العقـاد الى المعاناة الفادحة التي صاحبت ميلاد هذا الكتاب والى معاناة أخرى لا تقل فداحة عن هذه في « محاسبة عمر » لأن عمر ـ كما يرى العقاد ـ كان حتى حين يخطىء على حجة ناهضة في كل أمر ، ومن هنا كان أصعب رجل في العظماء نقدا ومؤاخذة ٠

ومرة أخرى نواجه العقاد رافضا أن يكون كتابه عن « عبقرية عمر » سيرة ٠٠ أو تاريخا ٠٠ أو ترجمة ٠٠ وأن يكن قد اعترف هـذه المرة بان كتابه « دراســة » لأطوار عمر وخصـائص عظمته واستفادة من هـذه الخصـائص لعلم النفس والأخلاق وحقـائق الحيـــاة ٠٠

ولكننا هنا ـ كما في عبقرية محمد ـ لا نوافق العقاد على نفي كتابه « عبقرية عمر » من مناطق التراجم التحليلية ، فهو ترجمة تحليلية واعية تعرف من أين بدؤها والى أين انتهاؤها ، وتعرف الى جوار ذلك كيف تضع بطل ترجمتها تحت عديد من مشاعل الفكر والنفس والاجتماع والسياسة وحركة الأشياء ، لتقيم في نهـاية

الأمر أروع المعادلات الكاشفة عن حقائق النفس ، واتجاهات نوازع الوجدان !! ان العقاد هنا ـ كما في عبقرية محمد ـ يرفض أن يكون الحدث بذاته هو القيمة المنشودة في حركة الفكر . لأن البعد الدلالي للحدث هو ما يعنيه بالدرجة الأولى ، وهو ما يستقطب اهتماماته الباحثة من وراء كل السطور !!

في الفصل الأول من عبقرية عمر ٠٠ يربط العقاد فيما يشبه الحتمية الوجودية بين عمر بن الخطاب وبين الدعوة الاسلامية ، فقد كانت الدعوة لعمر أفقا تفتحت فيه عبقريته وتنامت على جنباته ملكاته ٠ ومن يدري ماذا كان يمكن أن يصير عمر لولا الاسلام ٠ فهو وليد الدعوة المحمدية دون سواها بلا مراء ٠٠٠ هذه الحتمية تنسحب كذلك على صلة النبي بالفاروق وعلى صلة الفاروق بالنبي ، فمن غير محمد كان يستطيع أن ينفذ الى حقائق عظمة الفاروق وأن يبتعثها فيما يشبه الدوي ليستحيل « في الاسلام » قوة بعد أن استحال « بالاسلام » عنفوانا ؟؟ ٠٠٠ هذه الحتمية تنسحب كذلك على علاقة عمر بالفعل ٠٠ وعلى علاقة العقاد بتقدير هذا الفعل معا ، فليس تقدير حركة الفعل ـ في حياة عمر ـ تبريرا للشيء بعد حدوثه ، وانما هو قائم على مبدأ القصد والمراجعة في حياة رجل يمكن أن يكون بكل الموازين « أول » من فعل ٠٠ و « أول » من ابتكر ٠٠ و « أول » من أوصى ٠٠ و « أول » من تفرد ٠٠ الى آخر هذه الأوليات !!

لو كان العقاد هنا يكتب « دراسة » كما قال ، لاكتفى من هذه الحتميات بحركتها الميكانيكية البحتة ، ولكنه يكتب ترجمة تحليلية تخضع منطق كل شيء للمنطق في كل شيء ، بحيث تبدو حركة الحتمية حركة كأنما هي مقدودة من لحم الوجود الشامل الذي يحياه الجماد والنبات والحيوان والانسان ٠ وهذا فرق ما بين الجبر في اطاره الساذج ، والجبر في اطاره المتنامي من قاع الكون الصميمي الى أعراف كل الأكوان !!

ان عمر « الممتاز كرجل » .. هو عمر « الرجل القوى » .. هو عمر الذى نرى الى « مفتاح شخصيته » ـ كما يرى العقاد ـ فى « طبيعة الجندى » ... ان « الممتـاز » فى الرجل يفضى الى « الرجل » فى القوى .. وهما معا يشكلان « الرجل الجندى » المأمول لقيادة دعوة فى عالم ضاج بزئير الوحوش وقعقعة الرماح!! ولقد أفضى كل أولئك الى عمر « المسلم » الذى لم يكن اسـلامه طفرة غاشم من الفراغ الى الفراغ .. وانما كان تحـولا صـميميا مسبقا مهدت له فى عمر استجابات صميمة ، ومهدت له فى النبى القائد بصيرة نافذة وعبقرية بطبائع الرجال ... (لأن الانسان اذا غير معيشته فانما يغـير صناعة ، واذا غير موطنه فانما يغـير بلدا ، واذا غير زيه فانما يغير سمتا يقوم على كساء ، ولكنه اذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه واستبدل به كونا آخر ، وقد غير ماضيه وماضى أهله ، وغير حاضره وحاضر أهله ، وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعـد الموت ، وغـير آراءه ومقاييسه فيما يأخـذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس . ومنها مآلف وأواصر ومحارب ومكاره متوشجات الأصول الى ما وراء الآباء والأجداد) .

هذا لون من التحليلية العقادية فى ترجمته للفاروق ، ان عمر هنا يبـدو كونا من الكون ، وليس مجرد نبات ضـامر على حفافى تكون هذا الكون .. وهو ما ننشد بالفعل أن يكون فى كل التراجم المصدية لتقييم الرجال ، فان التـاريخ قد أعطى حيواتهم بلا حصر ، وعدد أيامهم بلا تقصير ، ان البصيرة هى ما تعوزنا فى هذا الصدد ، فليست حيوات أولئك الرجال مجرد أيام تمر ، أو حوادث تقع فى أول أو منتصف أو حتى نهاية الطريق !! ..

والملاحظ فى منهج العقاد هنا انه يبدأ القضايا بالتقعيد أو ترسيخ الأصول ، ثم يمضى بعد فى محاولات تطبيقية جادة تنويعا

على هذا الايقـــاع الصميمى . وتأكيدا لصـــوابية مقـــولاته على الاطلاق ..

لقد نلتقي بعمـــر والدولة الاســـلامية .. وبعمـــر والحكومة العصرية .. وبعمر والنبى .. وبعمر والصحابة .. وبثقافة عمر .. وبعمر فى بيته .. وبعمر فى صورة مجملة .. ولكن لقـــاءنا بالفاروق فى كل هذه الأبعاد يزيدنا اقتناعا بأن العقاد حين عقـــد بيننا وبين عمر مثل هذا اللقاء لم يكن هادفا الى وعظنا من جهة ، ولا الى تعليمنا من جهة ثانية ، ولا الى حشد رءوسنا بمعلومات ناضبة عن حياة الفاروق آخر الأمر .. ولكنه كان هادفا الى تعرية الحقائق الكبرى فى حياة واحد من العظماء الذين غيروا محـــاور الفكر ، وحولوا منطلق الزمن ، ورسخوا فى الأرض مقولات ومفاهيم بحجم كل العظمة فى كل مناط !!

ولسنا نريد الاستطراد مع كل وقفة من هذه الوقفات ، حتى لا تستجيل حركتنـــا نحن الى « تلخيص » لعبقرية عمر ، فمـــا الى شىء من هذا قصدنا حين تحركنا بالقلم صوب هذه السطور .. ان استشفاف المنهج التحليلى من عبقريات العقاد هو ما نهـــدف اليه ، وقد نقترب من آمالنا فى هذا الصدد خطوة أو خطوات حين نرصد على وجه التقريب بعضا من ملامح هذا المنهج ، وهى بحق كثير .. كثير !!

ان التأكيد على أن يكون لكل شخصية « مفتاح » يفضى بنا الى مداخل وأبهاء هـــذه الشخصية واحد من ملامح هـــذا المنهج التحليلى .

ان التقعيد والتطبيق ملمح آخر من ملامح هذا المنهج .

ان تعليل كل الظواهر والمواقف ملمح آخر .

ان البداية من منطلق التسليم ، والتدرج الى صميم الحركة والبطل للانتهاء الى قرار يصوب أو يخطىء ملمح آخر ·

ان الحتمية المفضية الى توشيج أواصر البطـــل بالكون ملمح آخـر ·

ان الاعجاب بعظمة العظيم والذياد عن هذه العظمـة ملمح آخر ·· وقد لا يكون أخيرا ·

من هذه الملامح المرصودة هنا على عجل ·· يمكن أن نهتدى الى طبيعة تراجم العقاد ·· فهى « تراجم » هذا لا يقبل الجدل ·· وهى تراجم « تحليلية » هذا لا يقبل الحوار ·· وهى خطوة على طريق التأصيل لمنهج فكرى ناهض على الأخذ من التراث العالمى وعلى العطاء لهذا التراث العالمى جميعا ، هذه مقولة آمل أن لا تقبل الجدل وأن لا تتحيف من صميميتها ثرثرة الحوار ·· وقتها تتوسد رؤوسنا المعانية وسائد الشروق !!

« فى عبقرية الصديق »

- ٤ -

يخيل الى القارىء لعبقرية الصديق بعد قراءته لعبقرية عمر ٠٠ انه مع كاتبها أمام رجل فرغ من اسقاط رؤياه فى الرجال ، وفى البطولة حين كتب عبقرية الفاروق ٠٠ وانه قد أتيح له من أبى بكر مثال تطبيقى أو مقارن على وجه أدق ، فحاول أن يدرس عظمته مقارنة الى عظمة عمر ، ودوره مقارنا الى دور عمر ، ومواقفه مقارنة الى مواقف عمر ، مع اختلاف مسلم وطبيعى بين طبيعة هذا وطبيعة ذاك ٠

ولكننا ما نكاد نمضى فى قراءتنا لعبقرية الصديق حتى نحس على الفور بان العقاد الى جانب مقارناته وموافقاته ومخالفاته جميعا ، قد نحا بعبقرية الصديق منحى يضيف الى حركة الفكر ، ويثرى مجارى التطور !!

وطبيعى انه لا يعنينا أن يقول العقاد فى مقدمة كتابه انه لا يكتب ترجمة ٠٠ فتلك شنشنة نعرفها ولا ننخدع ببريقها أبدا ٠٠ لانه اذا لم تكن عبقريات العقاد تراجم فماذا اذن تكون ؟ ان كل العبقريات بنسقها التأليفى ، وبمنهجها التحليلى ،

وباستقطابها لرؤى النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، تقف من التراجم على يفاع غير منكور ··· قد يكون العقاد متهيبا أن يقول انها تراجم ، وقد يكون رأيه فى كتابة التراجم شيئا آخر لا ندريه ، لان الذى ندريه من رأى العقاد فى هذا الصدد انه يرى فى التراجم شيئا أبعد من رصد الوقائع الحياتية ، وحركة أعمق من استقصاء الملامح المادية ، ولقد ناقش فى هذا المعنى واحدا من أكبر من أبدعوا فى ميدان التراجم الغيرية وهو « اميل لودفيج » وتوهج من خلال حواره مع مقولات هذا الكاتب مايمكن أن نسميه: ملامح منهجه فى كتابة التراجم ·· وهى ملامح تنعطف صوب المنهج التحليلى بكل أبعاده لا تتعداه ··

واذا كنا فى حوارنا حول مقولات المنهج التحليلى فى « عبقرية محمد » وفى « عبقرية عمر » قد استبنا بعض ملامح هذا المنهج ، فانه من المؤكد اننا فى حوارنا مع مضامين « عبقرية الصديق » سنضيف الى الملامح ملامح أخرى ، والى الأبعاد بعدا جديدا ·· ولكن لنا ملاحظة أولى ينبغى أن نضعها هنا على هون ·· هى انه ربما لو تغير ترتيب فصول هذا الكتاب لكنا قد حصلنا على ترجمة تحليلية متنامية ، وليس على مجرد ترجمة تحليلية ·· وسيدرك هذه الحقيقة كل من يتأمل ترتيب هذه الفصول ·· ولكننا نمضى :

فى « عبقرية الصديق » يركز العقاد منذ البدء على الملمح النفسى العاكس لخلائق أبى بكر وبواعث أعماله جميعا ·· مركزا على جانب الاحتياز وليس على جانب الطرح ، فان من حق العظيم أن يوفى حقه من التوقير وأن ترفع صوره الى مكان التجلة وان لم يمنع ذلك أن نصدقهم الوصف والتصوير ··

وحين يتصدى العقاد لمقولات هاجمة على بطله لا يأخذ القضية مأخذ الروع ، ولا يأخذها كذلك من منحى الاعتباط ·· وانما هو محتشد لمعركته بكل ما يملك ، ضارب بكل ثقله ، محيط بالقضية

الموضوع استيعابا ومنحا ، راكض الى خصمه من كل صوب ، يحاور .. ويداور .. ويحلل .. ويعلل .. ويقلب الوجه الواحد على عديد من الوجوه ، فاذا انتهيت معه الى نتيجة بهرتك فيها قوة العارضة وشمولية النظرة .. واذا اختلفت معه حول هذه النتيجة فأنت لا تملك الا احترامه كخصم فاهم وذكى وقادر على منح القضية أبعادا جديدة بلا اسراف !!

لقد تتضح هذه الخاصية فى الفصل الثانى من عبقرية الصديق والذى كتبه العقاد تحت عنوان « الصديق الأول والخليفة الأول » .. لقد لغط اللاغطون بأن الصديق لم يصل الى الخلافة الا من خلال مؤامرة مدبرة .. ولكن العقاد حين يتصدى لهذه المقولة الهابطة يتألق فى حشد من الدلائل الدافعة ، وتأهيب كل دليل على جبهة من جبهات الدفاع ، ومحاصرة القوى اللاغطة بمزيد من الوعى والاستبصار وروعة الشمول ..

ان وفاء عائشة وترددها فى التبليغ .. واشراكها لحفصة ، ولحفصة بنت عمر بالذات .. واشفاقها على أبيها أن يحمل بدء الشؤم فى أول خلافة بعد موت النبى .. وأخلاقيات كل من حاول المستشرقون اشراكهم فى هذه المؤامرة المدعاة .. ومفاجأة القوم بما حدث تماما حتى اللعثمة .. وغياب أبى بكر المتصدى للزعامة عن بيت النبى وجواره فى هذه الاثناء ، واندهال عمر حتى حافة العدوان على كل من يردد النبأ الفاجع .. وتدوير عمر فى نفسه كلاما يواجه به اجتماع السقيفة .. وتدوير أبى بكر فى نفسه كلاما مثل ذلك .. وانتفاء أى موقف مسبق فى مواجهة اجتماع السقيفة بين أبى بكر وعمر .. ولقاءهما الاتفاقى المحض مع أبى عبيدة فى الطريق .. وتلويح عمر لأبى عبيدة بتولى الخلافة اما مقتنعا أو مختبرا .. ورفض معقولية أن يكون الاتفاق قد تم قبل أن يمرض النبى مرض الموت لاحتمال أن يفضح القرآن هذا

الاتفاق وأن ينزل بغير ما اتفقوا عليه أو يوصى النبى بغيره ...
ان كل ذلك يضرب كل افتراء بادعاء المؤامرة فى وجهه ، وينفى تماما أن يأتمر القوم فى مثل هذا المجال بمثل هذه المؤامرة التى لا تتفق مع ما رباهم عليه محمد من أخلاقيات !!!

هذا هو لون الدفاع الدارس الفاهم الشمولى الذى لا يترك وجهة الا توقف عندها ، ولا هاجسة الا استنبطها ، ولا خلجة فكر واحـــدة الا صاغها فى مناطها الطبيعى من حـركة القضـية ـ الموضوع !!

وانسيابا مع موقف العقـاد من بحثـــه الدائب المقتنع عن « مفتاح شخصية » لكل واحد من أبطاله العديدين ، يتلمس هنا مفتاح شخصية الصديق فى «الاعجاب بالبطولة» .. ويلقى العقاد درسا فى التراجم الأدبية كيف ينبغى أن تكون ، حتى لنحس مع استطراده التحليلى حول مصطلح الاعجاب بالبطولة اننا أمام كاتب فرغ نفسه تماما لدراسة هذه الظاهرة ، ولكننا لا نلبث أن نجد تطبيق كل هذه المقولات فى حياة الصديق ، مما يوحى بأن المنهج التحليلى الذى ارتضاه العقاد ليس شقشقة هامشية من جهة .. وليس تقعيدا متأبيا على التطبيق من جهة أخرى ، وانما هو مزاج من التقعيد والتطبيق يفضى فى النهاية الى نظرية متكاملة تضىء أبعادها بكل الرؤى ، ويتوهج مداها بكل المضامين .. ان البطولة التى تفتن العقاد هنا هى بطولة الكل المتوحد الشامل .. وليست هذه الامشاج المبعثرة التى نأخذ منها بعضها وندع منها بعضها الآخـر ..

وكأن العقاد فى بحثه الدائب عن تكامل نظرى لمنهجه التحليلى لا يريد أن يدع جانبا من جوانب الابداع دون استقطابه وارتفاقه ، فهو من خلال عبقرية الصديق يدخل عنصر الحوار أو المنولوج قضية من قضايا تصميم التراجم .. ولكن هذا الحوار لا يأخذ الحقـائق

مأخذ البديهية ولا يتناولها من منظور السرد ٠٠ فان أعدى أعداء المنهج التحليلى أن تحتل البديهة مناط الفكر ٠٠ وأن يغتال السرد شقائق التحليل ٠٠

وتتألق ظاهرة التفصيل بعد الاجمال ، أو التطبيق بعد التقعيد فى حديث العقاد عن « اسلام » أبى بكر ٠٠ وهنا تتضح ملامح المنهج العقادى ٠٠ فهو يؤصل للقضية أولا ٠٠ ثم يفلسف هذا التأصيل ثانيا ٠٠ ثم يطبق المقولات على المترجم له آخر الأمر ٠٠ وكما يلجأ العقاد فى توثيق قضاياه بالايجاب يلجأ كذلك الى توثيق هذه القضايا بعنصر السلب ٠٠ فلم يكن أبو بكر مهددا فى سيادة مضروبة على أعناق الناس ، ولم تكن لأبى بكر مصلحة فى دوام الجاهلية ، ولم يكن الرجل مغلق الذهن ولا وصفه أحد بذلك ، الى آخر هذا السلب الموحى بجذور كل الايجاب ٠٠

لا أريد أن أستطرد مع كل فصول هذا الكتاب الرائع بحق ، فان المدى يطول بنا اذا نحن فعلنا أو كنا حتى على نية أن نفعل ٠٠ وانما أريد أن أوجز عناصر المنهج التحليلى التى يمكن أن تكون عبقرية الصديق قد أضافتها الى ما أسلفنا ـ فى عبقرية محمد وعبقرية عمر ـ وهى على وجه مقارب :

المنحى النفسى فى معالجة المواقف والأحداث ٠

الدفاع من منطق الاستيعاب والفهم والاحتواء ٠

مفتاح الشخصية المستلهم ـ هنا ـ من المنحى النفسى للمترجم له ٠

الحوار أو المنولوج كعنصر جديد فى التراجم التحليلية ٠

التأصيل والفلسفة والتطبيق ٠

التأكيد على عنصر الجدل المتكامل وليس المتناقض ٠

. التوثيق بالسلب كما بالايجاب ·

التفريق بين الصدق والتجميل ·

هذه هى الملامح التى يمكن أن تضاف الى ما سبق من ملامح المنهج التحليلى ، وهى مع غيرها تكون الاطار العام لهذا المنهج الذى نلهث وراء اطاره النهائى ··· ومن الحق أن يقال : ان المنهج التحليلى الذى انتهجه العقاد فى تراجمه أهدى مما عداه من جهتين على الأقل :

الأولى ـ ان المنحى السردى فى التراجم الغيرية مهما أكب على الاستقصاء واحتواء أخبار المترجم له لن يأتى على « كل » ما يتصل بهذه الأخبار ·· وربما كانت مروية واحدة مفتقدة أدل على مزاج صاحبها من كل الركام والحشد الذى جمعه وعانى فى جمعه ، فيبقى المنحى السردى فى النهاية قاصرا عن الاحاطة المفيدة على كل حال !!

والثانية : ان المنهج التحليلى بعبوره على المرويات الساذجة التى لا تضيف الى ملامح الشخصية ، وبوقوفه عندما يمكن أن يكون مدخلا حقيقيا الى عوالم الذات ومناحى قوتها وضعفها ، انما يقدم لنا الذات المترجمة بأبعادها جميعا أو تكاد !!

مثلا ·· نحن لا نفيد كثيرا من أن أبا بكر ولد يوم كذا ، وفعل فى طفولته كذا وكذا ، وتدرج الى صباه وشبابه على هذا النحو أو ذاك ـ على صميمية كل أولئك فى التراجم ـ ولكننا نفيد أكثر من الكثير حين نعرف من بواعث المترجم له وخوالجه وقناعاته النهائية أو المرحلية فى كل القضايا وكل الحلول ·· ان الرجل ـ اللحم والدم لا يعنينا فى التراجم كثيرا ما لم يكن صاحب عبقرية فى مجال ما ، ما لم يكن صاحب بروز فى اتجاه بعينه ، وليس

السرد هو ما يعكس لنا هذا البروز وانما هو التحليل٠٠والتحـ
وحده على أى من الوجوه !!

اننا نفيـــد بلا حدود من قضية كون أبى بكر كان رجـ
« اقتداء » فى حين كان عمر رجل « اجتهاد » ٠٠ ان هذا المـ
النفسى والحياتى لا يضىء لنا مرحلة الرجولة فى حيـــاة أبى
فحسب ٠٠ ولكنه يضىء كذلك مراحل الصبا والطفولة والشـ
٠٠ ان اتجاهاتنا الصميمة ليست وليدة موقف ولا هى وليدة ،
واحد من الأطوار ٠٠ انها وشائج عمر بكامله ، ومقومات شخصـ
بأسرها ، وملامح ذات بلا نقصان ٠٠ فاذا كانت هذه الذات
تكاملت أنساقا فى مرحلة الرجولة ، فقد تنامت ايناعا مبشرا
مراحل ما قبل الطفولة من أطوار بلا حدود !!

وحسب العقاد أن يكون أول رائد على هذا الدرب ٠٠ و
فارس يركب جواده عاريا ٠٠ فالفروسية اقتـــدار لا يجبن
ولا يلتفت الى الوراء ٠٠

« فى عبقرية الامام »

– ٥ –

فى عبقرية الامام ‥ يتألق العقاد فى احتواء منهجه التحليلى على صورة رائعة ، فان وراء كل نص من النصوص التى يوردها – مؤيدة هذه النصوص أو معارضة – فكرا باحثا ورؤية نافذة واستشفافا بصيرا ‥ ان النص التاريخى لا يحمل عند العقاد قداسته الا من مواءمته الطبيعية لمنطق الأشياء وهوية الذات الفاعلة ، فاذا ارتطم هذا النص بمنطق الأشياء كان وضعية كاذبة فى مسار الحركة التاريخية ، واذا لم يتواءم مع هوية الذات الفاعلة كان ابتداعا باهتا منتميا بلا شرعية الى حركة الفعل الانسانى فى نمطه النبيل !!

وعبقرية الامام من بين عبقريات العقاد تبدو قصيدة شعر بفكر ‥ ان فيها من طبيعة الشعر رشاقة الحركة ‥ وايقاعية التعبير ‥ واحتشاد العاطفة فى كل السطور ‥ وفيها من طبيعة الفكر منطقية الحدث ‥ وتعليل الظاهرات ‥ ونبش السطح فى حركة البحث عن كينونة القاع ‥‥ ومن هنا يبدو الشعر فى هذه الترجمة غير عدوانى على تعميق حركة الفكر ‥ ويبدو الفكر غير

عشوائى بما هو استبصار بالبديهة الشعرية التى تعايش فى حركة اندفاعها ما وراء السطوح !!

وقد لا ندع هذا المجال ليفلت حتى نجلى أبعاده الغائرة · ونرى الى حركة الشعر فيه كيف تستحيل الى حـركة شعر بفكر ·· غير ناقصة عن استيعاب مدلولاتها الحية · ولا هاربة من قدر المواجهة التحليلية على أى من المستويات !!

فى ختام فصول «عبقرية الامام» يقول العقاد تحت عنوان : « صورة مجملة » :

(··· من كلمات الامام التى لم يقلها أحد غيره كلمته فى خطاب الدنيا حيث يقول : « يا دنيا غرى غيرى··غرى غيرى » !! وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء····انها لسان قدر ، وعنوان حياة ·· فقد خلق الامام وفى خليقة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجتراء ··· خلق شجاعا بالغا فى الشـجاعة ، وزاهدا بين الزهد ، ودراسا محبـا للحقيقة الدينية يتحراها حيث اهتدى اليها ··· والشجاع جرىء على الدنيا لانه لا يبالى بالحياة ، والزاهد جرىء على الدنيا لانه لا يبالى النعيم ، وطالب الحقيقـة جرىء على الدنيا لانها طريق عنـده الى غاية من ورائها ··· فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارىء من الطوارىء كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟··صام الناس قبله عن الدنيـا ثم أقبلوا على الدنيـا العريضة بحذافيرها ··· هدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت الطبائع الى مألوفها الذى أشرجت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط فى تاريخها القديم ···وأقبل الناس على الدنيا بل هرولوا الى الدنيا ··· واذا بخليفة جرىء عليهـا زاهد فيها يقف لهم فى طريقها ويصدهم عنها ··· يصد ماذا ؟ يصـد الطوفان وهو مندفع من وراء السدود ··· يصـد الطبيعـة

الانسانية وهى منطلقة من عقال التقوى ··· يصد ما لا سبيل الى صده بحال ··· فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره ، فان الانسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ··· وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى اليها أو سعت اليه ··· فمن آيات الشهادة أنه يساق الى الخلافة ولا حيلة له فى اجتنابها ··· ومن آيات الشهادة انه يساق اليها فى ساعة الفصل بينها وبين الملك ، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبـــل الأوان ·· ومن آيات الشهادة انه يساق اليها ولا حيلة له فى تحقيق أغراضها ولا فى الخروج من مآزقها ···ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا حيله فى تبـــديل أولئك الأنصـــار ··· ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا وقد غرت حوله كل انسان فهو شهيد ·· شهيد ·· شهيد !! خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ·· وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام !!!) ···

هل قال العقاد فى هذه السطور حوادث تاريخية ؟ أم وقائع مادية ؟ أم مراحل حياة ؟ أبدا لم يقل العقاد من ذلك شيئا وان يكن قد أومأ الى كثير منه ··· ولكن العقاد من خلال هذا الشعر المبطن بروعة الفكر قد قال أكثر من الحوادث والوقائع والمراحل ·· لقد أعطانا عن « الامام » صورة نابضة تجيش فيها كل روافد الحياة : جراءة على الدنيا من طرق كثيرة لا من طريق واحد !! وصمود فى مسايل الطوفان غير آبه بعرامة الطوفان !! وانحناءة رجل على حس الشـــهادة من لفائف المهد الى مهابط اللحد !! وكشـــف هائل عن مسارب الحركة الاسلامية وتخومها البشرية ايجابا وسلبا ·· تجذرا وتحدرا ·· الهاما واعتاما ·· لو ان العقاد هنـــا حشـــد ركاما من النقول التاريخية الصماء ليدلل على ملامح المرحلة لما بلغ من ذلك شيئا يثقل فى موازين التاريخ الحقيقى ·· أو قل لقد كان يبلغ من ذلك الى المستوى المتعارف الذى لاكته أقلام كثيرة واحتوته عقول

بلا حدود ٠٠ ولكن الصـــورة حينذاك كانت تبقى فى وضعيتها الجامدة : حادثة الى جوار حادثة ٠٠ وواقعة الى جـوار واقعة ٠٠ وآنا الى جوار آن ٠٠ تتكامل من كل أولئك مرحلة نرى وجههـــا الصامت ٠ ولكننا لا تستطيع أن نوغل فى أعماقها الساربة وأدغالها الهائلة ، وألفافها الشاجنة الأبعاد والأغوار !!

بضربة فكر شاعر واحدة يستطيع الكاتب أن يقتنص عديدا من الحقائق الجذرية فى هذا الكون الرحيب !!

وبآلاف من ضربات الفكر العـارى عن استبصاره الشعرى ربما يستطيع الكاتب أن يقتنص حقيقة شاردة من هنا ، أو حقيقة تائهة من هناك ٠٠ ثم لا شىء !!

ولقد ارتفق العقاد فى رحلة تراجمه التحليلية حركة الفكر بالشعر ، وحركة الفكر ـــ الشعر ٠٠ ممـا هيأ له اقتناص هـذه الحقائق الضخمة التى نقف أمامها ذاهلين ٠ غير مدركين لحقيقـة سيره الواثق اليها ، وتهديفه الصميمى الى أسرها بشبكة الفكر ـــ الشعر ٠٠ التى لا تخطىء صيدها على الاطلاق !!

لا أريد أن أتلبث عند هذه الظـاهرة أكثر مما تلبثت ٠٠ فلنعبر تخومها الى مناحى أخرى من منهج العقاد فى كتابه الرائع عن « عبقرية الامام » ٠٠٠

فى هـذا الكتاب يعترف العقاد بان هـذا العمل الابداعى « سيرة » للامام ٠٠ ولكنه يؤشب اعترافه بضوابط حتى لا يفلت اعترافه من مناطق التحديد ٠٠ فهو سيرة ٠٠ أجل ٠٠ ولكن هذه السيرة نوعيـة ربما لا تلتقى كثيرا بنوعيـات أخـرى قد تتاخم حدودها ٠٠ ليس من منحى كونها عملا ابداعيا يعكس مضامينه وشكوله معا كاتب كالعقاد ٠٠ وانما كذلك من منحى كونها سيرة

لرجل متوحد بنمطه الانسانى فى غمار الملايين من هـذا المحيط البشرى الزاخر الجنبات ـ وكما يحدد العقاد هذه الفروق :

لان فى هذه السـيرة ملتقى بالعاطفة المشـبوبة والاحساس المتطلع الى الرحمة والاكبار لانه الشهيد أبو الشهداء .

ولان فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيـال حيث تحلق الشاعرية الانسانية فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار .

ولان هـذه السـيرة تلتقى بالفكر ـ كمـا تلتقى بالخيال والعاطفة ـ لان لصاحبها آراء فى مناحى الفكر والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء فى الثقافة الاسلامية .. ولانه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكمية بين حكماء العصور .. ولانه أوتى من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين .

ولان فى هذه السيرة ملتقى بالذوق الأدبى أو الذوق الفنى ـ كملتقى الفكر والخيال والعاطفة ـ فصـاحبها على استبصـار بمناهج الأدب والبلاغة والذوق والحكمة والأدب والخطابة والابداع غير منكور فى حركة الفكر أو حركة الوجدان !!

وصاحب هذه السيرة ـ أو الترجمة على نحو أدق ـ رجـل خصومة ناشبة أبدا على رأى من الآراء أو حق من الحقوق .

ورجل شكوى وتمرد وشوق هادر الى التجديد والاصـلاح (فقد أصبح اسم على علما يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادى بها كل طالب انصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة فى حياته ، وجعل الغاصبون على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الاصلاح أو كأنها المنفس الذى يستروح اليه كل مكظوم) !!

ولكن المنحى التحليلي البحت من منهج العقاد في كتابة التراجم الغيرية يبين أكثر من خلال هذه السطور :

(... وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما بعده حذر ، لان اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يؤول بهـا الى البساطة والوضوح ، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحيـة من النواحي سهل الخلوص الى مقطع الحق فيها . فالبطل الذى يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذى يلتقى بالفكر والعاطفة ، وان هذا لأسهل من الذى يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى فى ألف سـنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح الى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة ، أو شغف بالبلاغة، أو رياضة على التقوى ، مزيدا على التخيل والشعور والتفكير) !!

هذا هو الاحساس بالخطر أمام هذا اللون من ألوان التراجم التحليلية التى لا تتأتى الشخصية من جانب واحد أو من زاوية واحدة ، وانما تتأتاها من مظانها جميعاً ، حتى يمكن الاحاطة بها ، مع مصاحبة الاحساس الدائم بالخطر كلما أوغلت الشخصية فى منادح الفكر والخيال والعاطفة وما شاء لها وجودها أن تكون ...

ان الاستطراد مع فصول هذا الكتاب رائع الاغراء ، ولكن منادح القضية أرحب من أن يضمها هذا الاطار .. فلتكن هـذه السطور تحية ان لم تستطع أن تكون دراسة .. وليكن الذهول أمام روعة النور اعترافا بمحدودية الرؤية وبانداياح آماد الحـركة الضوئية الفاتنة الحدود والأبعاد ولنكن نحن من ذلك كله ـ كما كان أولئك الكبار ـ على احساس بالخطر !!!

.. في : ذو النورين .. عثمان بن عفان

- ٦ -

على الرغم من أن كتاب العقاد : « ذو النورين .. عثمان بن عفان » لا يحمل ما حملت عبقرياته من عناوين اذا استبنا ذلك حتى من مجرد قراءة الغلاف ، الا أن منهج هذا الكتاب لا يباين منهج العقاد فى عبقرياته الأخرى ، من حيث هو ترجمة تحليلية ، وأوشك أن أقول من حيث هو أوغل هذه العبقريات جميعا فى منزع التحليل والتعميق .. حتى من جهة شكلية بحتة نرى العقاد فى مفتتح هذا الكتاب يؤكد على حقيقة أن هذا اللون من ألوان الابداع الفكرى « ترجمة » لا تعنى بسرد الحوادث ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين ، وانما تعنى من الحادثة ومن الفترة جميعا بكونهما وسيلة الى مقصد واحد : « وهو التعريف بالنفس الانسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية ، أو حالة من أحوال النبل والأريحية » .. فاذا تجاوزت هذا المقصد الى غيره فانما تجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الانسانى ، وتخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكا غير مسلك التخبط والضلال !! .

هذا الاعتراف الأولى من العقاد بأن هذا اللون الابداعي ليس مجرد تقدير لعبقرية من العبقريات بقدر ما هو بالدرجة الأولى تراجم تحليلية غائصة في دم ولحم هذه الشخصية الانسانية المتعينة يعنى بالنسبة لنا الكثير ·· الكثير ·· لأنه يجهر — ولا يكتفى بالايماء — بأن الترجمة التحليلية هى ما يملى عليه ما يكتب ، وان منهجه الابداعى فى هذا الصدد منهج مسبق ومدروس ، وان كل المقولات التى تنحنى عليها هذه العبقريات انما ينبغى أن تحاسب على ضوء من المنهجية الصارمة التى ينبغى أن تتوفر بدورها للتراجم التحليلية هكذا بلا تفريط !! ·

وبلا فتون معصوب يقف العقاد أمام أبطاله هنا معجبا ومحتشدا بغير قليل من الاعجاب ولست أدرى ماذا يمكن أن يؤخذ على العقاد فى هذا الصدد ·· ان كل الذين تصدوا للعبقريات دراسة ونقدا لم يرضهم ان يقف العقاد من أبطاله موقفا معجبا ، لأن الاعجاب — كما يقولون — يضرب كل فهم راشد فى الصميم · وبدءا · لا أريد أن ألامس الأشياء ملامسة ناعمة · فان غلاظة الجهل فى هذا الاتهام أفحش من أن نلامس وجهها بأنامل الرفق ·· ان العقاد لم يشكل أبطاله على هذا النسق الحياتى ·· ان هويتهم الخاصة قد تشكلت على نحوها الخاص حتى من قبل أن يولد العقاد ·· ان بطولتهم ليست ثمرا يطرح فى حديقة أى من الكتاب أو الدارسين أو المؤرخين · ان هذه البطولة — اذا صحت الموازين — تلهم ولا تستلهم ، تعطى ولا تأخذ ، تشع ولا تقبل مزيدا من الاشعاع ·· ومن هنا فان اعجاب العقاد ببطله لا يأتى من تعاطف حى أو ميت مع هذا البطل ، وانما يأتى من تعاطف أشمل من الحياة والموت مع « البطولة » فى هذا الانسان ··

ربما لو كتب العقاد عن البطولة كيف أن تولد وتتكون وتكون ·· كنا نحاسبه على تعاطفه ولا تعاطفه ·· بما هو متجاهل

أساسا أن يوجد البطل على مبدأ القوة والضـــعف ، الاســتطاعة والعجز ، التحليق وملامسة التراب .. أما وهو يكتب عن بطـولة تحققت بالفعل ، وأعطت كل طاقاتها واشعاعاتها بالفعل ، وأخـذت من التاريخ حجمها الطبيعي بلا تزيد وبلا إفتيات .. فان من الخطل الفاحش والغليظ أن نحاسب الكاتب على اعجابه الخارق بلون هذه البطولة ، وفتونه البالغ بحجمها الهائل في حركة التاريخ حتى وان كان يرى فيها ظاهرة لا يتطرق الضعف الى ابعادها جميعا !! .

واذا كان العقاد ـ من هذا المنظـــور ـ يطرح اعجـابه على صفحات كتابه .. فانه لا يفعل ذلك من خلال عشـــوائية جاهلة ، أو سردية بلا قرار .. وانمـــا يفعل ذلك كله من خـــلال منهجه التحليلي القائم على المقارنة والموازنة وتعقل الأشياء ، وربط كل شيء فيها على الاطلاق !! .

.. لابد أن نأخذ مثالا مما كتب العقاد لتأكيد هذه النظرية .. فان اطلاق الأحكام مما يناقض بطبيعته طبيعة المنهج التحليلي الذي نلهث في غباره على مد هذه السطور .. يقول العقاد :

(... ربما كانت سيرة الخليفة الثـــالث ـ ذي النورين ـ أو في السير بالشواهد على الخصائص التي تلازم تاريخ العقيدة في أطوارها الأولى ، ولا سيما أطوار التحول في طريق الاستقرار ... وأبرز هذه الخصـــائص في تاريخ العقيـــدة أنه تاريخ قيم ومبادئ وليس بتاريخ وقائع وأحداث .. فالوقائع والأحداث تتشـــابه في العصور المتطاولة ، ولو أننا تخيلناها معروضة في الصور الصامتة لما وجدنا من فارق يذكر بين الوقائع والأحداث التي تفصلها من مسافة الزمن آلاف السنين ، ومن مسافة المكان آلاف الفراسخ : كلها صورة متكررة من حيث ظواهرها وأعراضها البادية للعيان ، ولكنها تختلف اختلافا بعيدا حين ننفذ من ظاهرها الى باطنها ، أو حين ننفذ من حركاتها المكشوفة الى القيم النفسية التي تكمن

وراءها والى الدعاوى التى تدور عليها ولو كانت من دعاوى المبطلين التى يصدق عليها فى بعض الأحيان انها كلمات حق أريدت أباطيل ٠٠ فالحوادث التى تدور على طلب السطوة غير الحوادث التى تدور على طلب الحرية ، ولو كان طلب الحرية أكذوبة يتعلل بها المتعلل لغاية فى نفسه يسترها ويعلن ماعداها ٠٠٠ فاذا كان المتعلل بالحرية مبطلا فى دعواه فهناك فارق صحيح بين المعارك التى تذكر فيها الحرية حقا أو باطلا ، والمعارك التى لا ترد فيها على لسان أحد ولا تخطر بباله ٠ فلولا أنها أصبحت شيئا يهتم به الناس ويتنازعونه لما ذكرها الصادقون ولا المبطلون ومتى أصبحت الحرية قيمة من القيم المحسوبة فى حياة الأمم فهناك دليل عليها ممن يتعلل بها صادقا ويتعلل بها كاذبا ليخدع الناس بها عما يريده من ورائها) !! ٠

هذا نموذج من المنحى التحليلى الذى يتناول به العقاد تراجمه وعبقرياته ، كل شىء فيه خاضع لمقاييس المنطق والعقلانية وتحليل المبادىء والاتجاهات ٠٠ وربما كانت كلمات العقاد فى آخر كتابه عن عثمان بن عفان توثيقا أكيدا لمنحاه التحليلى فى تراجم الرجال ، فهو يقول مثلا : (ومن الفضول فى سيرة تدور على « تحليل الشخصية » أن نطيل فى سرد أحداث الفتنة التى انتهت بمقتله ٠٠) ويخطو أكثر نحو تعميق مفهومه فى هذا المجال حين يقول : (٠٠ وان وجبت كتابة السير فأوجب ما يوجبها أن تكشف جانب الخير فى أغوار النفس الانسانية ، لا قصيدة مديح كما يقال ، بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور) ٠٠ وهذه بعض ملامح منهجه — على الأقل من خلال هذا الكتاب — !!

ولكننا حتى الآن لا نعرف لماذا لم يطلق العقاد على كتابه عن عثمان بن عفان اسم : « عبقرية عثمان » واكتفى بأن يطلق عليه اسم : « ذو النورين ٠٠ عثمان بن عفان » ٠٠ والعقاد نفسه

يسعفنا فى هذا الصدد فى جراءة واقتحام فيقول : (٠٠ وهـذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لا نسميها بالعبقرية كما سمينا عبقرية عمر وعبقرية الامام وعبقرية الصديق ، لأننا لا نؤمن بالعبقرية لعثمان رضى الله عنه ، ونؤمن فى الحق أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين ٠ ومن أبى عليه ميزانه أن يحابى فى كلمة تستدعيها المجاراة لما سبقها من الكلمات لن ينظم قصائد المديح فى محراب التاريخ ، فحسب النفس البشرية أملا انها غنية بالحق عن قصائد المديح فى هذا المحراب) !! ٠

العقاد اذن يتحرك فى تراجمه من منطلق تحليلى يخضع حتى الهاجس العابر لمقاييس ليست ضاغطة أجل ٠٠ ولكنها صميمية على كل حال ٠٠ وهذا هو ما يعطى منهج العقاد قيمته الحقيقية وقدرته الهائلة على مواصلة السير فى الزمن ، والتمـــدد فى اعراق الحركة الفكرية النابغة بلا حدود ٠

أن يكون العقاد فى عبقرياته بادئا من منطلق تحليلى ومنته الى مناط تحليلى ٠٠ فذلك أهدى ما يمكن أن يصل اليه كاتب من طراز العقاد نشأة وثقافة واتجاه حياة ٠٠

وأن يكون هنا ــ كما هو فى عبقرياته ــ قائما على حراسة المنهج التحليلى ، رافـدا كل جوانب المنهج بتطبيقـات صـميمة مضافة ، فذلك أروع من أن يكون مجرد زاعق بأن لعثمان عبقرية حتى أضخم من عبقريات الآخرين !!

المنهج هو الأمل والمناط ٠٠ فحركة الفكر العربى كلها بحاجة لازمة الى « منهج » يحتوى شتاتها الممزق ، وينحنى على كل أبعادها الشعثاء ٠٠ والعقاد بلا مكابرة خطوة هائلة على طريق هذا الأمل العظيم !! ٠

رحلة فى اسلاميات أحمد حسن الزيات

١

عن المولد النبوى فى أدب الزيات

لا أريد أن أصنع من هذه السطور مرثية حزن على « أحمد حسن الزيات (١) » فالجديرون بالرثاء هم نحن .. ان جدارا شامخا من وراء جدار ينقض فى حياتنا كل يوم .. تاركا مكانه للريح والظلام .. وفى حومة الدوار قد نحس بالفاجعة ساعة أو ساعات .. ثم لا تلبث الحياة أن تسحب علينا غطاءها الغليظ .. فنغفو حتى عمن نحب .. وننسى حتى أولئك الذين رادوا لنا الطريق .. وأضاءوا لنا الدياجر .. ورشدوا حسنا القاصر فاحتمل أعباءه الباهظة وأوغل فى مناطق الابداع !! .

ولا أريد كذلك أن أصنع من هذه السطور دراسة أكاديمية متخصصة .. تستخلص النتائج من مقولات ومقدمات .. فان ذلك يحتاج الى عمل باذل مخلص .. يمتد فى فضاءات متعددة الى ابعاد

(١) كتبت هذه السطور بعد أيام من وفاة الأستاذ أحمد حسن الزيات الذى لم يظفر من نقادنا بعد موته الا بكلمات قليله .

متعددة وليس الى مجرد سياحة عابرة كمثل هذه السياحة في هذه السطور .

وقبل البـــدء .. لابد أن ندين أدباء الأمة العربية كلهـــا بالعقوق .. فلو أن « مهرجا » مات .. لما ووجه موته بكل هذا الصمت الجليدى الذى يبدو كأنه متفق عليه .. أو كأنه شـــهادة حق على بلادة حسنا الأدبى ... لقد انطوت حياة رائد قاتل من أجلنا بحق .. وأعطى فى أدبنا بلا حدود .. فما زدنا على أن ذرفنا دموعنا الشحيحة فى كلمات مسطحة .. كأن كل قيمة « الزيات » كانت فى كونه بشرا تربطنا به وشائج اللحم والـــدم .. ولم يكن هذا الفارس الرائع الملهم ، الذى حرك الحرف العربى فى اتجاهاته الراشدة .. وأقام ـ ما عاش ـ على حراسة الفكر أن يختل .. وعلى رعاية الفن أن ينحل .. وعلى حماية اللغة أن تصير الى بوار !! .

وكما أسلفت .. فانى لا أريد أن أصنع من هـــذه السطور مرثية حزن على أديبنا الراحل .. وانما أريد أن أعبر هـــذا الحس المأساوى الى حيث ينبغى أن يكون وفاؤنا مجديا لذكرى واحد ممن صنعوا لنا تاريخنا الأدبى .. الذى نتنفس هواءه اليوم بملء رئاتنا جميعا !!

ولأضع هنا استدراكا على عجل .. ان حبنا لرائد « كالزيات » لايمكن ان يضع عصابة سوداء على كل نوافذ الرؤية فينا .. حتى يستحيل اللون لونا واحدا بلا تمييز .. اعنى اننا قد نختلف مع فكر الزيات او قد نتفق .. ولكن اتفاقنا واختلافنا جميعا يجب ان يكونا من خلال موضوعية معينة .. وليس من خـــلال أى شىء آخـــر !!

ولقد اخترت ان أتحدث عن الجانب الاسلامى من فكر الزيات .. لأسباب أعتقد انها حقيقة .. أولا : لأننا أبدينا جحودا لهذا الفكر

الزيات كان الجانب الاسلامى ٠٠ **وثانيـا** : لأن موجة عـارمة بـدا هديرها يزأر فى محيطنا الأدبى ٠٠ توشك ان توحى الى كل المبدعين وحملة الأقلام ان الكاتب يكون اما أديبا ٠٠ أو مسلما ٠٠ أما أن يكون أديبا مسلما ٠٠ أو مسلما وأديبا ٠٠ فذلك شىء لايمكن ان يكون !! وكانت كتابات الزيات المسلمة دحضـا لهذه التهم ٠٠ وشجبا لهذه الادعاءات ٠

وربما كنت مضطرا الى القول بأن « وحى الرسالة » باجزائه الأربعة هو محور هذه الدراسة ٠٠ لا أتعـداه الى غيره من كتب أديبنا الراحل الكبير ٠٠ ولن أسـتطيع تنـاول كل مافى الأجزاء الأربعة من فكر اسلامى هكذا دفعة واحدة ٠٠ فليكن لنا الآن وقوف مع فكر الزيات المسلم فى الجزء الأول من « وحى الرسالة » لأنه فى اعتقادى يصـور ملامح فكره الصميمى فان رأيت فى الأجزاء الثلاثة الأخرى ما يمكن ان يضيف الى معالم الصورة ٠٠ فلن أتردد بالطبع فى استقطابه والانتفاع به ٠

فى المجلد الأول من « وحى الرسـالة » مقـالات ثلاث عن «ذكرى المولد» ٠٠ ومقالات أربع عن : «ذكرى العام الهجرى» ٠٠ ومقالات ثلاث عن : « رمضان » بأحداثه وذكرياته ٠٠ وعن « الحج » ٠٠ « وعيد الأضحى » مقالان ٠٠ ثم اشتات من الموضوعات التى تعالج وضع المسلمين وموقف الاسلام فى العالم المعاصر ٠٠من أمثال مقالاته عن « الشـيخ محمد عبده » ، « والامتيازات والدين » ، « والأزهر بين الماضى والحاضر » ، « ومحمد الوالد » ٠

ولقد نستطيع ان نقول ان الزيات فى حديثه عن « المولد النبوى» من خلال مقالاته الثلاث ٠٠ كان شاعرا مفتونا بروعة هذا الحدث الرائع المعجز ٠٠ الذى حرك محـاور الكون ٠٠ وصنـوب منطق التاريخ ٠٠ وأدال للحق المضىء من الباطل المظلم ٠٠ أكثر منه عالما

يربط النتائــج بالمقدمات ·· ويقفز على متون الجدل العقــلانى من قضية الى قضية أخرى ·· كان الزيات شاعرا مفتونا أكثر منه عالما بارد النظرات ·· والدليل على ذلك انه فى مقاله الأول عن « ذكرى المولد » يعرض لفساد الحياة الجاهليـــة فى هذا الاسلوب المكتنز بالشعر : « كانت قافلة الحياة يومئذ جائزة السبيل حائرة الدليل خائرة العزيمة ، والعــالم الانســانى يكابد فى هيكله المنحل عوامل البلى من وثنية توبق الروح ·· وجاهليــة توثق العقل ·· ومادية ترهق الجسد ·· وكانت الولاية على الدنيا فى ذلك الحين لأعقاب من الروم شفهم الفســوق والترف ·· وأخــلاف من الفرس هدهم الفلول والطمع ·· والناس عدا هؤلاء وأولئك أوزاع وهمج ·· اللهم الا شعبا نبيل الفطرة اعتصم بالصحراء من هذا الفساد الشامل ، فما عبث بضميره سلطان ، ولا عدا على خلقه طاغية ·· نشــأته الطبيعة على سجاياها المرسلة ، وراضته على نظمها المحتومة ، وصفاه الانتخــاب الطبيعى بالغزو المتلاحق ، والدفاع المتصـــل ، فأودى بضعيفه وأبقى على قويه ، حتى لم يدم على اديم الجزيرة الا سيف صارم ، وفرس جواد ، وذارع بطل !! ثم تنخل من هذه الصفوة الباقية فى القرن السادس أمة وسطا تحمل المثل الأعلى للانسان الأعلى (سوبرمان) فى قوة الحيوية وكمال الرجولة وصـــفاء الحس ·· تلك هى الأمة العربية التى اختارها الله لقيادة شعوبه الحائرة ، واختار منها محمدا لتبليغ رسالته الأخيرة » !!

ان الزيات هنا لايرد ظواهر الأشياء الى بواعثها الكامنة ·· ولايسوق القضايا مصحوبة بما لها وما عليها جميعا – ولا يعلل لماذا كانت الحركة فى العالم القديم غير راشدة ·· انه معنى قبل كل شىء بالتحديق فى روعة ما أنجز هذا اليتيم النبى فى عالم مدمر تماما – بهذه العبارة الضخمة ·· وهذا البيان الرقراق ·· وهذه الانسيابية الهادئة التى لا تفتعل معاظلة ·· ولاتميل الى تعاظل ما ··

وربما كان ايثار الزيات للعفوية الشاعرية فى تناول القضايا الاسلامية بالذات .. لونا من الوان التمرد على كل الكتابات المثقلة بقضـــايا المنطق .. وقضايا التحليل .. والتدليل .. والتعليل .. حيث لا يمكن ان يكون ايمان بلا عفوية .. وبلا طرح متعمد لكثير من مقولات المنطق .. ومزاعم الفلسفة .. وكبرياء العقل حتى فى رحاب أخطر مناطق الحساسية .. وآكثرها مزالق غير مأمونة المصير !! ان الاسلام دين الفطرة ، ويجب ان يكون فى فكرنـا كـذلك .. فلنقبل عليـه متهللين .. ولندع لجفاف المنطق الضاغط ان يريحنا الى حين !!

لا أريد من وراء هذه السطور ان اهدر قيمة المنطق .. ولا ان أهون من دور العقل .. ولا أن أضرب الفلسفة بالسكين ... فــان كل حقولنا الفكرية .. والدينية .. والادبية جميعا .. تصاب بمـا يشبه الضياع ان هى فرغت من العقل ، أو جنحت الى الحدس .. أو سافرت بلا فلسفة على الاطلاق !! كل الذى أردته وأريده بلا حدود . ان يتعانق على صعيدنا العربى منطق الأشياء وعفوية الأشـياء .. ان ذلك وحده جدير بان يبقى للحقائق نبضها الحى .. وللعواطف مدلولها السوى .. وللجماهير حرية ان تتعاطف مع حقائق الكون من خلال اطلالها العقائدى الشاعر بروعة الأشياء !!

ان رجلا كالزيات يمثل فى فكره الاســـلامى جانب العاطفة المتوهجة .. والاحساس الشمولى .. والافتتان بروعة هذا العالم الجليل .. بينما يمثل رجل كالعقاد فى فكره الاســـلامى جانب العقل المتألق .. والمنطق الصارم .. والغوص من خلال الظاهرة الى مهيئاتها وبواعثها جميعا .. ولنأخذ على ذلك مثلا من كتابات كل من الرجلين .. يقول الزيات فى مقاله عن «ذكرى المولد» فى الجزء الأول من « وحى الرسالة » :

« ... بين ايوان كسرى وبلاط القيصر اهتز مهد الغـــزنى

اليتيم فى أرض مكة .. فتصدع لهزته الإيوان .. وتطامن لهيبته القصر » !!

ويقول العقاد فى مثل هذه المناسبة من كتابه « عبقرية محمد » :

« ما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى اقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا انها علامة على شيء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ، ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه ، وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فاذا جاز للمصدق ان ينسبها الى مولده .. جاز للمكابر ان ينسبها الى مولد غيره ، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين » !!

ان العقاد هنا يمثل الجانب العقلى والجدلى .. بينما يمثل الزيات الجانب العاطفى .. وليس فى مقولة واحد منهما مضادة لمقولة الآخر .. وانما هما معا مكملان فعلا فى قضية إن يكون لنا فكر اسلامى ، ينزع جانب منه عن فكر منطقى محدد ومعلل .. وينزع جانب آخر عن عاطفة صادقة .. واحساس متفتح .. ووعى شاعر !!

قلت من قبل .. ان الزيات قد استهل مقاله الأول عن ذكرى المولد النبوى بتصوير رائع لفساد الحياة الجاهلية حتى القرار .. ثم عطف على حادث الميلاد .. فبين انه كان سفينة الانقاذ ، ومنارة الاشعاع .. وربيع الأرض .. وبدء رحلة العالم كله من مناطق

الكســـاد الروحي والعقلي والاجتماعى ·· الى مناطق الصحو بكل أبعاده ·· وبكل آفاقه ·· ثم انهى مقاله الرائع بالتوجه الى مسلمى اليوم ·· فى مشارق الأرض ومغاربها فى محاولة جاهدة لاستنهاض ماخمد من الهمم ·· وابتعاث ماركد من العزائم ·· وتحريك ماجمد من السواعد والسيوف ·· مرة بتبشيع عالمهم لهم ·· ومرة أخرى بتضوييء ماضيهم ومستقبلهم الذى ينبغى أن يكون !!!

ولأن الزيات كان يعرف جيـدا منهجه فى تنـاول القضـــايا وتحريكها الى غاياتها المرســـومة ·· فلقد أتى مقاله الثـانى عن « ذكرى المولد » كذلك تصـويرا للبيئة الهابطة ·· واعلانا للمولد كرجفة من رجفات الطبيعة تحيى بها الأرض ·· وتخصب بها الجفاف ·· ووقوفا عند صراعات النبى الفاتح مع الجامدين والحاقدين من قومه ·· فى اروع ملاحم التاريخ اثارة .. وضراوة .. وتأليبا على ضوء الصباح ··· ويختتم الزيات مثلما فعل اولا مقاله بالتوجه الى مسلمى اليوم ·· صارخا فيهم بذلك النشيد اللاهب : « اليس من خذلان الله لنشئنا الجدد ان يلوكوا جاهرين اسماء فلان وفلان ممن رأى رأيـا ·· أو أنشأ قصيدة ·· أو ألف كتابا ·· ثم يتركوا عامدين اســـم محمد الذى جمع العرب من شتات ·· وايقظ العالم من سبات ·· وأقام للسماء دنيا فى الارض ·· وأسس للارض دنيا في السماء ؟؟»

وفى مقاله الثالث عن « ذكرى المولد » يعطف الى العالم القديم فيدين فساده والحاده ثم يتأمل الدور الهائل الذى نهض به محمد !! والزيات هنا ·· فى هذا المقال ·· يعطى أبعاده محددة تماما لما يريد أن يقول ·· فهو يتحدث عن دور النبى فى أعطاء العالم مثلـه الاعلى بديلا عن عبوديته للخرافة والعجز ·· وعن دوره في اعطاء العالم قوة الخلق ، وشعلة الضمير بديلا عن عبوديته لتحلل الرجولة ، وذوبان العاصم ·· وســطوة السرف ·· ثم فى نهايــة المطاف يعطف على محاولته التى لا تمل ·· محاولة استنهاض كتل المسلمين الضائعين

فى الأرض .. الضالعين مع القهر .. الضارعين فى كون لا يعرف غير الأقوياء !!

من هنا .. نستطيع ان نقول أن منهج الزيات فى تناوله لذكرى مولد النبى .. كان منهج التعاطف من أول الامر .. ثم تشريح الموقف الحياتى للعالم قبل المولد بفساده وكساده .. ثم رحلة المعاناة التى خاضها النبى مع واقع البشر الآجن المتخلف .. ثم وقفة على مرتفع من الارض .. ليصيح فى جماهير الامة المسلمة صيحاته المروعة.. رجاء أن يسقط القناع .. وان ترتفع السارية .. وان يأخذ المسلمون طريقهم الى مواكبة العصر .. ومحاربة التجمد .. ومعاونة الخطى فى مسيرة الرفض الى عالم جديد !!

٢

عن الهجرة فى ادب الزيات

بمثل روعة الشعر يدور حديث أديبنا الكبير أحمد حسن الزيات فى كتابه الرائع : « وحى الرسالة » عن الهجرة النبوية .. وأقول بمثل روعة الشعر .. لأن الهجرة « كموضوع » تكاد لا تظهر على سطوح مقالاته جميعا .. وانما الذى يأخذ فى احتلال نفوسنا مع مطالع السطور .. هو انعكاس الهجرة على فكر الزيات وقلمه الفنان .. وكأنه يريد أن يقول من أول الطريق .. أن الهجرة ليست قضية قابلة للأخذ والرد بما هى حدث تاريخى فرض نفسه على واقع الحياة .. وبما هى حركة رائدة ورائعة معا فسحت للدعوة الناشئة فى مجالى الانطلاق .. وكسبت لها ارضا جديدة .. وأنصارا جديدين .. الهجرة بما هى كذلك ليست قابلة للجدل .. ولكن الذى يبقى عند ادارة الحوار من حول الهجرة دائما .. هو ما نحسه نحن من خلال وضعيتنا الحياتية الراهنة ، التى انتكست

فيها الأمة .. وضاعت الهيبة .. وتلعثمت خطواتنا على الطريق ..
ان تعاطفنا مع الهجرة يجب أن يكون مع ما أحدثت من تطور خارق .. وقلب لموازين القوى بين الدين واللادين .. وليس مع مجرد كونها حادثا وقع .. فلا يكاد يختلف اثنان فى وقوعه أبدا .. وليس كذلك مع مجرد خوارق الأشياء التى صادفت المهاجر الرائع الذى كان – عبر كل المخاطر – كأنما يحمل بين جفنيه مصائر الكون جميعا .. فهو يحركها فى اتجاهه غير هائب شيئا على الاطلاق !!!

فى المقال الاول عن « العام الهجرى » يأخذ الزيات من الهجرة نقطة انطلاقه .. ثم يصوب فكره وقلمه على الاشياء من حوله .. نافضا فيها من روحه الملتهب .. ساكبا عليها من حنانه الصبيب .. صارخا فيها بكل ما يحمل الصوت من عذابات وجراح .. ان بعث الامة المسلمة يشد خطواته منذ أول السطور .. وككل عاشق ملتزم .. يأخذ الزيات فى رصد الحياة الخفية السارية فى العروق ...

« ففى مصر تضرب الحياة الجديدة فى البراعم النابتة وتضطرم نوازى الكمال فى النفوس الهامدة .. ويفيض نبل الاحساس فى صدور الناس ... » !

وفى فلسطين تدافع العروبة جراد أوربا الماحق .. وتصارع الاستعمار المسلح الخاتل .. وتطلب عز الحياة بعز الممات وشرف التضحية » !!

« وفى سورية يقظة عاملة فطنة » !!

« وفى العراق امة تنشىء الحياة » !!

وهكذا .. وهكذا .. يدور قلم الزيات المبدع فى أرجاء الجزيرة .. ومرابع الجزائر .. ومجالى تونس .. واعطاف مراكش .. وآفاق تركيا .. وايران .. وأفغانستان .. والهند .. والصين .. واندونيسيا .. وروسيا .. ويوغوسلافيا .. وكل بلد يخفق فيه

قلب واحد بكلمة التوحيد ومغنى الإسلام وروعة العقيدة ٠٠ وهو في كل هذه الملاحقات شاعر قبل ان يكون باحثا ٠٠ وعاشق قبل ان يكون قاضيا ٠٠ وفنان قبل ان يكون وزانا لحقائق الأشياء !!

ولاينسى الزيات في نهاية مقاله ان يقف على مرتفعه صائحا في أمته ٠٠ لافتا بصرها الى ما ينبغي ان تقدم على مذبح الحياة من قرابين « رمزا على الجهـاد الواجب في سـبيل العقيدة ٠٠ والاستشهاد المروع في سبيل الحق » !!

وفي المقال الثـاني عن « العام الهجرى » يتسـاءل الزيات : « هل انفرجت خوانق الأغلال قليلا عن الرقاب العانية ؟ هل انجلت غواشي الغفلة عن العيون السـادرة ؟ هل انجـاب قتـام الذل عن النفوس العزيزة ؟ هـل ائتلفت عـلى عوادى الخطوب هذه القلوب الشتيتة ؟ » !!

ثم يستطرد في استعراض حالات التمزق التي يعـاني منها العالم العربي ٠٠ في مصر ٠٠ والشام ٠٠ والعراق ٠٠ وفي شبه الجزيرة ٠٠ رائيا لمحاولات النهوض التي تجهض قبل ان تولد ٠٠ ومحاولات التوحد التي تخنق قبل ان تكتمل ٠٠

وفي نهاية المقال يلقى بالحكمة البالغـة في هذا السـياق الشاعرى الشفاف : « ٠٠ ان الرسالة العربية التي هاجرت مغلوبة من مكة الى المدينة ٠٠ سافرت غالبة من الشرق الى الغرب ٠٠ بفضل مبدئها الالهي الذى قامت عليه ودعت اليه وفازت به ٠٠ وهو توحيد الله ٠٠ وتوحيد الكلمة ٠٠ وتوحيد القوى ٠٠ وتوحيد الغاية » !!

ويجنح الزيات الى شيء من التفصـيل في مقاله الثالث عن العام الهجرى ٠٠ فهو يومىء الى مافي الاسـلام من عطـايا المبدأ ٠٠ والعقيدة ٠٠ والأخوة ٠٠ والمساواة ٠٠ والابداع ٠٠ « والحرية التي تخصب المدارك ، لأن رسالتنا لم يوجهها الجوع ٠٠ ولا الطمع ٠٠

وانما أوجاها الذى خلق الموت والحياة ·· وجعل الظلام والنور ·· وأوجد الفساد والصلاح ·· ليـدرأ قوة بقوة ·· وينقذ انسـانا بانسان » !!

ويبكي الزيات ماتعانى من غفوة غافيـــة ·· تاركا موضوعه الحقيقى الذى شرع من أجله القلم ليكتب ·· وهو موضوع «الهجرة» ·· ليسيح مع خواطره الحزينة الاسيانة فى شعاب التأمل وأودية الاستنهاض وآفاق التنظير بين ماض زاخر بالقوة وحاضر مجدب حتى من الآمال !! ولكنه فى نهاية مقاله لايفقد القدرة على العطاء ·· انه ينادى بالعودة الى « الاسلام » ككل ·· « ان الاسلام روح فهو حياة ·· وعقيدة فهو قوة ·· وشريعة فهو دستور ·· ومحبة فهو سـلم ·· فعاملوه على ذلك تكسـبوا عطفه ·· وتغنموا رفده ·· اما الخداع والرياء ·· أو الشدة والجفاء ·· فتلك أسلحة مفلولة ان قطعت قبل الأمس فلن تقطع بعد اليوم » ·

اننا لو تجاوزنا قليلا موضوعية الحديث عن الهجرة كحدث الى حديث الزيات عن الاسلام كدين لراعنا ان الرجل بالفعل يفهم من حقائق دينه مالا يفهمه سواه ·· ولكنه لايتشدق بهذه المعرفة ·· ولا يسوقها الى القارىء فى ثوب جاهم يوحى بالفلسفة والفكر وهو عار تماما من الفكر والفلسفة ·· ان بسـاطة الفهـم ·· وبساطة العطاء ·· هى ما يميز فكر الزيات بلا تردد ·· ولكن هذه البساطة ليست مرادفة على الاطلاق للسذاجة ·· أو للاعتباط ··· والا لما أمكن للزيات أن يلخص فى كلمات روح الاسلام وشكله جميعـا · : « ان الاسلام روح حياة ·· وعقيدة فهو قوة ·· وشريعة فهو دستور ·· ومحبة فهو سلم » !!

وفى مقال الزيات الرابع والاخير عن « العام الهجرى » فى الجزء الأول من « وحى الرسالة » ·· يلفت الكاتب الى ما ينشب فى أوربا

من صراعات الحرب والدمار ٠٠ والى ما فى الشرق من « امن وسلام ». عازيا ذلك كله الى ان هذا الشرق يعيش بدينه فهو فى أمان ٠٠ ولو كتب الزيات مقاله اليوم ٠٠ أو قل لو أنصف الزيات حين كتب كلماته لكان قد قال ٠٠ ان هذا الشرق لم يعرف دينه ٠٠ ولم يعرف الطريق الى السلام ٠٠ انه قطيع من الكسالى والقانطين ٠٠ الذين أهملوا حس الحرب ففقدوا القدرة على معايشة السلام ٠٠ ان عالم اليوم عالم مائج بحركة القوة ٠٠ وقوة الحركة ٠٠ وهو محكوم بمنطق التفوق التكنيكى ٠٠ ولا مكان فيه لقانع ٠٠ أو قانط ٠٠ أو هارب خلف غباءات صمته الى دخان الضياع !!

وهكذا نستطيع أن نعرف من منهج الزيات فى كتاباته عن الذكريات والمواقف الاسلامية ٠٠ انه كاتب جمالى ٠٠ يعنى بالكلمة الراقصة ٠٠ والجملة القافزة ٠٠ والسياق الشاعر الرفاف ٠٠٠ ولا بأس من جملتين تتفقان شكلا ٠٠ وتسلمان الى جملة ثالثة كأنها آتية لتلخيصهما معا ٠٠ ولكسر رتابة السجع الذى يمكن ان يعيق تدفق الحركة فى السياق ٠٠ ولعلى لا أترك المجال هنا حتى انبه الى شىء خطير ٠٠ هو ان كلمة « كاتب جمالى » قد تفسر على نحو مافسروها به حين كتبوا عن الزيات سطورا هشة فى جريدة يومية ٠٠ فلقد زعموا ان الزيات كان أسلوبيا بحتا ٠٠ بمعنى انه كان رجل تزويق بيانى ٠٠ لايتعدى هذا المجال الى مجالات الخلق والابتكار فى المضامين ٠٠ ولو انصفوا لقالوا : إن الأدب العربى والعالمى على السواء ٠٠ لايمكن ان يكون أدبا الا اذا كان مرتكزا على فهم حقيقى لجمالية التناول الشكلى ٠٠ ان الفنون جميعا جمالية بالدرجة الأولى ٠٠ وهذا ما يميزها عن سائر أنماط الكلام ٠٠ تستطيع مثلا ان تقول عن القمر انى أرى ضوء القمر ٠٠ وتستطيع أيضا ان تقول: ما أروع ما يتدفق على يدى فى الليل من شلال أضواء ٠٠ انك فى المقولة الأولى تضع تقريرا عن شىء ثم لا شىء ٠٠ ولكنك فى المقولة

الثانية تضيف الى جمال المرئى جمال احساسك به .. وجمال انسكاب الشعر فى الجمال !! ان جمالية الزيات لايمكن ان تستحيل مطعنا فى أدبه .. وهى واحدة من أروع ما يخلف الرجل من سلمات !! وبديهى ان خصب الزيات لم يكن وليد حس جمالى مجوف .. وانما كان وليد حس جمالى غائص فى بحار حقائق الأشياء .. لقد كان الزيات يستطيع فعلا فى عباراته الجزلة .. وسياقه الرائع .. ان يعطى من الحقائق ما يعطيه غيره من كبار الكتاب .. ولكنه كان شاعرا قبل كل شىء .. شاعرا فى تعاطفه مع القضايا .. شاعرا فى تناوله للقضايا .. شاعرا فى اعطاء المتلقى نوعية احساسه بجذرية هذه القضايا وصميمية وجودها فى الوجود !!

ولكننا فى النهاية نجد أنفسنا محاصرين بالخلاف مع الزيات فى شىء صميمى .. هو ان الرجل كان ينعى على العالم الاسلامى وضعه الراهن .. وهو محق فى ذلك بلا حدود .. ولكننا فى حاجة الى من يقول لنا لماذا نحن هكذا الآن ؟ وما الطريق الى خلاصنا الواعد من هذا الوبال ؟ ولسنا فى حاجة الى من يبكى لنا .. أو يبكى علينا ..

افهم ان الزيات كان يبدأ فى مثل هذه الكتابة من نقطة بالذات .. هى تسليمه الأولى بصوابية ما يتصدى للحديث عنه .. ولكن المتلقى ليس مطالبا بتسليم أولى من أى لون كان .. انه يريد ان يفهم حتى يعتقد .. ان يؤمن حتى يناضل .. ان يشارك فى عملية التحليل والتركيب حتى يشارك فى عملية العطاء والمنح !! والمتلقى يطالب الكاتب بأن يكون دليل رحلته .. وليس ناعى مأساته .. وهنا مايمكن ان يكون قد فات كاتبنا الكبير .. اعنى انه كان يستطيع من خلال تسليمه الأولى .. ومن خلال تعاطفه الحميم .. ومن خلال شاعريته المبدعة .. يستطيع ان يحدد الهدف .. وان يرسم الغاية .. وان يوصل لمسيرة الفكر فى هذه المتاهات

.. فاذا لم يكن الزيات قد فعل هذا الذى كنا نرجو له ان يفعل فلقد فعل قريبا منه .. وهو تحريك الجماهير العريضة نحو دينها بعفوية قابلة .. وتعاطف وهاج .. وليس يمكن لكاتب ما .. ان يكون شموليا هكذا بلا ضمور .. ان ابداعه فى جانب قد يتحيف من قيمة ابداعه فى جانب آخر .. وهكذا كان كاتبنا الرائع .. « أحمد حسن الزيات » فلقد جنح فى سماوات التعاطف الملهم .. والبكائيات المؤسية .. والاستجاشة الهادرة .. وتفتيح أحداقنا جيداً على جراح يومنا المثخن بالجراح .. فان يكن قد قصر فى جانب « تعقيل » كل الأحاسيس .. وفلسفة كل الاشياء .. فليطر بجناحاته الطبيعية .. وليحاول سواه ماترك هو من مجالات لم يهيىء لها من بداية الطريق .. وليضىء الكل من خلال تكامل الأبعاض .. فان للصورة ظلا كما لها ضوء .. وللوردة دائما شوك كما لها عبير !!

٣

عن رمضان وفلسفة الصوم فى أدب الزيات

وكما يتدفق العطر من الفاف حديقة غناء .. يتدفق حوار الكاتب العربى « أحمد حسن الزيات » عن رمضان .. والصوم .. وذكريات الأمس واليوم فى تلقى هواتف الروح فى ليالى وأيام هذا الشهر العظيم .. فهو يرى بدءا .. انه : « لابد من رمضان بعد أحد عشر شهرا قضاها المرء فى جهاد العيش مستكلب النفس .. مستأسد الهوى .. متنمر الشهوة » والواقع ان هذه النظرة الى معنى الصوم فى رمضان قد استبدت بكل مفكرى المسلمين قاطبة .. انهم يرون ان رمضان واحة ظليلة يأوى اليها المسلم بعد رحلة المعاناة .. والكدح .. والايغال فى عماء المادة .. والمسلم الحقيقى

.. كما يرون .. يطرح عن كاهله في هذه الواحة كل أعباء الطبع .. وكل أوهاق الأثرة .. وكل آصار التيبس الروحي ليستقبل في رمضان جنة النفس .. وسماء الفكر .. وربيع الوجدان .. ولو انصف مفكروا المسلمين .. لعدلوا بعض الشيء في نظرتهم هذه الضيقة الى معنى الصوم في رمضان .. فلقد يخيل الى ان الاسلام العظيم لايمكن ان يريد لشهر من الشهور ان يعرى المسلم من جواذب المادة .. وهواتف الأرض .. ليجعل منه روحا فضائية سابحة في نور الكمالات .. لأن معنى ذلك اننا نفرغ الفرد من طبيعته .. لنملأه بطبيعة أخرى .. أثيرية قد تكون .. أو ملائكية ربما .. وما لهذا هيىء الانسان من أول الشوط .. وما لهذا يمكن أن يهيىء في منتصف الطريق !!

ان المسلم مسلم لأنه يعرف جيدا كيف يزاوج بين الروح والجسد .. بين المادة والقيمة .. بين الواقع والمثل .. وهكذا ينبغي لنا نحن ان نفهم الصوم .. وكل ذكريات أيامنا المسلمة .. ليس على انها محاولة لاجتثاث الانسان من تربة العصر .. لزرعه في تراب القبور .. ولكن على أنها محاولة لكسر رتابة الأشياء في حياته حتى لا يألفها .. ويستعصي بعدها على الدخول في تجارب من لون جديد .. ان الصوم .. فوق حكمته الالهية .. محاولة لانتزاع الانسان ليس من احضان المادة وجواذب التراب .. ولكن من أحضان الالف والعادة .. حتى يكون دائما فوق العادة والالف .. مهيأ لاستقبال كل مايأتي به القدر .. وكل ماتتمخض عنه حوادث الأيام .. فان ذلك وحده قمين بأن يؤهب كل ملكاته للعمل في كل المجالات .. فلا تبقى ملكة واحدة معطلة ، ولا يبقى للارتطام بما يفجأ ان يعطل فيه قدراته على استيعاب كل المفاجآت !!

بالطبع .. لست انكر ان احياء مناطق الروح والنفس ..

ومكامن الايثار والبذل ·· ومنازع الطموح والاستعلاء ·· بعض رسالة الصوم ·· ولكنني انكر ان تكون هي وحدها حكمة الصوم ··

والزيات ·· يرحمه الله ·· قد استطاع ان يلمح من هذا المعنى الكبير في مقاله الأول عن رمضان ·· حين قال مازجا قيمة المعنى الروحي بقيمة المعنى الحياتي :

« فرمضان رياضة للنفس بالتجرد ، وثقافة للروح بالتأمل ، وتوثيق لما وهى بين القلب والدين ، وتقريب لما بعد بين الرفه والمسكين ، وتأليف لما نفر من الشمل الجميع ، وتندية لما يبس من الرحم القريبة ، ونفحة من نفحات السماء تفعم دنيا المسلمين بعبير الخلد ، وأنفاس الملائكة » !!

« ورمضان ثلاثون عيدا من أعياد القلب والروح ، تفيض أيامها بالسرور ، وتشرق لياليها بالنور ، وتفتر مجالسها بالأنس » !!

« ورمضان مظهر قومي رائع » !!

« ورمضان بعد ذلك كله ربط اجتماعي وثيق ، يؤكد أسباب المودة بين أعضاء الأسرة بالتواصل والتعاطف ، وبين أفراد الأمة بالتزاور والتآلف ، وبين أهل الملة بذلك الشعور السامي الذي يغمرهم في جميع بقاع الأرض بأنهم يسيرون الى غاية الوجود قافلة واحدة ممتزجة الروح ، متحدة العقيدة ، متفقة الفكرة ، متشابهة النظام ، متماثلة المعيشة » !!

ثم يهيم الزيات في وصف خواطره كصائم بين ذكريات رمضان في المدينة ، وذكريات رمضان في الريف !!

قلت ان الزيات قد استطاع ان يلمح من معنى رمضان انه ليس تجردا محضا ·· وليس هروبا من ملاصقة المادة في مسيرة

الحياة ·· وذلك حين ارتفع بمقوله الصوم الى كونها توثيقا للعرى ·· وتعميقا للأخوة ·· وتأصيلا للوحدة والامتزاج ·

وأقول هنا الآن ·· ان الزيات في مقاله الثالث عن « الصيام بين عهدين » قد استطاع ان يلخص فلسفته الشاعرة عن الصوم كما يحسها في رمضان :

« كان عهدنا بالصوم قبل اليوم ان يكون عصيانا للنفس فى طاعة الله ، وحرمانا للجســـم فى مبرة الروح ، ونكرانا للذات فى معرفة الناس » !!

وهي فلسفة قائمة أساسا على مزج المادة بالروح كما أسلفت ·· وعلى لمح المعنى الخطير للصوم وهو كسر رتـابة العـادة لتهيئة النفس دائما لاستيعاب كل مخاطر الأيام ·· يتألق ذلك في قوله عن الصوم : « ·· ان يكون عصـــيانا للنفس فى طاعة الله » !! ان عصيان النفس هنا ليس تعذيبا ســاديا بلا مبرر معقول ·· وانما هو عصيان لزحفها الأملس فى مخاضة الأيام ·· وعصيان لركضها الذاهل على تراب العادة ·· وعصيان لدورانها الدائخ الأعمى فى ساقية الطقوس الشهوية المنهومة التى تسـلمها من خبز يابس ·· الى ماء قراح ·· الى حضن وثير !!

ان العصيان هنا ليس قمة لشيء ·· ولكنه هو القمة والشيء جميعا ·· وهذا هو الضمان الدافع الى ان تظل النفس المسلمة على الدوام فى مستوى الفعل لا فى مستوى الانفعال·· فهي سيدة أيامها ولياليها ·· سيدة حتى حاجاتها الطبيعية الى الامتلاء والارتواء !!

وفي مقال آخر عن « ١٧ رمضـــان » يدور الحديث ليس عن رمضان كوعاء لحركة الصوم ·· وانما عن رمضــان كوعاء لحركة الجهـــاد والفتح ·· فغزوة بدر الكبرى ·· تلك التى اتخذت من رمضان اطارا لاحداثها الجســـام ·· هى محور حديث الزيات فى

هذا المقال ·· والغريب فى هذا القلم الوادع الثرى الرائق المتموج ·· انه حين يسجل خواطره عن الجهاد والحرب ·· يستحيل فعلا الى قلم ثائر ومعربد ·· ؟ تقطر كلماته بالدم ·· وتوحى عباراته بأزيز الرصاص :

« كان الاسلام المهاجر من مكة الجاهلية لايزال خافض الجناح فى يثرب ، وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لايزالون تحت البلاء ·· يمتحن الله صبرهم بالألم ، ويختبر ايمانهم بالفتنة ، ليمحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة ، ويعلم الذين يصطفيهم لجهاد الرسالة ، فالقرشيون يوثبون عليهم القبائل ، واليهود ينصبون لهم الحبائل ، والمنافقون يدسون لهم الغدر فى الملق ، فلما اذن الله لدينه ان يعود ، ولمجده ان يسود ، ولنوره ان يتم ، ارسل جنوده الثلاثمائة الى وادى بدر ، يتعاقبون على سبعين نضوا من أباعر المدينة ، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة ، وبعزة المؤمن على الذلة ، وبعفة الزاهد على الفاقة ، ويسيرون فى استغراق الصوفى الى ما وعدهم الله من احدى الطائفتين : العير أو النفير ·· واحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة » !!!

ان حس الحرب يطل من كل عيون الحروف فى هذه الكلمات ·· ان الصمت بين المقاطع يرزم بالغضب ·· ويوحى بالتفجر ·· ويجأر بتموج الأعماق !!

ولعل خصائص منهج الزيات ·· وخصائص اسلوبه جميعا لم تخف لحظة واحدة ·· فقد بدأ مقالاته هنا بالتهييىء لقدوم الدعوة والداعية ·· ثم استعرض أبعاد الصراع الذى ينشب بين القادم الرائع وما استتب على الأرض من انحدارات !! ثم غنى لانتصار الحق والنور ·· كل ذلك فى اسلوبه الوائق الممتلىء ·· بثلاثياته المألوفة ·· كما فى قوله مثلا : يوثبون عليهم القبائل ، وينصبون

لهم الحبائل ، ويدسون لهم الغدر فى الملق .. وكما فى قوله مثلا : فلما اذن الله لدينه ان يعود ، ولمجده ان يسود ، ولنوره ان يتم .. وكما فى قوله مثــلا : يستعيتون بصبر المجاهد على القلة ، وبعزة المؤمن على الذلة ، وبعفة الزاهد على الفاقة !!!!

.. هذا منهج الزيات لم يتخل عنه .. وهذه خصائص اسلوبه لم تفارقه .. وربما كانت واحدة من سمات الأصالة فى كاتب ما .. أن يكون له نهج فلا ينحيه .. وأسلوب فلا يتخلى عنه .. وملامح فلا يرتدى غيرها من ملامح البشر .. أو من أقنعة المهرجين .. وهكذا كان الزيات العظيم .. رسم المنهج والتزمه .. وابتــدع الاسلوب ومارسه .. وغنى من خــلال حنجرته الموهوبة .. فردد صــدى أغنياته جيل بأسره .. فتنه مافى الصوت من أصالة ومافى النبر همس دافىء متعاطف شاعر حزين !!!

٤

عن محمد .. والدا .. وزعيما .. فى أدب الزيات

ربما كان من الأوفق أن أعيد ماقررته طويلا .. من أن كاتبنا العربى الكبير الكبير الراحل .. «أحمد حسن الزيات» كان واحدا من أروع من حملوا أمانة القلم .. وأداروا معارك الفكر .. وصوبوا منطق الأشياء .. وهو فى كل أولئك جميعا .. قد ينزع عن فكر واضح ومحدد .. ولكنه ينزع بالدرجة الأولى عن تعاطف شاعرى متوامض الآفاق ..

ويمــكن للحزن ان يستقطر من قلم الزيــات مالا يستقطر الجذل .. فان حسا مأساويا شفيفا يغيم دائما كلماته .. ويتمطى فاجعا فى سطوره .. ويهيم بلا حدود فى رؤيته حتى لمباهج الكون .. واعراس الطبيعة الفيحاء !!

وكان موضوع كموضوع « محمد الوالد » بمثابة الكنز لهذا الشاعر المأساوي الحزين .. الذي عايش مرارة الفقد في ولده « رجاء » متعاطفا مع الفقد في كل شيء .. وكأنما أحس بأن فقد محمد لولده الوحيد ابراهيم .. يمكن أن يكون معراجا لافراغ أحزانه الثرة .. وتصعيد آهاته المكبوحة .. فعطف على هذا الموقف النبوي .. وصور الجو النفسي الغائم الذي كان يلف بيت النبوة حين فرغ الرسول من مصاولة الكفر ، ومقارعة المشركين .. « وتنبهت في الانسان الأعلى مشاعر الطبيعة ، وتجددت في العربي الرسول عواطف الابوه ، وحز في نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة ، فبيوتهن التسعة حول المسجد المهل الذاكر غرقى في السكون الرهيب ، والصمت الموحش ، لا يؤنس حجراتها غناء المهد ، ولا يبهج افنيتها مرح الطفولة » !!

وكأنما أحس الزيات بعد هذه الكلمات الصادقة ان عيونا تحدق في قلمه بقسوة .. وتكاد ان تتهمه بالمروق .. فقد ألف الناس أن يتحدثوا عن محمد حديثهم عن كائن مبتوت الجذور بالأرض ، مقطوع الصلة بالمادة ، مبتور الاحساس بعواطف الحب ، ونوازع الأبوة ، وهواتف الحنين .. كأنما أحس الزيات فعلا بهذه المحاصرة غير المرئية .. فعطف من فورة يقول :

« لاريب ان أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها ، وستشمل عالم الإسلام أجمع ، ولكن أسرة محمد الرجل لاتزال لنقصها المأ من آلام العبقرية ومحنة من محن البطولة » !!

لا أرى أبدا مبررا لايراد هذه الحقيقة بعد كلمات كاتبنا الكبير عن حنين النبي الى طفولة تولد له .. الا ان يكون احساسه بحصار الأعين .. وحصار الرجم بالمروق .. وكاتب كالزيات كان يجب ان يرتفع بقلمه وبايمانه جميعا .. ان يكونا موضع مساومة

من أحد أو مع أحد ·· فلا شيء يضيع روعة العمل الفنى والفكرى أبشع من محاولة استرضاء كل التافهين ··

ان محمدا النبى انســـان قبل ان يكون أى شيء آخر ·· ولو تعطلت فيه حاسة الأبوة لتعطل فيه حس ان يكون أبا للمسلمين، يشيل أحزانهم فى مآقيه ·· وينحنى على عذاباتهم فى رفق حميم

ويمضى الزيات فى وصفه الرائع للملاحم الصدام بين محمد وقبيلته ·· حتى أخرس الشرك ·· وحطم الوثنية ، وقهقه فوق خرائب الطغيان ·· ثم يعطف الى استقباله الحميم لوليده المبطيء القادم ·· وفرحه الباذخ بجماله الطفل ·· وقفزات الرؤى فى عينيه الضائعتين فى أبد الذهول !!

ولكن الموت الصديق لايترك الوليد يشد أقماطه ·· فيأخذه فى حضنه البارد ويغيب به عن عينى والده الجاهد الحزين !!

« أخذ النبى ابراهيم من حجر أمه فوضـــعه فى حجره ، ثم نظر من خلال الدمع الى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت ، وقال بصوت متهدج ، وفؤاد متأجج ، واستسلام مطمئن : « انا ياابراهيم لا نغنى من الله عنك شيئا » !!

قد يكون الرصد التاريخى لهذا الحدث الانسانى معروفا لدى كل الدارســين ·· ولكننى لا أتحدث من أدب الزيــات عن جانب الرصد التاريخى فيه ·· وانما عن جانب الاحساس بايقاع الحدث التاريخى كأنمـــا هو متفجر للحظته من أعماق البـــداهة الأولى ·· وهو ما برع فيه قلم الزيات بلا حدود ·· حتى ليحس المتلقى ان الرجل قد شاهد الميلاد والموت ·· ومابين الموت والميلاد من ايقاع متوتر النبض ·· مخطوف الأسارير !!

فاذا تركنا « محمدا الوالد » ٠٠ الى : « محمد الزعيم » ٠٠ راعنا ان الزيات يهتف بكل زعامات العالم اليوم : « تعالوا يازعماء اليوم عانين خاشعين الق عليكم درسا من زعامة محمد !! ان فيكم زعماء أحزاب وليس فيكم زعيم أمة ، أما هو فكان زعيم الانسانية جمعاء » !!! وراعنا كذلك ان الزيات يلفت الى حقيقة هائلة حين يقول لزعماء العالم المعاصر : « انكم تكونون قبل الزعامة ناسا كالناس ، ثم تصبحون بعدها آلهة كالآلهة ، تنكرون الخاصة ، وتزدرون العامة، ثم تمتازون فتتدخلون بفضل المبادىء المزورة ، والمناصب المسخرة فى دنيا النبلاء والأغنياء ، وماذا بعد هذا ؟ اما هو فقد ملك الحجاز واليمن ، وجبى الجزيرة كلها وماداناها من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من أدم حشـــوه ليف ، ويبيت هو وأهله الليـالى طاوين لايجدون عشاء ، ويمكثون الشهر لايستوقدون نارا ، ان هو الا التمر والماء ، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب ، فاذا اقبل على أصحابه فقاموا اجلالا قال لهم : « لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد »!!!

وراعنا كذلك ان الزيات يلخص فلسفة الدعوة الاسلامية فى قوله : « ٠٠ ثم كانت سياسة كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن ، انما هى سر الخالق العظيم استعلن فى سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم ، ثم دوى فى غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ليكون الشعاع الهادى لكل ضال ، والنداء الموقظ لكل غافل » !!!

هذه ملامح الزعامة كما استنبطها الزيات فى تأمله لمواقف النبى ٠٠ زعامة أروع مافيها أنها شاملة ٠٠ وأعمق مافيها أنهـا أصيلة ، وأخلد مافيها انها على الأرض وفوق الأرض ٠٠ وفى الزمن وأعرض الزمن ٠٠ ومن الناس وأروع من عبقريات كل الناس !!!

الزعامة هنا ليست احتجاجا لثروة طائلة .. أو اعتسافا لسلطة غاشمة .. أو ارتياء لقمة زعامية مهجورة .. وانما هي زعامة مقاتلة بلا حدود .. ومقاتلة في كل اتجاه .. لقد قاتلت الفقر والعربدة .. وقاتلت الطغيان والقهر .. وقاتلت الجمود والوراثية .. وقاتلت الخرافة والجهل .. وقاتلت انطفاء المعنى في الشيء .. وطغيان الشيء على المعنى .. وقاتلت حتى استتبت العدل في الأرض .. والعلم في العقول .. والرحم في الناس .. والتطور في التاريخ !!! وحين تفقد الزعامة واحدا من هذه الأقانيم .. تصبح بالضرورة زعامة مجوفة .. لاتقدر على العطاء الموصول في زمن مائر بالفعل ورد الفعل .. وبالشيء ونقيضه .. وبالتطور الخارق المحدث آثاره على كل جبهات القتال !!

في نهاية هذه الرحلة مع أدب الزيات .. أستطيع أن أقول في وثوق لا يهزمه التردد .. ان الزيات ما يزال حيا .. بكلماته الشاعرة .. وبحسه المرهف .. وبسياقه الفنان .. وبتعاطف حروفه الملهمة مع كل ذكريات تاريخنا المكتنز .. وبهذه القوة الدافقة التي يسكبها عصيرا في شرايين موضوعه .. فاذا القديم جديد على يديه .. واذا الأمس ماثل لنا في اليوم .. واذا الزمن كله مسرح تتراقص على حواشيه مأساته وملهاته .. واذا نحن جمهوره وممثلوه .. مزاميره وأغنياته .. خطبه ونارنه .. شهوده وقضاته !! ومن خلال هذا التدامج الكوني نحس لحظة أننا .. نحن .. وما أروع ان نحس ذواتنا حتى للحظات !!!

الاتجاه التاريخي الحديث
في
كتابة التراجم الاسلامية

من الأوفق قبل ان نوغل في الاستطراد ـ ان نحدد ماذا نعني بمصطلح (الاتجاه التاريخي) · فان هذا التحديد سيعين من غير شك على تكامل الفهم ، وعلى ربط هذه الدراسة بمفهوم علمي غير قابل لقطعية التمييع !!

نعني بالاتجاه التاريخي ـ في كتابة التراجم الاسلامية ـ التزام الكاتب بنمط تاريخي استقصائي يبدأ من نقطة ميلاد البطل وينتهي الى وفاته ·· متجاوزا ذلك ـ عبر كل الدراسة ـ الى التفرس الدارس في ما وراء الظواهر الحياتية من بواعث ، وفي ما وراء الوقائع الوجودية من ملامح وسمات ·· بشرط الا يتحيف هذا التجاوز حركة الحس التاريخي الاستقصائي ·· لأن ذلك وحده هو ما يجعل من هذا الفعل التاريخي ترجمة فيما تعني بكملة الترجمة ·· ان الكاتب اذا انصرف بالاستقصاء التاريخي عن استقراء الملامح

والسمات وما وراء الظواهر من بواعث وآشجان ، فقد كتب تاريخا ربما • أو سيرة يجوز • ولكنه يبقى فى النهاية أمام مصطلح التراجم فى حاجة الى كثير هائل من المراجعات التى تتيح له بعدها ان يقف تحت مظلة مفهومها الذى نرجو ان نكون قد حددناه حين زعمنا انه معنى الرحلة فى الحياة ، وليس هو مجرد الرحلة فى الحياة !!

ولقد حمل العصر الحديث ـ منذ مطالع هذا القرن ـ نماذج من هذا الاتجاه فى كتابة التراجم الاسـلامية ، ونرجو ان نكون مفهومين حين نقول (الاتجاه التاريخى) اننا لا نقصـد بذلك على الاطـلاق ان تكون هنـاك ترجمة تاريخية وأخرى أدبية • فأن هذه المقولة مرفوضة بما هى ساقطة تحت سنابك التناقض الهائل • ان كل التراجـم ترتكز فى حركة وجـودها على العنصر التاريخى ، وتقسيمها العشوائى الى تاريخية وادبيـة يوحى بأن الأدبيـة منها لا تحمل من عناصر التاريخ شيئا ، فى حين ان ذلك لو حدث يخرج على الفور هذا النمط الأدبى غير المرتكز على أرضية تاريخية من مدى التراجم كلهـا ليستحيل الى قصـة ، أو رواية ، أو غير ذلك من الأنماط !!

اذن •• فنحن نعنى (بالاتجاه التاريخى)•• حركة الاستقصاء فى مقابل حركة الانتقاء ، بمعنى أن كاتبا كالدكتور محمد حسين هيكل فى (حياة محمد) يعتبر صاحب اتجاه تاريخى •• فى مقابل ان كاتبا كعباس محمود العقاد فى (عبقرية محمد) يعتبر صاحب اتجاه تحليلى •• لأن الأول منهما ـ الدكتور هيكل ـ عنى باستقصاء حياة النبى صلى الله عليه وسلم • ميلادا •• وخطوبا •• ونهاية •• على نحو استغراقى •• فى حين ان الثانى منهما ـ العقاد ـ ركز على ابعاض صميمية من حياة النبى على نحو انتقائى ظاهر الوضوح، وأخذ يبنى عمله الفنى على ضوء من هذا الانتقاء !!

ونرجو الا يفهم من هذا ان كاتبا كالدكتور محمد حسين هيكل

في ارتضائه للمنهج التاريخي قد عزل نفسـه عن التأمل والغوص والتحليل وعرض كل مقدماته ونتائجه على العقل والعلم وأحدث المنجزات ٠٠ فهو بالفعل قد قدم من هذه الألوان في تراجمه للنبي ٠٠ ولأبي بكر ٠٠ ولعمر ٠٠ أمثـلة بارزة ٠٠ ان الاستقصـاء التاريخي لا يعادي ما عداه ، أو هكذا نحن نقصد به في هذه الدراسة ان يكون !!

وحتى لا ندور في الفراغ ـ كما يقولون ـ فسنبدأ بتأمل الأساسيات الفكرية التي بنى عليها الدكتور هيكل انجازاته الفكرية في هذا المجال ، مع ملاحظة ان الدكتـور محمد حسـين هيكل ـ يرحمه الله ـ يعد بحق رائد هذا الاتجاه التاريخي الحديث في كتابة التراجم الاسلامية بلا منـازع على الاطـلاق ٠٠ واذا قلنـا ان هذا الكاتب يمثل عنصر الريادة لهذا الاتجاه التاريخي ٠٠ فيجب ان نردف على الفور : والعقلي والعلمي ٠٠ فقد حرص الكاتب نفسه على تأكيد هذه العقلانية وهذه العلمية في كل خطوة من خطوات شرحه لمنهجه ـ أو تقديمه له ، أو الحديث عنـه في كل معرض هنـا أو هنـاك ٠

في تقديمه لكتابه الرائد (حياة محمد) ينعى على الشعوب الاسلامية ـ في مراحل انحطاطها وتخلفها ـ انها أضافت الى حياة النبي (ما لايصدقه العقل (١) ٠٠ وان رعيلا رائعا من الشـباب المسلم قد اتهم بالالحاد والكفر والزندقة ٠٠ وان جيل الشـباب المعاصر لهم شعر بان الزندقة تقابل في نظر جمـاعة من العلماء المسلمين الذين اتهموا هذا الرعيل الرائع (حكم العقل والمنطق)(٢) ٠٠ وان جيـلا جديدا يدرس تراثه الآن (على الطريقـة العلميـة

(١) حياة محمد ـ طبعة أولى ـ ص ١٤ ٠
(٢) المرجع السابق ـ ص ١٥ ٠

الحديثة) (١) ‥ وانه حين اعتزم كتابة حياة محمد فقد فكر في ذلك (على الطريقة العلمية الحديثة) (٢) ‥ وانه التزم في كتابته لحياة محمد حدود السيرة لا يتعداها (على الطريقة العلمية الحديثة) (٣) ‥ (فحياة محمد جديرة بأن ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعة أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها) (٤) .

ان هذا الالحاح على قيمة (العقل) و (العلم) ‥ وهذا التأكيد الضمني لعقلية الابداع وعلمية المنهج ‥ يقتضي بالضرورة أن يكون الإتجاه التاريخي الحديث قابلا بطبيعته لمزيد من العطاء العقلي حتى يخرج عن مجرد كونه سردا ‥ ولمزيد من العطاء العلمي حتى يخرج عن مجرد كونه بوحا ‥ وهو بالفعل ما نراه ماثلا في (حياة محمد) لهيكل ، هذا العمل الابداعي العظيم الذى قاد حركة التراجم الاسلامية في مسار آخر مختلف تماما عن المسارات التي كانت تتلكأ فيها فيما غبر !! وهو بالفعل ما نراه ماثلا في (الصديق أبو بكر) و (الفاروق عمر) على نحو منهجي قائم على حركة العقل ومعطيات العلم بلا حدود !

فما هي الأساسيات المنهجية التي اتكأ عليها الكاتب في رحلته مع التراجم الاسلامية ؟ عن هذه الأساسيات المنهجية يمكن أن نلاحظ ما يلي :

---

(١) المرجع السابق ــ ص ١٩ .
(٢) المرجع السابق ــ ص ٢١ .
(٣) المرجع السابق ــ ص ٢٢ .
(٤) المرجع السابق ــ ص ٢٢ .

١ ــ اتكاء المؤلف على القيمة العقلية فى كل ما يتصدى له ..

نستبين ذلك واضحا فى كل ما كتب من التراجم الاسلامية ، وهو فى اتكائه الفاهم على القيمة العقلية انما يرد للفكر العربى الاسلامى اعتباره وجلاله ، ويعطى ابداعه ــ فى الوقت نفسه ــ مذاقا انسانيا عاما يخاطب العقل المعاصر بنفس الطريقة التى يتعامل بها هذا العقل المعاصر مع الأشياء والأحياء .. وربما كانت ثقافة الدكتور هيكل وقراءاته المتعددة فى الأدب الغربى هى التى أقنعته بضرورة تجاوز المراحل العاطفية فى التفكير ، وانتهاج سلسلة من التحديات العقلية فى مواجهة آلاف من التحديات التى يراد من ورائها هدم كل شيء على هذه الأرض ، أو على الأقل زرع الزراية بكل ما على هذه الأرض من مقدسات .. ان ملاحظة المنزع العقلى لاتخفى على قارىء لكتبه (حياة محمد) و (الصديق أبو بكر) و (الفاروق عمر) .. ولكن هيكل فى (حياة محمد) بالذات قد جوبه بمشكلة معضلة : كيف يوفق بين النزعة العقلية الخالصة التى تخضع كل شيء لمنطق العقل وقوانينه الصارمة ؟ وبين اشتات من الخوارق والمعجزات التى هى بطبيعتها تجاوز لمنطق العقل ، وتخطٍ لقوانينه الصارمة ؟

الحق ان الرجل كان موفقــا الى مدى بعيد حين اختار لنفسه ان يتناول محمدا من المنحى الانســانى (١) .. مؤكدا ان فذاذاته فى هذا الصدد ، وارتفاع قامته المديدة الى آفاق تنحسر دونها عيون ارتال من العباقرة والنابغين ، هو وحده الدليل الحاسم على نبوته من جهة .. وهو المدخــل الطبيعى الى التســليم له بكل الخوارق والمعجزات من جهة أخرى ، بلا حاجــة الى لدد .. أو فدامة جــدل تافه مريض !! فاذا أضفنا الى ذلك ان محمدا نفسه (لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق) (٢) .. وان

(١) أنظر : محمد وهؤلاء ــ لأحمد عبد المعطى حجازى .
(٢) حياة محمد ــ ص ٧٣ .

محور دعوته كان العقل بالدرجة الأولى ، فقد يثبت لنا بعد ذلك ان الكاتب هنا موفق الى مدى بعيد فى اتكائه الفاهم على القيمة العقلية فى كل ما يتصدى له ٠

٢ ـ اعتماد المنهج العلمي في تركيب المقدمات والنتائج ، وفي حرية القبول والرفض ، وفي النظر الى القضايا عارية من التقديس في مراحل البحث الأولية ٠

وقد لانبحث طويلا عن هذه الملامح المنهجية فى كل ما كتب الدكتور هيكل من التراجم الاسلامية ، فهو لا يفتأ فى كل مرحلة من مراحل ابداعه يذكر بهذه الحقيقة التى يعتنقها ، ويؤمن بها ، ويدافع عنها ، ويدعو اليها ٠٠ ليس ذلك فحسب ٠٠ وانما هو يطبق مقولاته الصارمة فى كل ما يكتب ، فهو معنى دائما بشيء (من تقليب الروايات ، وموازنتها ، واقتناص الحقيقة من خلالها)(١) ٠٠ وهو حين يشرع فى كتابة (حياة محمد) انما يفعل ذلك (على الطريقة العلمية الحديثة) (٢) ٠٠ وهو يقف أمام كل القضايا الكبرى التى يمكن ان تثار فى أى من تراجمه الاسلامية ليس موقف المصدق مسبقا ، أو المكذب مسبقا ٠٠ وانما موقف البادىء (بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية ، فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته) (٣) ٠

---

(١) الصديق أبو بكر ـ ص ٢٤ ٠

(٢) أنظر مقدمة (حياة محمد) ٠

(٣) حياة محمد ـ ص ١١٢ و١١٣ ٠

٣ ـ دراسة الوسط الطبيعى .. والوسط الاجتماعى .. والوسط النفسى .. والوسط الفكرى .. والوسط الذاتى .. لبطله الذى يترجم له .

وهو يعنى بالوسط الطبيعى : الموقع الجغرافى ، وطبيعة الأجواء السائدة ، ونوعية المناخ الذي ولد ويقيم فيه .

وهو يعنى بالوسط الاجتماعى ما يميز سكان المناطق التى يقيم فى ربوعها البطل ، من ملامح صميمية تبدو فى أنظمتهم الجسمية ، والأخلاقية ، والعقلية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاصلاحية .

وهو يعنى بالوسط الفكرى ما تقع عليه عينا بطله من ابداع واختراع ، وتحرر وانغلاق ، والنظر فى مقولات البطل من حيث هى بين الفرد وضميره ، وبين الفرد ونفسه ، وبين الفرد والفرد .

وهو يعنى بالوسط الفكرى ما تقع عليه عينا بطله من جمال وقبح ، وتحرر وانغلاق ، والنظر فى مقولات البطل من حيث هى أثر دال على نوعية ما يتحرك داخل الوجدان البشرى من ذبذبات .

وهو يعنى بالوسط الذاتى ما يكون عليه (الانسان) فى (البطل) .. من الجانب المادى ، والجانب الفكرى .. الجانب المادى من حيث هو مناط التوتر أو الهدوء .. والجانب الفكرى من حيث هو مناط التحرر أو الجمود . (١)

---

(١) انظر ص ١٥٣ و٩٦ من كتابه (فى أوقات الفراغ) .

٤ — رفض المنهج التاريخي القديم ، القائم على مجرد الحشد والسرد وتكديس آلاف من المرويات :

والدكتور هيكل في هذا الصدد معاصر ، يجمع ·· ويحقق ·· وينقد ويرتب ·· ويفسر ·· فالمراجع العربية القديمة التي تتحدث عن أبي بكر مثلا ·· (يشوبها اضطراب يجعل تتبع الحوادث المروية فيها عسيرا في بعض الاحيان كل العسر ، ثم أنها كثيرا ماتثبت روايات هي الى الخرافة ادنى منها الى التاريخ ، وقد يجد الانسان في موازنة بعض هذه المراجع ببعض ما يعنيه على تمحيص الحوادث ، ولكنها تتوافر رواياتها أحيانا لحوادث يقف الانسان منها موقف الحيرة ، فلا يسعه الا أن يثبتها مع الاشارة الى ما يخالجه من الريبة فيها) (١) ·

ليس الاضطراب والخرافة هما كل شيء في هذه المراجع ·· فبعضهما ·· (لا يتعرض الا لماما لأمور جليلة الخطر ترويها المراجع الاخرى مفصلة أدق التفصيل ، فالطبري ، وابن الاثير ، والبلاذري ، لايكادون يتعرضون لجمع القرآن وجمع القرآن من جلائل الاعمال التي ازدان بها عهد الصديق ان لم يكن أجلها) (٢) ·

ليس ذلك فحسب ·· وانما يلوح الاضطراب في الحديث عن حروب الردة ، وعن فتح كفتح العراق ، ثم عن فتح كفتح الشام يقع عليه الخلاف بينهم ·· (بل ترد الروايات المختلفة في أمره في الكتاب الواحد من كتبهم ، حتى ليحار الانسان أى الروايات يأخذ وأيها يدع) (٣) ·

---

(١) الصديق أبو بكر — ص ٢٣ ·
(٢) المرجع السابق — ص ٢٤ ·
(٣) المرجع السابق — ص ٢٤ ·

(.. والخلاف على الزمن الذى حدثت فيه الوقائع لا يقل عن الخلاف فى تصوير الوقائع جسامة ، وكثيرا ما يكون تحديد التاريخ لبعض هذه الوقائع مغامرة لا تستند الى أســـاس يمكن الاعتماد عليه فى شىء من الدقة (١) .

ان هذه الخرافية .. وهذا الاضطراب .. وهذا الاختلاف على الشىء الواحد .. هو ما عزز رفض الدكتور هيكل للمنهج التاريخى القديم ، ودفعه الى اعتناق منهج تاريخى حديث .. قاعدته : (العقل .. والعلم) .. فأبدع من خلاله تراجمه الاسلامية .

ويمكن أن نلمح ببساطة التزام الكاتب نوعية من المنهج التاريخى تلائم بشكل واضح طبيعة التراجم الغيرية، تلك هى التزامه الواعى (بتنامى الترجمة) .. اى البدء من نقطة الميلاد والانتهــاء الى لحظـة الموت ، عبـورا بكل ما عجت به حيـاة ابطاله من وقائع وهزائــم وانتصارات .. ان هذا الترتيب التعاقبى مما يحرص عليه الدكتور هيكل ، ويضعه امام عينيه فى كل تراجمه ، وهذه السمة تكاد تكون أبرز سمات تقنية هذا الكتاب فيما يبدع فى هذا المجال من كتابات .

٥ ـ دراسة العصر .. والحضارة .. والدولة .. من خلال تراجمه لبعض من أبطـاله الذين كان لهم دور فى توجيــه الدولة والحضارة والعصر ، تأكيدا لعنصرى التأثر والتأثير .

وقد يبدو ذلك واضحا كل الوضوح فى كتبه : (حياة محمد) و (الصديق أبو بكر) و (الفاروق عمر) .. فهو فى حياة محمــد قد جلى موقف الامبراطورية الاسلامية الاولى من كل الاتجاهات ، وأقام علاقات هذه الامبراطورية مع كل القوى المعاصرة لها على مستويين : عقائدى .. وسياسى . على المستوى العقائدى فى اشتباكهـــا مـع

---

(١) المرجع السابق ـ ص ٣٤ .

المسيحية واليهودية فى حوار هائل ومنتصر .. وعلى المستوى السياسى فى اشتباكها مع الروم والفرس والعرب المناوئين فى معارك هائلة ومنتصرة كذلك !! وهو فى (الصديق أبو بكر) قد درس موقف هذه الامبراطورية الاسلامية من المرتدين ، ومن مانعى الزكاة ، ومن فتوحات الشام والعراق .. وهو فى (الفاروق عمر) قد تأمل صراع هذه الامبراطورية الاسلامية كذلك مع الفرس والروم تهييئا لعبورها المنتصر بعد الى مصر .. وافريقيا .. والمغرب .. والى حدود الصين!

هذه على نحو مقارب ، هى الاساسيات المنهجية التى اتكأ عليها الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابته للتراجم الاسلامية ، وهى اساسيات تضع الرجل على مستوى طليعى من اولئك الذين أصلوا بفكر فاهم وبفن حقيقى معا لهذا اللون الرائع من ألوان الابداع الأدبى المعاصر بلا جدال !!

ويمكن أن نستطرد فنركز على أهم الظواهر البارزة التى ركز عليها الدكتور هيكل فى تراجمه ، وان نركز على نوعية مواجهته الفكرية لهذه الظواهر بمنطق المنهج التاريخى الذى قاعدتاه : العقل والعلم .. والذى ارتضى هو أن يكون — على كل المستويات — أساس حركته الراشدة فى هذا المجال .. ولكن المدى بنا يتسع اذا نحن حاولنا أن نفعل من ذلك كله شيئا .. فليكن الايماء هنا أجدى من الاستطراد .. وربما أتيح لنا من الزمن أن نعود !!

بعد ذلك .. نستطيع أن نضع اعمال الدكتور طه حسين التاريخية : (عثمان) و (على وبنوه) و (الشيخان) و (مرآة الاسلام) .. داخل هذا الاطار .. إن الاتجاه التاريخى الحديث الذى قاعدتاه : العقل والعلم .. هو الذى يسيطر على حركة الابداع فى هذه الأعمال واذا كان هيكل يمضى بالمنهج التاريخى فى اطاره الموضوعى لا يتعداه فان طه حسين يمضى بنفس هذا المنهج خطوة الى الامام : حيث يشتبك

به على الفور مع كل تيارات العصر السياسية والاجتماعية والفكرية فهو حين يتحدث ـ مثلا ـ عن طبيعة الحكومة التي حكمت المسلمين منذ أسست الدولة حين هاجر النبي واصحابه الى المدينة الى أن قتل عمر واستخلف عثمان ٠٠ يتساءل : هل كان هذا النظام (تيوقراطيا) ؟ هل كان (ديمقراطيا) ؟ هل كان (حكما فرديا) ؟ الى آخر هذه التساؤلات التي تخلق لدى المتلقى احساسا حقيقيا بان هذا العمل الفكري يتحرك منذ البدء في اطار معاصر تماما يشتبك مع كل تيارات العصر السياسية والاجتماعية والفكرية ٠٠ ان طه حسين لا يخضع منهجه لغير العقل ٠٠ والعقل المستوعب المتأمل الدارس الذى يتحرك بالفرد ـ موضوع الدراسة ـ من خلال مجتمعه ، وبالمجتمع كذلك على ضوء من الفعل التاريخي لافراده الموهوبين ، ان المحصلة النهائية ـ فيما يرى ـ ينبغى أن تكون حاصل جمع : (الفرد ٠٠ والمجتمع ٠٠ والأحداث) وربما كان اهتمامه الأكثر صميمية ليس على حيوات بما هى (حياة وموت) ٠٠ وانما على هذه الحيوات بما هى (فعل وفكر)

ان (الفتنة الكبرى) ـ وهي هذا العمل الجليل بحق ـ لا تبدو ترجمة ساذجة لاحداث الحياة اليومية التافهة ، بقدر ما تبدو ترجمة لاحداث الفكر والسياسة والاجتماع ٠٠ وهذه الظاهرات الصميمة التى تجعل من الحياة اليومية بحق حياة !!

واذا كان الفنان فى طه حسين ابرز من المؤرخ فيه : فان عمله التاريخي يبدو كأنما هو خلق جديد : لان فكرة الكاتب وليس فكرة الحدث هي التى تتراءى لنا ٠٠ وان كان هذا الظاهر مخاتلا بلا حدود ٠٠ فالدكتور طه حسين يعالج الواقع والأحداث بمنطقها هي لا بمنطقه هو : ولكن الشكل الفنى فى ابداعه هو الذى يخدعنا عن هذه الظاهرة ويخيل الينا أن منطق الكاتب وليس منطق الحدث هو الذى يحتل مساحة الحلول فى عمله الكبير ٠٠٠

وقرب الفراغ من هذه الرحلة ، لابد من تأكيد قضية الخلف بين رؤية كل من الكاتبين : هيكل وطه حسين ٠٠ لنفس المنهج التاريخى الحديث الذي قاعدتاه العقل والعلم ٠٠ ان هذا المنهج — تطبيقا — ليس متماثلا عندهما تمام التماثل ، لأن معنى ذلك لو حدث اننا نلغى تكوينات كل من الرجلين على المستوى الحياتى والفكرى جميعا ٠٠ ان لكل كاتب منهما رؤيته الخاصة فى تطبيق منهجه ، وهذا لا يطعن فى صميم القضية على نحو من الانحاء ٠٠

ان حس الاستقصاء الحياتى للمترجم له يبدو فى تراجم هيكل أكثر وضوحا منه فى تراجم طه حسين ٠٠ وكذلك فان الترتيب التعاقبى لوقائع الحياة وأحداثها المتشاجنة يبدو في تراجم هيكل أكثر التزاما منه فى تراجم طه حسين ٠٠ ولكننا نلاحظ كذلك أن (الاسقاط) الفكرى والثقافى فى تراجم طه حسين أخصب منه فى تراجم هيكل ٠٠ كما نلاحظ ان المعطى الفكرى فى تراجم طه حسين أغزر منه فى تراجم هيكل ٠٠ اننا مع تراجم هيكل فى عالم من المقولات المدافع عنها بعقل العصر ومنهجه العلمى ٠٠ ولكننا مع تراجم طه حسين فى قلب العصر كله بعقله وأدبه وفنه وسياسته واجتماعه ومذاهبه وتياراته ٠٠ وليس فى هذا الرأى تغليبا لجانب على جانب — كما يظن — لأن الدكتور طه حسين يتحرك فى تراجمه من خلال قناعاته النهائية بمذاهب عامة فى الفكر والفن والأدب والسياسة والاجتماع ٠٠ بينما يتحرك الدكتور محمد حسين هيكل — كالعقاد فى ذلك — من خلال قناعات جازمة بأبعاض من هذه المذاهب العامة

ورفض لأبعاض أخرى من هذه المذاهب العامة ربما لا تتوائم طبيعيا مع طموحه الفكرى ، أو اقتناعه العقائدى !!

ونستطيع بعد ذلك أيضا أن نضع أعمال (أحمد أمين) من مثل (زعماء الاصلاح) فى هذا الاطار ، على تفاوت مسلم بين طبيعة الرؤية ، وطبيعة العرض ، وطبيعة التكوين ·· وان نرصد أهم ملامح اتجاهه الفكرى والتقنى ·· ولكن المدى سيمتد ·· وستتراحب الآفاق ·· فليكن الآن وداع ··· ولنخبىء مواعيدنا فى أمل اللقاء !!!

الفهرس

جمهورية مصر العربية

مطبوعات

المجلس الأعلى للثقافة

رقم

٢٦٧

القاهرة

١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٦٠٠/٨٣

ISBN ٩٧٧ ـ ١٢٢٠ ـ ٠٥ ـ ٥